

إنجريد لو

هِبات خارقة

ترجمة أسماء الطيفي

هِبات خارقة

تأليف
إنجريد لو

ترجمة
أسماء الطيفي

مراجعة
هبة عبد العزيز غانم



هِبات خارقة

إنجريد لو

Savvy

Ingrid Law

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣١٢٢ ٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ٢٠٠٨.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

المحتويات

قاربَت ميبس على بلوغ الثالثة عشرة من عمرها واكتشاف قوَّتها السحرية أو هِبَتها الخارقة.

إهداء

من أجل هَنَا، مع حبِّي، بينما تُطفئين شموع عيد ميلادك الثالث عشر.

شكر وتقدير

أتقدَّم بالامتنان الخالص المُحب إلى ريك وشيرلي؛ لكونهما ملاذي الآمن وسطَ كل عاصفة كبيرة؛ وميشيل، الداعِمة بالكُتُب والإنصات وفطائر البصل الأخضر؛ وشُون، القارئ الدائم والكاتب الدائم الذي لا يدعني أبدًا أنسى «التركيز على التفاصيل الصغيرة».

وأتوجَّه بشكر خاص إلى لوري هورنيك، وريجينا كاستيو، وفريق التصميم في دايل/بوفين؛ وجميع الأشخاص الاستثنائيِّين في مجموعة بنجوين يانج ريدرز؛ وديبورا كوفاكس، ومايكل فلارتي، والمجموعة الرائعة في والدين ميديا؛ وبراندون دورمان لبراعته الفنية الفريدة وعواصف الألوان البديعة. كما أودُّ شكرَ سارة هيوز في بوفين بالمملكة المتَّحدة، وكلَّ المحررين الآخرين حول العالم الذين تلقَّوا الكتاب الذي بين يدك بالترحيب (ومايا نيكولش وإيلينا سانتوجادي في رايترز هاوس لمساعدتهما في وضع الكتاب بين يدي أولئك المحرِّرين)، بالإضافة إلى كاسي إيفاشيفسكي في جامعة تكساس في أرلينجتون لما أدَّته من عمل في ويست كوست.

وأخيرًا، أتقدَّم بتقديري الحار وإعجابي الصريح لوكيل أعمالي دانيال لازار في رايترز هاوس الذي لا ينام أبدًا حسبما أعتقد، وأليشا نيهاوس التي تَعلم دائمًا متى تُمسك بيدي أو تدفعني دفعةً قوية؛ وذلك لخبرتهما المميزة الفائقة، ودعمهما الدائم، وروحهما الفكاهية.

أسوأ عيد ميلاد على الإطلاق

نظَر فيش إليَّ بترقُّب. كنتُ سأشرح له أهميةَ ذهابي، دون غيري، لإيقاظ أبي. الأمرُ في غاية البساطة؛ فهِبتي الخارقة تَكمُن في إيقاظ الكائنات الحية مثلما حدث لسلحفاة سامسون. أعلم أنَّ هِبتك الخارقة ليسَت شيئًا تستطيع الحصولَ عليه بمجرَّد رغبتك في وجوده، لكنَّني إذا تمكَّنت مِن بلوغ سالَينا، فسيُمكنني إثباتُ أن سُبل إيقاظ أبي موجودة بداخلي، وعلى استعداد للانطلاق مثل شرارات روكيت أو أمطار ورياح فيش. كنتُ على وشْك أن أُخبر أخي بكل هذا لولا أن ويل جونيور عثر علينا آنذاك.

قال ويل مبتسمًا: «عيد ميلاد سعيد يا ميبس. ألن تأتيَ إلى الحفل؟»

أجبتُه وأنا أحرِّر ذراعي بالقوة من قبضة فيش المُحكَمة: «أنا قادمة.»

أطلق فيش سراحي، لكنه نظر إليَّ نظرةً ثاقبة، أكَّد فحواها بسقوط القليل من المطر من السُّحب فوق رءوسنا على نحوٍ عَشوائي مباغت. بادلت فيش النظرةَ الحادة نفسها. ثم ابتسمتُ لويل الابن ابتسامتي الخاصة، وتركتُه يَسحبني إلى الكنيسة، إلى خضمِّ الكارثة — حفل عيد ميلادي الثالث عشر — مُباشرة.

الفصل الأول

عندما بلغ أخي فيش الثالثة عشرة، انتقلنا إلى أعماق اليابسة بسبب الإعصار، وحقيقةَ أن أخي مَن أحدَثَه بطبيعة الحال. أحببت العيش في الجنوب، على حافة اليابسة، وبالقرب من الأمواج الدافعة الساحبة. عشِقتُ ذلك المكان أيما عشق؛ لذا كان تحوُّلنا عنه أمرًا قاسيًا كقسوة الرصيف الذي سقطتُ عليه للمرة الأولى من فوق دراجتي الوردية الثنائية العجلات، واحترقت يداي مثل النار من شدة الألم المُنبعِث من تحت الجلد. لكن كان واضحًا استحالةُ عيش فيش في مكانٍ مُتاخم أو محاذٍ أو مُجاوِر أو قريب أو داخل أو في أنحاء أي كُتَل مائية كبيرة. فقد كان للماء طرائقه الخاصة في تحفيز قُدرة أخي الخارقة وتحوُّل الطقس اليومي الطبيعي تحوُّلًا مخيفًا للأسوأ.

ثارت عاصفةُ عيد ميلاد فيش بلا سابق إنذار على عكس الأعاصير الطبيعية. كان أخي يَنزِع ورق التغليف عن الهدايا في الفِناء الخلفي لمنزلنا القريب من الشاطئ؛ وفي الدقيقة التالية اصطبغ وجهه وسماء الظهيرة باللون الرمادي على نحوٍ مُخيف وغريب. وبينما تشبَّث أخي بحافة الطاولة، اشتدَّت الرياح من حوله وتسارعت وتيرتُها وانتزعتْ ورق الهدايا من يده وحلَّقت به عاليًا في السماء مع كل البالونات والشرائط الطويلة الرفيعة التي راحت تدور وتتفكَّك كحفل عيد ميلاد في خلاط. اهتزَّت الأشجار وانثنت بشدة، بصرير وطقطقة، وانقلعَت مِن مكانها وسقَطَت بسهولة كعيدان في رمال مُبتلَّة. رشقتنا حباتُ المطر، كحصوات يَقذفنا بها طفل شقي في ملعب أطفالٍ، في الوقت الذي تحطَّمت فيه النوافذُ وانخلعت الألواح من السطح. وبينما اشتدت العاصفة المصحوبة بإعصار، وتعالَت أمواج المحيط المُزبدة وتقلَّبَت آخذةً في صبِّ المياه الهائجة والحُطام على مسافة بعيدة من الشاطئ، أمسكت أمي وأبي بفيش وأحكما قبضتَيهما عليه، وركض بقيتُنا بحثًا عن مخبأ

يحتمُون به. فهِمَت أمي وأبي ما كان يحدُث. كانا يتوقَّعان حدوث مِثل هذا الشيء، وأدركا أن عليهما تهدئةَ أخي ومساعدته في إنهاء العاصفة دون إحداث أذًى.

كان الإعصار فريدًا من نوعه من حيث قِصَره حسب السجلات، لكن اعتزمت عائلتنا الرحيل، وانتقلت إلى عُمق اليابسة، وغاصت في قلبها تحديدًا، وتوقَّفت في أقربِ نقطة ممكنة لمركز الدولة، للحفاظ على سلامة المدن الساحلية من أخي فيش. فهناك استطاع فيش، نظرًا لعدم وجود كتلٍ مائية ضخمة تُذكي العواصف العاتية، أن يُحرِّك الرياح ويُنزِل الأمطار دون أن يتسبَّب في كمٍّ هائل من المصائب والدمار.

أقمنا بين نبراسكا وكنساس مباشرة، في منزلنا الخاص، على مسافةٍ ليسَت ببعيدة من الطريق السريع ٨١، وليسَت بقريبةٍ من البيت المُجاوِر لنا، في موقع مثالي لعائلة مثل عائلتنا. ولم يكن يبدو من أقرب مدينة إلا هيكل ضبابي بعيد، في الطرف المقابل من الطريق الرئيسي، وكانت صغيرةً على أن تُختَص بمدرسة أو متجَر أو محطة وقود أو عمدة.

أطلقنا على قطعتنا الرفيعة مِن الأرض «كنساسكا» من يوم الإثنين إلى الأربعاء. وسمَّيناها «نبرانساس» من الخميس إلى السبت. وتركناها بلا تسمية على الإطلاق يوم الأحد تبجيلًا لمن خلق عالَمنا دون تلك الخطوط المرسومة على وجهِه كتجاعيد جَدِّي.

ولولا جَدي العجوز بومبا ما وُجدت كنساسكا-نبرانساس لنعيش فيها. فعندما لم يكن جَدِّي سوى فتًى مُراهق غرٍّ يُطفئ شموعَ عيد مولده الثالث عشر الذائبة فوق كعكة مائلة، أخذته هِبَتُه الخارقة من مَجامِعه على حين غرَّة — كما حدث لفيش ذلك اليوم في حفلة عيد ميلاده بالفناء الخلفي وما نجم عن ذلك من إعصار — ومِن ثم ظهرت ولاية أيداهو كلها. على الأقل هكذا كان يَحكي جَدي بومبا القصة على أيِّ حال دائمًا.

كان يقول: «قبل أن أبلغَ الثالثة عشرة، كانت مونتانا تَلتصِق بواشنطن على نحو مباشر، وكانت وايومينج وأوريجون تتشاركان في حدودٍ آمِنة هادئة.» وعلى مدار السنوات كبُرت حكاية عيد ميلاد جَدي الثالث عشر، مثل الأراضي التي كان يستطيع نقلَها وبسطها، واكتفَت أمي بهز رأسها والابتسام في كل مرة يتحدَّث فيها على نحوٍ مُبالغ. لكن في الحقيقة، هذا الفتى الصغير الذي شبَّ وطعن في السن مثلما يُعتَّق النبيذُ وتَشيخ الأرض شكَّل أماكنَ جديدة متى أراد وأينما رغب. وكانت هذه هي هِبتَه الخارقة.

لم تظهر هِبتي الخارقة بعدُ. لكن لم يتبقَّ سوى يومَين على شموع عيد ميلادي الثلاث عشرة الذائبة وإن كانت كعكة أمي لا تَميل إلى الجانب أو إلى المُنتصَف أبدًا. فكعكات أمي مثالية، مثلها تمامًا، وهنا تَكمُن هِبَتُها الخارقة. كانت أمي مثالية. وكلُّ ما تصنعُه مثاليًّا. وكل ما تَفعله مثاليًّا. ولو أفسدت الأمر، فإنها تُفسده بصورة مثالية.

في كثير من الأحيان تصوَّرتُ ما ستكون عليه هِبَتي الخارقة. تخيَّلت نفسي وأنا أطفئ شموع كعكتي أخمِد النيران في مداخن أربع مُقاطعات. أو تخيَّلت وأنا أسرُّ أمنيةَ عيد ميلادي في نفسي — وأنفخ وجنتي عن آخرهما بالهواء — أن أُحلِّق نحو السقف مثل بالون عيد ميلادي السعيد تمامًا.

قلتُ لأخي روكيت: «ستكون هِبَتي رائعة. أنا واثقة من ذلك.»

أجاب روكيت، وهو يُمرِّر يدَه في كتلة شعره الأشعث الكثيف الداكن فحدثَت طقطقة بفعل الكهرباء الساكنة: «الفتيات لا يَحصُلن على الهِبَات الفذَّة. الفتيات لا يَحظين إلا بالهِبَات المهذَّبة الهادئة أو الطيبة الودود وما شابه من الهِبَات المُملَّة. وحدَهم الفتيان هم مَن يفوزون بالهِبَات القوية.»

عبستُ في وجه روكيت وأخرجتُ لساني استهزاءً به. فكلانا يعلم أن هناك فتياتٍ كثيرات من بداية شجرة العائلة إلى نهايتها يتمتَّعن بهِبَات قوية وشديدة مثل جول أخت جَدِّي التي يُمكنها الرجوع بالزمن إلى الوراء عشرين دقيقة كلَّما عطست؛ أو ابنة العم أوليف التي يُمكنها إذابةُ الثلج بنظرة حادَّة حارقة.

كان روكيت في السابعة عشرة ومُفعمًا بالتفاهات غيرِ المسموح لي بالتفوُّه بها حتى أتقدمَ كثيرًا في العمر. لكنه كهربائي قلبًا وقالبًا، ممَّا جعله مُعتزًّا بنفسِه. وعلى سبيل التسلية كان روكيت يوقِف شَعر رأسي كما لو كان قد فرَكه ببالون أو يضرب فيش بصعقة كهربية عابثة من الجانب الآخر من الغرفة. ورغم ذلك كان روكيت يستطيع الحفاظَ على بقاء الأضواء مُشتعلةً عند انقطاع الكهرباء، الأمر الذي سرَّ عائلتي بلا شك، خاصة صغارَ عائلة بومونت.

كان روكيت أكبرَنا سنًّا، يَليه فيش، ثم أنا. ويَفصِل بيني وبين فيش سنة واحدة فحسب؛ ومن ثَم تشاركنا الطولَ نفسه تقريبًا، وتشابهنا في الكثير من الملامح، وفي لون الشعر الذي يُشبه لون الرمل والقش مثل أمِّنا. لكن بينما ورِثتُ عن أبي عينَيه العسليتَين، ورِث فيش عن أمي عينَيها الزرقاوين كالمُحيط. كان الأمر كأننا أخذنا جزءًا صغيرًا من أمي، أو جزءًا صغيرًا من أبي وصنعنا الباقي بأنفسنا.

لم أكن أصغرَ أفراد عائلتنا سنًّا أو حجمًا؛ فقد كان سامسون الكئيب الداكن الغامض في السابعة من عمره، وجيبسي ذات الوجه الذي يُشبه الدُّمى في الثالثة من عمرها. كانت جيبسي مَن بدأت مُناداتي بميبس، عندما عجز لسانها الطفولي الجذَّاب عن نُطقِ اسمي

الكامل ميسيسيبي. لكن أسعفني هذا اللقب. فقد لاحقني ذلك الاسم في الأرجاء كسُحب فيش الكثيفة المُنذِرة بالعواصف.

سيطرت اللهفة والحماسة الملازمتان لصخب عيد الميلاد على مَشاعري، يوم الخميس السابق للجمعة، والجمعة السابقة للسبت، الموافق عيد ميلادي الثالث عشر. جلست على طاولة العَشاء بجوار مَقعد أبي الفارغ وصَحْنه الجاهز، ولم أَلمَس طعامي تقريبًا. وفي الطرف المقابل جلست جيبسي تُثرثر بلا توقُّف، تُحصي الكائنات التي تخيلت رؤيتها في الغرفة وتتوسَّل إليَّ لأساعدها في تسميتها.

دفعتُ الطعام في أرجاء صَحني، متجاهلةً شقيقتي ومستغرقة في أحلام اليقظة حولَ ما سيَحدُث عندما أحصُل على هِبَتي الفريدة، وفجأةً رنَّ الهاتف وسط اللحم المطبوخ في المرق والبطاطس المهروسة والفاصوليا الخضراء غير المحبوبة كثيرًا. نهضت أمي للردِّ على الهاتف، فاغتنمنا وجَدِّي بومبا الفُرصة لإلقاء البطاطس المهروسة فوق الفاصوليا، مِن وراء ظهرها. ودسَّ سامسون بعضًا من الفاصوليا في جيوبِه لإعطائها إلى سلحفاته الأليفة الميتة رغم تنبيهات أمي المتكرِّرة ألا يُعطيَها أيًّا من طعامنا الطيب لأنها ميتة بالفعل، وسيتعفَّن الطعام فحسب. لكن سامسون كان على ثقةٍ حزينة من أن سُلحفاته في بيات شتوي لا أكثر؛ ومن ثَم حالت رأفة أمي به دون إلقائها خارج المنزل.

كنا نتبادل الابتسامات حول طاولة المطبخ بشأن تصرُّفنا الذكي مع الفاصوليا عندما أسقطت أمي سماعةَ الهاتف مُصدِرة صوتًا مُجلجلًا وأطلقت تنهيدةً حارة واحدة تنمُّ عن حزن عارم. انهارت أمي على أرضية المطبخ، وبدت للجميع كما لو أنها تَخترق بعينَيها المشمَّع المربع التصميم ذي اللونين الأزرق والبُني، كي تتطلَّع إلى اللبِّ المكوَّن من الحمم البركانية المُشتعلة في مركز الأرض مُباشرة.

وقالت بصوتٍ مُختنِق بينما انقبضت ملامحها المثالية وانبسطت: «إنه بابا.»

هبَّت زوبعة من ناحية فيش من المائدة بعثَرَت شعرنا وطيَّرت مناديل المائدة الورقية على الأرضية بصورة فوضوية. وازدادت أجواء الغرفة دفئًا ورطوبة كما لو أن المنزل نفسه يتصببَّ عَرقًا كريهَ الرائحة من قلقِه، وجلجلت الأوعية الفارغة المُحْكمة الغلق المغبرَّة المُصطفَّة فوق الخزانات وصلصلت مثل مئات الكئوس التي تُقرَع لشرب نَخْب. كانت السماء تمطر بالخارج بسبب فيش، وتحوَّل المطر في غُضون ثوانٍ من مجرَّد مطر خفيف

إلى زخَّات غزيرة، وفيش يحملق بعينين متسعتين وفمٍ فاغِر كاشفًا عن أسنانه، بينما يُحاول السيطرة على خوفه لكنه عجز عن تخفيف وقع هِبَته الخارقة.

تجرَّأ روكيت على النُّطق: «أمي؟» طقطق الهواء من حوله بفعل الكهرباء الساكنة والتصقَ قميصه بجسدِه كالتصاق الجوارب بالمناشِف بعد خروجها من المجفِّف مباشرة. وومضت المصابيح في المنزل ومضاتٍ مُتتابعة، وافرنقعت الشرارات الزرقاء وطقطقت عند أطراف أصابعه المتشنِّجة المُتوترة.

نظرت أمي إلى مَقعد أبي الفارغ وصَحنه الجاهز ثم استدارت إلينا بفمٍ مُرتجف وأخبرتنا عن الحادثة التي وقعت على الطريق السريع. وحكَت لنا كيف تحطَّمت السيارة بشدة كعُلبة مياه غازية تحت حذاء راعي بقر، وكيف ذهب ولم يتمكَّن من الفِرار قبل وقوع ذلك، وكانت النتيجة أنْ رقد بمَشفى «هوب» في سالَينا وتمدَّد على السرير مُكسرًا في غيبوبة لا يستطيع الاستيقاظ منها.

قال جَدي لأمي في مواساة، كأن الزمن عاد بهما إلى الوراء؛ حيث لا تزال أمي طفلةً صغيرة تجلس على رُكبة جَدِّي وتبكي دميتها المحطَّمة: «لا تقلقي يا طفلتي. أولئك الأطباء مُتمرِّسون في عملهم. وسيداوون رفيقك في غمضة عين. وسيُعيدون الأمور إلى نِصابها.» كانت نَبرة جَدي حانية ومُطمئنة. لكن بينما أضاءت الومضات المُتتابعة لشرارات روكيت المتوتِّرة وجهَ جَدِّي رأيت القلق محفورًا في كل تجاعيده.

شعرتُ بالكراهية تجاه أبي لجزء بسيط من الثانية. كرهته لأنه كان يعمل في مكانٍ بعيد جدًّا عن المنزل ويُضطرُّ إلى أن يسلكَ الطريقَ السريع كل يوم. وكرهتُه لتعرُّضه لتلك الحادثة وإفسادِه للحم المطبوخ في المرق. خاصة أني أدركت أن كعكتي المثالية المزينة بعجينة السُّكر الصفراء والوردية لن تعودَ، فكرهتُ أبي لتحطيمه أهمَّ عيد ميلاد في حياتي حتى قبل أن يَحين موعدُه. ثمَّ غشَّاني خزيٌ حارق لمجرَّد أني فكَّرت على هذا النحو في أبي العزيز الطيب، وغُصت في مَقعدي. وللتكفير عن هذه المشاعر الأنانية، جلست بهدوء وتناولتُ كلَّ حبات الفاصوليا الخضراء البغيضة حتى آخر حبة من تحت البطاطس المهروسة بينما ارتطمَت أمطار فيش بالنوافذ وتسبَّب روكيت في انفجار كل مصابيح المنزل بصَعقة كهربائية في الأسلاك المشحونة فتهشَّمت بفَرقعة وتطايرت شظاياها الزجاجية على الأرضية بجلجلة وغرِق المنزل في ظلام دامس.

الفصل الثاني

بقيتُ مُستيقظة في سريري، إلى وقتٍ مُتأخِّر من تلك الليلة، في غرفة النوم المُظلِمة التي أقتسمُها مع جيبسي ورُحت أُنصِت إلى أنفاسها المُنتظِمة والنَّقرات المُتواصِلة لأمطار فيش القَلِقة. وتناهى إلى مسامعي حركة أمي وروكيت في أنحاء الطابق السُّفلي وهما يكنُسان الزجاج ويستبدلان المصابيح. كان جَدِّي قد ذهب إلى سريره أيضًا إلا أن الأرض ظلَّت تُقعقِع من حينٍ لآخَر وأرضية الغُرفة تهتزُّ كأنَّ باطن الأرض يُعاني ألمًا في المِعدة.

كان من المقرَّر أن يذهبَ روكيت وأمي إلى سالَيْنا في الصباح الباكر ويَمكُثا بنُزلٍ بالقرب من المشفى. توسَّلت إليهما كي يَصحباني معهما، وناشدتهما أن يَسمحا لي برؤية أبي والإقامة في النُّزل والحصول على بعض مِن قِطَع الصابون المَلفوفة في ورق. لكن كان لا بدَّ من بقاء بقيتنا في المنزل مع جدِّي. وتحتَّم ذهاب روكيت لأنه لا يُمكن تشغيل سيارتنا العائلية القديمة إلا بلمستِه الكهربائية.

لم يَقُل أحدٌ شيئًا بخصوص عيد ميلادي. ولم يَقُل أحدٌ شيئًا عن أي شيء. وبتُّ مستيقظةً أكثرَ الليل عاجزةً عن النوم، حتى تسلَّلت أمي على أطراف أصابعها إلى الغُرفة مع طُلوع الفجر، كي تودعَني هامسةً وتُقبِّل وجنتي قُبلة خفيفة بشفتَيها الورديتين المثاليتَين. ولأنَّني كنتُ لا أزال مُستاءة من عدم السماح لي بالذهاب معها ومع روكيت إلى سالَينا، تظاهرت بالنوم، وبُعَيد ذلك سمعتُ صوت صفق أبواب السيارة، وانطلاق محرِّكها بشرارة روكيت، وهما يرحلان بعيدًا عن المنزل.

في يوم الجمعة السابق ليوم عيد ميلادي تولَّى فيش مسئوليةَ الاعتناء بجيبسي وجَدي بومبا. ووقع على عاتقي مسئولية إيقاظ سامسون وتجهيزه للذَّهاب إلى المدرسة والتأكُّد من صعودنا الدرجات الثلاث الشديدة الارتفاع للحافلة البرتقالية الكبيرة التي ستَحملُني

وسامسون مسافةَ ١٥ ميلًا إلى المدرسة في هيبرون بنبراسكا. اضطُررتُ إلى وكز سامسون الكئيب ونكزه إلى الطريق الموحل الطويل باتجاه صندوقنا البريدي الذي سقَط أثناء الليل، بعد أن دفعَتْه قعقعةُ جَدِّي القَلِقة مسافة عشرة أقدام غربًا. لم يتحدَّث سامسون كثيرًا ونحن ننتظر الحافلة، ولكن هذا ليس مستغربًا منه؛ فهو لم يكن يومًا كثيرَ الكلام.

وفي كل يوم عندما نصعد إلى الحافلة تقول أشلي بينج: «إنها ميسي-بيسي وسُحُبها المنذرة بالعواصف.» وكل يوم تُكرِّر إيما فلينت وراءها: «ميسي-بيسي!» وهي تَضحك ضحكةً مُزدرية، وكأنها تَسمع دعابةً مُضحِكة وجديدة في كل مرة. وعلِم الأطفال في مدرستنا منذ اليوم الأول أن اسمي الحقيقي هو مسيسيبي، وهذا مِن سوء الحظ؛ لأنَّ أفراد عائلة بومونت يَحصلون على ما يكفيهم من الهمسات والقهقهات الساخرة بطبيعة الحال. ودارت الشائعات حولنا بقوة وسمِعْتُها كلها:

«انظروا، إنهم الأطفال الغريبو الأطوار. قالت أمي إنَّ سبب انتقالهم الاضطراري إلى هنا هو وقوع أحدهم بورطة كبيرة.»

«سمِعتُ أن أخاهم الأكبر قد صعَقَه البرق، وصار خطِرًا، ونادرًا ما يُغادر المنزل.»

«لا بد أن تعيش هذه العائلة في سفينة نجاة. إذ تهُبُّ العواصف عند بيتهم بصفة مُستمرة، وفي يومٍ ما سيَنجرفون للأبد.»

أُدرك أنني بعدما أطفئ شموع عيد ميلادي الثالث عشر الذائبة، فهذا يَعني إلقاءَ تحية الوداع على مدرسة هيبرون الإعدادية، ومعها أشلي بينج وإيما فلينت ومَن شابَهما. وسيَصير سامسون الكئيب المسكين خيالًا وحيدًا في المَقعد الخَلفي للحافلة البرتقالية الكبيرة، وأنا سأَزرع الطحالب في أوعية المُخلل بالمنزل مع فيش وروكيت.

لم يكن مِن السَّهل على أطفال عائلة بومونت اتِّخاذ أصدقاءَ لهم والمحافَظة على هذه الصداقة. فلم يكن آمنًا دعوةُ أحد إلى المنزل، وفيش وروكيت لا يَزالان يتعلمان كيفيةَ تخفيف وقْع هِبتِهما الخارقة؛ كما لا يمكننا المخاطرةُ بأن يكشفَ أحدٌ سرَّنا أو يتعرض للأذى بالشرارات أو العواصف إن فقد شقيقاي السيطرة. وقد تستغرق الهِبَة الخارقة سنوات لترويضها، مثل أشياء كثيرة أخرى، بالإضافة إلى أن تقلُّبات النُّضج لا تزيد إلا من صعوبة التحدي حسبما قال أبي وأمي.

مرَّ يومي الأخير بمدرسة هيبرون الإعدادية ببطء شديد استثنائي. وكان من الصَّعب جدًّا التركيز على المعادلة $x + y = z$ وعقلي مُنشغل تمامًا بالتفكير في مشفى «هوب» في سالَينا.

ولم يكن سهلًا تهجِّي كلمات «إنصات» و«إنصاف» و«إقصاء» بينما أفكِّر في أبي وهو ينتظر قدومَ أمي وتقبيلها له قُبلة تُوقظُه من نومه كما في الحواديت الخيالية، ولا يُمكنني تخيُّل عدد المواقف الحياتية التي سيَصير فيها تهجِّي «إ-ق-ص-ا-ء» أمرًا في غاية الأهمية. لكن الأصعب على الإطلاق كان الاستماع إلى أشلي بينج وإيما فلينت وهما تَتهامسان وتُحدِّقان فيَّ عندما قالت المُدرِّسة: «أريد أن يشاركني الجميع في تقديم تحية الوداع الخالصة لميبس بومونت. فاليوم هو يومها الأخير معنا هُنا بمدرسة هيبرون الإعدادية. وستَخضع ميبس للتعليم المنزلي بدءًا من الأسبوع القادم.»

التفتَ الجميع في مقاعدهم يَنظرون إليَّ. ولم يَبتسِم لي أحد أو يتمنَّى أمنية حارة من أي نوع. واكتفى أغلب الأطفال بهزِّ أكتافِهم ثم عادُوا يَنظرون إلى الأمام مرةً أخرى.

قالت أشلي كأنها تتحدَّث إلى طفلٍ رضيع، واستخدمت نَبرةً خافتة حتى لا تَسمعها المدرِّسة: «ستمكث ميسي-بيسي في المنزل مع أمها.»

وكرَّرت إيما وراءها: «مع أمها.»

قالت أشلي بسخرية: «ستَمكث بالمنزل حتى لا يرى أحدٌ كم هي غريبة الأطوار ووحيدة.»

قلَّدتها إيما مثل ببغاء بغيض: «كم هي غريبة الأطوار.»

كان من مَصلحة أشلي وإيما أن أمي تُبقينا بالمنزل فورَ أن نحظى بهِبتِنا الخارقة. كنتُ آمُل على أي حال أن تَمنحني هِبَتي الخارقة القدرةَ على تحويل الفتيات البغيضات إلى ضَفادع خضراء لزجة أو على لصق شفاههنَّ بإحكام بإيماءة مِن رأسي.

عُدتُ وسامسون إلى البيت في فترةٍ ما بعد الظهيرة، ووجدنا شاحنةً ذهبية صغيرة لامعة واقفة أمام منزلنا، يتولَّى فيش تنظيفَها بخرطوم الحديقة بغضب. وما إن رأيتُ مُعطِّر الجو المتدلي من نافذة الشاحنة الأمامية على شكل ملاكٍ مُبتسِم، تعرَّفت على الشاحنة على الفور. إنها شاحنة زوجة الواعظ، السيدة روزماري.

كانت أمي تجبر العائلةَ كلها على الذهاب إلى كنيسة هيبرون يوم الأحد من كل أسبوع رغم المخاوف من الكوارث التي قد تُحدِثها هِباتُنا الخارقة؛ لذا كنا نَعرف السيدة روزماري جيدًا. كانت رائحتها شبيهةً بمُعقِّم الليزول وحلوى البترسكوتش، لديها منظومتان منسجمتان للصواب والخطأ — كالحقائب التي تُجبِر الآخرين على حملِها — وقد أخذَت على عاتقها أن تَظهر جميعُ الأشياء والأشخاص بمَظهر لائق مثالي كما أراد الربُّ في اعتقادِها. وبطريقةٍ ما، وصلت إلى زوجة الواعظ أنباءُ حادثة أبي وبقاء بقيتِنا في المنزل بمُفردنا بلا أم. لذا تراءى لها القدوم لتضعَ الأمور في نِصابها.

تحرَّك الماء من الخرطوم في يد فيش، ودار حول الشاحنة مثل إعصارٍ وشيك أثارَه مزاجه المُتعكِّر. وانثنَت وتأرجَحَت الأشجار المُجاوِرة للمنزل التي استَحال لونُها إلى الأصفر الضارب للخُضرة الزاهية بحُلول الربيع المُورِق. خفَض فيش خُرطومه عندما رأى قُدومنا بوجهٍ مُكفهرٍّ غاضِب.

وقال: «يُستحسَن أن تتسلَّلا إلى المنزل من الخلف وإلا ستَندمان.» وأشار برأسه إلى المنزل. وقفنا جميعًا ونظرنا إلى منزلنا الجميل بحزن، كأننا اكتشفنا للتوِّ اقتحامَ دبٍّ أمريكي ضخم لمنزلنا أثناء غيابنا، وأنه باشرَ إفراغ الأثاث من الحشو وتمزيقَ كل الصور الجدارية والْتهام جميع حلوى المارشميلو الصغيرة الخاصَّة بالمناسَبات من أعلى الرف فوق الثلاجة. ابتسم فيش ابتسامتَه الجانبية، كانفراج الطقس السيئ، ورشَّ بالخرطوم تجاهي مازحًا. وقال: «هذا يومُكِ الأخير بالمدرسة، أليس كذلك يا ميبس؟»

قلتُ وأنا أتفادى مياهَ الخرطوم: «اليوم الأخير.» تركنا فيش لينتهي مِن مُهمَّته، وتسللتْ وسامسون بهدوء إلى المنزل عبْر الباب الخلفي، آملين أن نصعد الدَّرج قبل أن تنتبه السيدة روزماري لوصولنا.

قالت السيدة روزماري لحظةَ دخولنا إلى المطبخ: «بدا جَدُّكما متعبًا، فجعلته يستلقي في غرفته، لينال قسطًا من الراحة.» كانت تجلس عاليًا، تُمسك بزجاجةِ رشٍّ بإحدى يدَيها المُغطاة بقفاز مطاطي، وخِرقة بيدها الأخرى، وكلتاهما في وضعيةِ الاستعداد. وكانت تَتناول الأوعيةَ من فوق الخزانات، فتُزيل الغبارَ عنها باختلاجة في أنفها وتتفرَّس ملصقاتها الباهتة. راقبتها وأنا أحبسُ أنفاسي آملةً أنها لم تفتح أيًّا منها. فليس مسموحًا لأحدٍ خارجَ العائلة أن يلمُس هذه الأوعية على الإطلاق. تابعت السيدة روزماري: «وجيبسي أيضًا نائمة؛ لذا أتوقَّع منكما أن تَبقيا هادئين وألا تُوقظاها.»

قلتُ وسامسون الذي اكتفى بتحريكِ شفتَيه فحسب: «بالطبع يا سيدة روزماري.»

قالت السيدة روزماري وهي تُزيل غبارَ الوعاء الأخير بحركةٍ مسرحية: «كان من المفروض أن تتَّصل بي أمُّكما فورَ أن عرَفَتْ بما حدث لأبيكما المسكين.» شعرتْ بالرضا من عملها، فألصقتْ كلًّا من زجاجة الرش والخرقة بصَدرها وأغلقتْ عينيها، كأنها تدعو الرب ليمنحها القوةَ التي تُعينها على تنظيف العالم الواسع بأَسرِه. وعندما فتحتْ عينَيها من جديد، نظرت إلينا بصرامة وجدِّية.

وتنهَّدتْ قائلة: «كان يَنبغي أن أحضرَ إلى هنا في وقتٍ أبكرَ. فالأطفال يَحتاجون إلى وجود أمٍّ في المنزل.»

الفصل الثالث

كنتُ أعلم أنَّ السيدة روزماري ليست بديلًا مُناسبًا لأمي المثالية. شعرتُ بذلك أسفل مِعدتي، وعلمتُه مِن أطراف أصابع قدمي. وغَشَّاني شُعور بالغثيان والسيدة روزماري تُشير بزجاجة الرش لحثِّنا على الذهاب إلى الصالة في الطرَف المقابل للدَّرج وقالت: «أحضرتُ روبرتا وويل الابن معي لمرافقتكما في فترةِ ما بعد الظهيرة. لمَ لا تَبحثان عنهما؟ بوسعكما مشاهدة التلفاز. لكن بهدوء.»

تمتمت: «أجلْ سيدتي»، رغم أننا لم نكن نملِك تلفازًا؛ إذ مع وجود روكيت في المنزل قرَّر أبي وأمي عدمَ شراء أي أجهزة كهربية غالية الثمن حتى يتأكَّدا تمامًا من قدرته على تجنُّب تدميرها بطريق الخطأ.

تلهفتُ وسامسون لمغادرة المطبخ، لا للبحث عن صغار السيدة روزماري روبرتا وويل الابن. كان للقسِّ وزوجته أبناءٌ ثلاثة، أكبرهم في الثلاثين من عمره، ويعمل شرطيًّا في مدينة توبيكا. ولم يتحدَّث أحدٌ كثيرًا عنه.

كانت روبرتا — التي يُناديها الجميع بـ «بوبي» باستثناء أمِّها — في السادسة عشرة، وربما لم تأتِ في ذاك الوقت من الظهيرة إلا لأنَّها تأمُل في رؤية روكيت بالمنزل. وكان روكيت، في رأيي، ذاك النوعَ مِن فِتيان السابعة عشرة الذي تُحبُّ فتياتُ السادسة عشرة التصرُّف بسخافة وغباء أمامه حتى ولو بدا دائمًا كأنه أدخل إصبعَه في مَقبِس إنارة.

كانت بوبي تقول بينما نَدخل الغرفة: «هذا مُمل. لا أُصدِّق أننا اضطُررنا إلى القدوم إلى هُنا.» لم يأتِ ويل الابن وبوبي إلى منزلنا من قبل، وكانا مُنشغلَين بالتنقيب والتلصُّص والتطفُّل. انشغلت بوبي بتصفُّح كومة من رسومات أمي المُكتمِلة جزئيًّا، وانهمك ويل الابن

في نكزِ سلحفاةِ سامسون الأليفة بأحد مُكعَّبات جيبسي الخشبية، حيث قبَعت داخل حوض زجاجي مُنكمِشة في قوقعتها بلا حَراك.

قال ويل: «اصمتي يا بوبي. فوالدهم يقبَع في المشفى. أظهري بعضَ الشفقة.»

قلتُ دون عواطف، مفاجئًا ويل وبوبي، اللذين لم ينتبِها لدخولنا إلى الغرفة: «لا نحتاج إلى شفقتكما. نحن على ما يُرام.»

التفتت بوبي لتنظرَ إليَّ أنا وسامسون كأننا دخلنا الغرفةَ دون إذن. ثم تنهَّدت تنهيدةً طويلة بدا أنها تدرَّبت عليها كثيرًا كمُراهِقة، وأدارت عينَيها في مَحْجِرَيهما، ونفَخَت فقاعة وردية كبيرة بعلكتِها، وألقت نفسَها على الأريكة بهمهَمةٍ ضَجِرة.

انحنَت إلى الوراء، وهي تُغلِق عينَيها وتَضع إحدى يدَيها على جَبهتها بشكلٍ درامي، وقالت مُتذمِّرة: «ألا يُوجد ما نفعله في هذا المنزل؟» لاحظتُ أن بوبي تستخدم ظلًّا لامعًا للعيون وأنها قد ثقبتْ حاجبَها الأيمن. برَقَ قرطٌ ذهبيٌّ صغير بريقًا لا يكاد يُرى من تحت شَعر ناصيتِها الطويل، وتعجَّبتُ كيف سمحتِ السيدة روزماري لها بأن تَفعل ذلك.

قال ويل، وهو يَرمُق بوبي بنَظرةِ غضبٍ، تحوَّلت إلى نظرةٍ حانية عندما نظر إليَّ وسامسون: «تجاهَلاها فحسب.» كان ويل مثلَ فيش، في الرابعة عشرة، إلا أنه كان يفوقه طولًا، وعلى النقيض من أخي، كان يُحافظ على شَعره البني المجعَّد مُهندمًا. شَعرت بالفضول تجاه ويل دائمًا. سمِعته ذات مرَّة يقول إنه يُريد أن يَصيرَ مثلَ والده عندما يَكبُر. وبينما تجاهل الآخرون عائلة بومونت في الكنيسة، بدا ويل كأنه يَقتفي أثرنا أو يُراقبنا في الوقت الذي كان يفترض فيه أن يتلوَ صلواته. بل إنه ذات مرة أعطاني كوبَ العصير الخاص به عندما احتشد الحاضرُون حول طاولة المَشروبات حتى إنني لم أَستطِع شقَّ طريقي بينهم. ولكن على الرغم من أن ويل الابن وفيش كانا في العمر نفسِه، ولم يكن لدى فيش أيُّ أصدقاء، فإنَّ أخي لم يحبَّ ويل قط، ظنًّا منه أنه ليس أكثرَ من فتًى يُنصِّب نفسَه واعظًا على الآخرين. أما أنا، فرأيته فتًى لطيفًا، وإن كان مُتزمِّتًا بعضَ الشيء في مظهره.

عاد ويل يَنظر إلى الحوض الزجاجي. وسأل: «هل السلحفاة حية أم ...؟» لكنه ألجمَ نفسه قبل أن يقول «ميتة»، وأطرقَ مُعتذِرًا.

أفلت سامسون يدي، وانساب كالظل عبْر الغرفة كي يُخرِج سلحفاته من الحوض ويُبعِدها عن معاينة ويل الفضولية. ثم تسلَّل من الغرفة بحيوانه الأليف الفاقد الحياة،

بعد أن نظر إلى الفتى الكبير نظرةً طويلة ثابتة، كي يَختبئَ بمكانٍ ما، مثل عُثَّة رمادية مُغبرة. كنت أعلم أنه سيظهر لاحقًا خلف باب أو تحت سريره أو أسفل كومة غسيل.

وضع ويل المكعب الخشبي ومسح يدَيه في سرواله، والتفت لينظرَ إليَّ، مُحاكيًا بنجاحٍ الاهتمامَ البالغ الذي يُوليه الواعِظُون لرعيتِهم.

وقال بجِدِّية لا تَحتمِل الهَزْل: «أتمنَّى للسيد بومونت شفاءً عاجلًا. جميعنا ندعو لوالدك.»

هززتُ كتفي في توتُّر وأجبتُ: «حسنًا.» لم أكن أُعارض الدعاء؛ فقد دعوت الربَّ في كل ليلة حتى تظهر هِبَتي الخارقةُ وتكون الأفضل على الإطلاق. ودعوته كي يَمنحني القوة التي تُمكنني من الطيران أو إطلاق الليزر من عيني. كما دعوته من أجل جَدِّي بومبا وجيبسي عندما أُصيبت الأخيرة بالخُناق. كلُّ ما في الأمر هو أنني لم يَخطُر ببالي الدعاء لأبي، وشعرت بالأنانية مرةً أخرى، وغشَّاني شعورٌ بالخِزي والسوء، وشعرت أنني أستحق «سقوط» منزل فوقي، فلا يُرى مني شيء سوى قدمي؛ لهذه الدرجة شعرت بالسوء.

عَبَر ويل الابن الغرفةَ، ووضع إحدى يدَيه على كتفي، بطريقة غريبة لائقة بالبالغين، وانحنى للأمام مائلًا برأسه كما لو كان يبحث عن الدموع في عيني.

وقال كما لو أن ذلك سيُصلح كلَّ شيء: «لقد جلبَت أمي لكم رغيف لحم.» تراجعت للخلف غير مُتأكِّدة من رغبتي بالوقوف بالقرب من ويل إلى هذه الدرجة حتى وإن كان يتصرَّف بلُطفٍ فحسب. كنتُ أعلم أن رغيف اللحم شيءٌ رائعٌ، خاصَّة مع صلصة الطماطم وشرائح البصل الرقيقة، إلا أنه لن يكون كذلك الليلة، بالنسبة إلى عائلة بومونت.

الفصل الرابع

قالت السيدة روزماري بنظرةٍ جانبية خاطفة، نقلَتْها من جيبسي إليَّ، بينما انهمكتْ في تقطيع شريحة من رغيف اللحم ووضعِها في صحن جَدِّي بومبا: «لقد أخبرَتْني العُصفورة أن الغد هو عيد ميلاد شخصٍ ما.» ابتسمَت زوجة الواعظ وهي تَنظر إلى رغيف اللحم بشرائح البصل السميكة الضخمة التعيسة والطبقة الرقيقة الجافة من صلصة الطماطم. راقبتُ السكِّين وهو يقطع شريحةً أخرى من رغيف اللحم وتظاهرت أنني لم أسمع شيئًا مما قالته.

كان الجلوس إلى المائدة كالجلوس في حلَّة بخار، والفضل في ذلك لفيش؛ إذ صار جوُّ الغرفة ساخنًا ومشحونًا. وحدَها جيبسي مَن تفاعلَت مع السيدة روزماري؛ لأنَّها كانت في الثالثة من عمرها ولا تعرِف بعْدُ ما يَعرفه باقي عائلة بومونت عن الأسرار؛ كالاحتياج إليها أو امتلاكها أو المحافظة عليها. صفَّقت جيبسي بيديها الصغيرتين ولمعت عيناها واتَّقدت حماسةً ترقُّبًا للبالونات وعجينة السكر.

تابعَتِ السيدة روزماري، غيرَ مُنتبهة على ما يبدو للجوِّ المشحون والتوتُّر: «ظننت أن حفلة عيد ميلاد قد تساعد في إضفاء القليل من البهجة على الجميع.» وتطلَّعت إلى الوجوه المُحيطة بالمائدة واحدًا تلو الآخر. حدَّق فيش إلى المِمْلَحة والمِبْهَرة الموضوعتَين أمامه، والمصنوعتين من الكريستال الفاخر، اللتَين لم تَستخدمهما أمي قط، بل احتفظَت بهما عاليًا في خزانة الصحون الممنوع لمسُها وإلا فالويل لك. وفهمت أنه يُحاول كبْحَ جِماح هِبَته الخارقة. لكنه كان يشعر بالإجهاد، وبدأ يتصبَّب عَرقًا وبدا مُتألِّمًا شاحبًا بائسًا.

سألت بوبي وهي تَحشر شوكةً مليئة من رغيف اللحم في فمها وتُقلِّب عينَيها في مَحْجِرَيهما كأنها ممسوسة أو تُعاني نوبةً ما: «ليس هناك داعٍ لحضوري، أليس كذلك

يا أمي؟» تمنَّى جزءٌ مني أن تَثبُت عيناها على تلك الحال، مثلما يقولون إنه يُمكن أن يحدُث.

ردَّت السيدة روزماري: «أجل، يا روبرتا، سنحضُر جميعًا.»

قلَّدت بوبي بفمهما المليء برغيف اللحم صوتَ أمِّها على نحو مثالي مُخيف: «أجل، يا روبرتا، سنَحضُر جميعًا.»

أطلقت السيدة روزماري نظرةً نارية إلى بوبي، انطفأت في ابتسامة اعتذارية، عندما حوَّلتها إليَّ وقالت: «هذا يكفي يا روبرتا!» وارتختْ روبرتا في مقعدها.

واصلت زوجة الواعظ كلامها كما لو أنَّ بوبي لم تُقاطعها: «سنُقيم الحفل في الكنيسة بالطبع. لا نمتلك الكثير من الوقت، لكنَّنا نستطيع دعوةَ جميع أصدقائك في الكنيسة، يا ميبس، وغيرهم من أصدقائك في المدرسة ممَّن ترغبين في دعوتهم.»

أجبتُ على أملِ أن تُنهي هذه الحقيقةُ المحادثة: «ليس لديَّ أيُّ أصدقاء يا سيدة روزماري.»

قال ويل الابن بجدِّية: «أنا صديقكِ يا ميبس.» نظرتُ إليه عبْر المائدة وإلى قميصه المُزرَّر إلى آخره. ابتسم لي ويل ابتسامةً عريضة جعلتْه يَبدُو مُختلفًا بطريقةٍ ما؛ أكثر استرخاءً. ولأنَّني في ذلك الوقت لم أكن واثقةً تمام الثِّقة من مشاعري تجاه ويل الابن، لم أَبتسِم له. لكنَّني لم أعبس في وجهه أيضًا.

أردفَتِ السيدة روزماري كما لو أنَّ ويل لم يَقُل شيئًا: «هذا هراء. وسأُريك. سأقوم باتصالاتي هذا المساء وسأُدبِّر حفلًا فاخرًا للغد. لا تَقلقي، يا ميبس، فلديَّ صِلاتي.» وأشارت السيدة روزماري بإصبعها إلى السقف وظننتُ أنها تُشير إلى السماء في الحقيقة. على ما يبدو ستُقنع الربَّ كي يُساعدها في تخطيط الحفل. وتصوَّرت أن الربَّ لديه أشياءُ أهم تَستدعي عنايتَه مثل حماية الآخرين من الموت جوعًا، أو مِن قَتل بعضهم بعضًا، أو مُساعدة أبي؛ لذا رجوت ألا يكترثَ لهذا الأمر.

ولاحظتُ أنه لم يكن شعوري وحدي، فقد شعرتُ بازدياد توتُّر فيش وجَدِّي أكثرَ فأكثر بالحديث عن الحفلات. فأعياد ميلاد الثالثة عشرة في عائلة بومونت ليسَت أحداثًا عامة قطعًا.

كنتُ في الثامنة فحسب عندما بلغ روكيت الثالثة عشرة، ولا أزال أتذكَّر عيد ميلاده بوضوح وانتعاش كجو البحر المنعش. ففي ذلك اليوم، منذ سنوات مضت، في بيتنا في الجنوب،

وجَدَّتي دَالاب لا تزال على قيد الحياة وجيبسي لم تأتِ إلى عالَمنا بعدُ، قضيتُ وروكيت وفيش فترةَ ما بعد الظهيرة كلِّها في الفناء الخلفي نساعد جَدتنا في التعليب بينما كانت أمي تجهِّز المنزل لعشاء عيد ميلاد روكيت.

كانت الطاولة مُغطَّاة بأوعية جَدَّتي الزجاجية الصافية، وكان لكل وعاء مُلصَق أبيض وغطاء معدني. وكلَّفتنا نحن الأطفالَ بمهمَّةِ وضعِ المُلصَقات على الأوعية بينما كانت تملؤها. لكن جَدَّتي لم تكن تُعلِّب الخوخ أو الطماطم أو المخلل، بل موجات الراديو. وانتقت جَدَّتي أفضلَها مثل الخطابات أو القصص أو الأغاني المفضَّلة التي أذاعتها المحطات المحلية، ولكن مع ذلك، كان قبو منزلنا مُكتظًّا برفوفٍ عالية من الأَوعية المُغبرَّة المليئة ببرامج الراديو المُذاعة على مدار سنوات كثيرة جدًّا. وحِرتُ في كيفية وضعِ جَدَّتي مَوجات الراديو في تلك الأوعية والحفاظ على بَقائها هناك؛ كانت تمدُّ يدَها وتَلتقطها من الهواء كما لو أنها تَصطاد الحشرات المُضيئة. ثم تدسُّ هذه الموجات غير المرئية في الأوعية، وتُخبرنا بما سنُدوِّنه على المُلصَقات. وبعد ذلك ما عليك إلا فتحُ غطاء أي وعاء من مجموعتها لتَستمِع إلى ما بداخله. لكن يجب ألا تَنزع الأغطيةَ تمامًا وإلا تسرَّبت الأصواتُ والأغاني وضاعت إلى الأبد، إلا إذا كانت جَدَّتي حاضرةً وأمسكتْ بها في الوقت المناسب.

كان روكيت أكثرَ انزعاجًا من الدُّب في موسم الشتاء وهو يجلس في الفِناء الخلفي ويراقب جَدَّتي وهي تمسك بموجات الراديو. وقد غرُبت شمس عيد ميلاده الثالث عشر تقريبًا دون أن يَحدث شيء؛ وخشيَ أخي ألا يَحدُث شيء على الإطلاق. ولأن روكيت هو الطفل الأول لأبي وأمي، وأبي منحدر من عائلة عادية، كالتي نراها كلَّ يوم، لا تَمتلِك أيَّ مواهب خاصة باستثناء سقوط الشَّعر كاملًا قبل سنِّ الثلاثين، خشيَ أن يُشبه أبي وينتهيَ به الأمر بلا هِبَة خارقة ولا شعر على رأسه أيضًا.

حلَّ المساء وزحفت الشمس ناحيةَ الغرب. بدأنا نَنقل كلَّ الأوعية إلى داخل المنزل عندما توقَّف روكيت في مكانه جامدًا بلا حَراك فجأةً، بذراعَيه المُمتلئتَين ببرامج الراديو المعلَّبة في ذلك اليوم. بدت بشَرته شاحبةً في ضوء الشفق وانحنى على ذراعَيه المليئتين بالأوعية الزجاجية مُترنِّحًا كأن شخصًا قذفه بها.

توقَّفتْ جَدَّتي دالاب أيضًا وأمالت رأسها جانبًا كما لو أنها تُصِيخ السمع. شعرتُ بالقشعريرة فوقف شعرُ رأسي كأنَّ تيارًا كهربائيًّا سرى في الهواء ولسَعني.

قالت جَدَّتي بينما تُواصِل الإنصات: «هذا غريب. لا بد أن هناك خطْبًا ما بمَحطَّة الراديو. أنا لا أسمع شيئًا سوى الكهرباء الساكنة.»

سألت أخي بحذرٍ وأنا أشعر بالقلق من شحوب وجهِه وتوتُّر عضلاته كلها وانقباضها: «هل أنت بخير يا روكيت؟»

قال روكيت: «أظن أنني سأتقيَّأ.» ثم جَثا على ركبتَيه، بانفجار باهر من الشرارات الزرقاء البرَّاقة، مثلما يَحدُث في عيد استقلال أمريكا باستثناء أن الشرارات الساطعة لم تكن حمراء وبيضاء. وفورَ أن ارتطمتِ الأوعية التي كان يحملها على الأرض وتهشَّمت، تسرَّبت منها تسعة برامج إذاعية مختلفة في آنٍ واحد، وتصاعدت هذه الجَوقة من الأصوات والأنغام في جو الليل. وفي اللحظة نفسِها انطفأت كلُّ المصابيح داخل وخارج المنزل. وخفتَت مصابيح إنارة الشوارع ثم انفجرت وتطايرت شظاياها الزجاجية الدقيقة وأظلمَت منازلُ الجيران حتى نهاية المربَّع السكني. وامتدَّ انقطاعُ التيار الكهربائي مِن منزلنا حتى بلغ البلدة المُجاوِرة.

حصل روكيت على هِبَته الخارقة وكان الأمر مريعًا.

بينما كنتُ آوي إلى سريري في الليلة السابقة لعيد ميلادي الأهم على الإطلاق، وبعد أمسية رغيف لحم السيدة روزماري وتدخُّلها، لم أبتهِل إلى الرب للحصول على هِبَة خارقة قوية مثل هِبَة روكيت. ولم أدْعُه لأنالَ القُدرة على الرؤية بالأشعة السينية أو الركض بسرعة فائقة أو التنفس تحت الماء. ولم أدْعُ لجَدِّي أو لجيبسي. كما لم أدْعُ لأبي كي يُفيقَ.

في تلك الليلة، دعوتُ الله ألا يأتيَ أحدٌ على الإطلاق لحَفلِ عيد ميلادي.

الفصل الخامس

استيقظتُ مُبكرًا يوم السبت الموافق لعيد ميلادي الثالث عشر، واستلقَيت في سريري بلا حَراك صامتة لفَترة طويلة للغاية، لا أفعل شيئًا سوى الانتظار. لم يتغيَّر شيءٌ تغيُّرًا جذريًّا بعدُ. فلم أستطِع الرؤيةَ عبْر السقف أو تشغيل مصباح غُرفتي بطرْفة عين أو بغمزة. كما لم أستطِع التحليق فوق مَرتبة السرير أو جعل وساداتي تختفي.

تنهَّدت وطرقت بأصابعي التصميم الموجود على الملاءة بضع طرقات. ولم يحدث شيء. ليس بعْدُ على الأقل.

قرَّرت أنه لا ضَيْر من النهوض. قد تصل هِبَتي الخارقة إلى الكنيسة مع حفل عيد ميلادي في توقيتٍ سيئ وما شابَه. نهضتُ مِن السرير، وأنا أنظر إلى جيبسي؛ حيث كانت مُستلقية وسط دُمى الحيوانات المحشوَّة والوسائد. كانت جيبسي تُحيط نفسها بالزَّغَب والوَبَر دائمًا. وأحبَّت أن يكون عالَمها الطفولي طريًّا وناعمًا، بلا حروف قاسية أو خيوط خشنة. وما إن تغِطَّ في النوم، يُصبِح مِن الصعب إيقاظُها كحيوان الكسلان الراقد.

لم تُصدِر ألواحُ أرضية الغرفة صريرًا أو يُصدِر زنبركُ السرير صوتًا، لكن فورَ أن لمستْ قدماي العاريتان الأرض ووقفتُ لحلِّ رداء النوم، جلست أختي وفركَت عينيها، مُحملقةً إليَّ من فوق سريرها الصغير.

قلتُ: «عودي إلى النوم يا جيبسي.»

كرَّرت جيبسي كلمتَها المفضَّلة وهي وتَفرُك عينيها بعناد: «لا-لا-لا.»

قلتُ: «لا يزال الوقت مُبكرًا جدًّا على الاستيقاظ. أغلقي عينيك وارجعي إلى النوم مرة أخرى.» وقطعتُ الغرفة لدسِّ جيبسي تحت أغطية سريرها من جديد، ثم غادرتُ غرفتنا بسرعة قبل أن يمكنها التذمُّر.

تسرَّب ضوءٌ وردي عبْر ستائر المنزل غامرًا الطرقةَ بين غرف النوم بحُمرة الصباح الخفيفة. حرصت ألا أحدِثَ جلبة كبيرة، وأنا أتسلَّل أمام غرف النوم الأخرى وأنسلُّ إلى الطابق السُّفلي، لا أرغب في إيقاظ أحد، وأرغب في مزيد من الوقت لنفسي لرؤيةِ ما يُمكنني رؤيته والشعور بما يمكنني الشعور به.

وفي المطبخ، أعددتُ لنفسي صَحنًا من حبوب الإفطار، وحملتُه معي إلى الغُرفة المُجاورة، كي أتناوَله وأنا أجلس مُتربِّعة على الأريكة. وفورَ أن جلستُ وثبَّتُّ صَحن الحبوب على ركبتي بصورة ملائمة، سمعتُ طَرقة مكتومة. طق، طق، طق. تجمَّدتُ في مكاني تمامًا، وحدَّقت عبْر الغرفة المعتمة، وتحوَّل ضوء الصباح من اللون الوردي إلى البرتقالي، وألقى ببريقِه الفاتح على أكوام رسومات أمي، وانعكس على الحوض الزجاجي لسُلحفاة سامسون الأليفة الميتة.

طق.

طق.

وضعت صَحني على الأرض، ناثرةً الحليب، ففاض على جانب الصحن، واقتفيت صوت الطرق المكتوم حتى وجدت أنفي مُلتصقًا بالحوض تقريبًا. كانت في الحوض سلحفاة سامسون حيةً غير ميتة، تبذُل مُحاولات كبيرة مضنية لتسلُّق جدار الحوض، ولكن دون جدوى.

وفكَّرت، لا بدَّ أن السلحفاة كانت في سُبات في نهاية المطاف. كنت أعلم أن سامسون سيكون سعيدًا؛ بقدْرِ ما تسمح له نفسه النَّكِدة المتقلبة المزاج. لكن لماذا اختارت السلحفاة تلك اللحظة المحدَّدة بعينها لتستيقظ من النوم، مع بشائر الصباح الأولى لأهمِّ عيد ميلاد في حياتي، وأنا برداء نومي وأحاول ضبطَ صحن حبوب الإفطار المغطَّى بالحليب على ركبتي؟ وبينما أراقب السلحفاة، نقرتُ على زجاج الحوض. بدأت أشعر بارتجافٍ ينخُر في أعماق عظامي، وأنا أفكِّر بشأن السلحفاة وأتذكَّر كيف استيقظت جيبسي بطريقةٍ غريبة فورَ أن خرجت من السرير، وصاحبني هذا الشعور بقيةَ الصباح وراح يتزايد مثل الدخان المتصاعد من حرائق الحقول.

وفي الساعة الثانية ظهرًا، تكدَّسنا في شاحنة السيدة روزماري، متَّجهين إلى الكنيسة في هيبرون. وساعدتُ وفيش جَدِّيَ في الصعودِ إلى المقعد الأمامي وربْطِ حزامِ الأمان والتأكُّد من غلق راديو الشاحنة. فمنذ وفاة جَدَّتي دَالاب كان جَدِّي يشعر بالحزن كلما استمَع إلى الراديو.

وبعد جلوسِ جَدِّي في مقعده، عاد فيش إلى الداخل ومكَثَ فترةً طويلة إلى أن عثر على سامسون وأبعده عن سُلحفاته الأليفة التي صارت حيةً نشيطة. وبينما كنتُ أكافح مع السيدة روزماري لتثبيت مقعد سيارة جيبسي المخصَّص للأطفال بالخلف، صعد الفتيان إلى الشاحنة. ارتديت فستان المناسبات الخاصة الجديد الذي انتقاه لي أبي بمُفرده من متجر كبير بسالَينا.

وقال في تلك الليلة وهو يُناولني صندوقًا أبيضَ كبيرًا مربوطًا بشريط دائري مَطاطي ذهبي اللون: «رأيت أن ابنتي الصغيرة تستحقُّ فستانًا جميلًا جديدًا لترتديَه في عيد ميلادها الخاص.» كان لون الفستان الموجود داخل الصندوق أصفرَ باهتًا، مُرتفع الخَصْر ذا رباط تزييني، وتنورة منفوشة مزوَّدة بجيوب عميقة. وقد زُيِّنت حاشيةُ الفستان وفتحتا كمَّيه القصيرَين بشريطين متعرِّجَين باللون الأبيض. لكن كان أفضل جزء في الفستان هو الزَّهرة الأرجوانية الكبيرة المصنوعة من الشرائط الحريرية الناعِمة والمُثبتة عاليًا على الكَتِف مثل الإكسسوار.

واعترف قائلًا: «لا أَعرفُ الكثيرَ من الفساتين. ولكني لم أكن لأَستسلِمَ مُتذرِّعًا بهذه الحُجة. لم أغادر المتجرَ حتى تأكَّدت من عثوري على الفستان المُناسب.» وتخيَّلت أبي، وهو يتجوَّل عبْر المتجَر، باحثًا عن فستاني المثالي، وعلت ابتسامةٌ شفتيَّ.

كان أبي رجلًا فريدًا من نوعه وإن لم يكن لدَيه هِبَةٌ خارقة أو لديه شَعر على رأسه؛ وكان صالحًا طيبَ المَعْشر، ولديه حاجبان كثيفان أسودان مَعقوفان كسيقان الخنافس الراقصة، ووشمٌ باهت، يعود إلى أيام التحاقِه بسلاح البحرية، على شكل حورية بحر طويلة الشَّعر مُلتفَّة حول مرساة على ساعده، فوق ساعة معصمِه الفضِّية الثقيلة مُباشرة. واعتاد أبي تغطيةَ الآنسة حورية بأكمام قميصِه البيضاء النظيفة عند ذهابه إلى العمل في ذلك المكتب المبني بالمِلاط والأسمنت في سالَينا في أيام العمل. لكنه عند عودته إلينا في الليل كان يَطوي كمَّيه وتكشف الآنسة حورية عن ابتسامتها. ولم نَكترِث لعدم امتلاك أبي هِبَةً خارقة، وكذا الأمر بالنِّسبة إليه؛ فلم يُبالِ أن بعضنا لديه هِبَات خارقة والبعض الآخر قد يُصبح لديهم.

وكانت ليلة إهدائي الفستانَ هي آخر ليلة عاد فيها إلينا مِن سالَينا وآخر تجمُّع لنا.

سأل أبي وهو يَفرُك ذقنه ببراجمه بينما يُراقبني وأنا أُخرج الفستانَ من الصندوق: «هل أعجبكِ إذن؟»

قلتُ وأنا أرقص بفُستاني عبْر غرفة المعيشة مرتَين قبل أن أُعانقَ أبي: «إنه رائع يا أبي! شكرًا لك!»

كنتُ أعلم أن أبي هو أفضل أبٍ في العالم، وأن فستاني هو فستان حفلات، بالنسبة إلى العالِمين بهذه الأمور، وإن لم تَسِر حفلتي الحقيقية وفقَ ما خطَّطت له. وانتبهت وأنا أركب الشاحنةَ إلى السيدة روزماري وهي تُحملق إلى الزهرة الأرجوانية الكبيرة المثبتة على كتفي. وظننت أنها تتمنَّى لو كان لها فستان مثل فستاني بدلًا من لباسها التقليدي القبيح.

ارتدينا جميعًا أحزمةَ الأمان في الشاحنة، وارتججنا واهتززنا في الطريق المليء بالحُفَر، مُتَّجهين إلى الطريق السريع، في رحلتنا إلى الكنيسة، من أجل حفلتي غير المرحَّب بها. تظاهَرت أنني لم أَلحظْ نظرات جَدِّي وفيش المُستمرة كما لو أنني نوع من الديناميت على وشْك الانفجار عند الرجَّة أو الهزة التالية للشاحنة. لكنَّني لم أشعر بأي شعور مُزعج استثنائي يأخذ بمجامعي مثلما حدث مع أخويَّ؛ وكنت أعلم أن هِبَتي الخارقة لن تكون صاخبة ومُزلزلة نوعًا ما، لكنها ستكون أفضل كثيرًا لمساعدة أبي.

وسألت أمي عندما اتَّصلت ذلك الصباح لتتمنى لي عيد ميلاد سعيد: «هل قبَّلتيه يا أمي؟»

فأجابت بهدوء: «أجل يا مييس. قبَّلتُ أباك.»

سألتها: «هل استيقظ؟»

تنهَّدت أمي تنهيدةً بطيئة طويلة كأنها تُغنِّي المقطعَ الأخير من تهويدةٍ ما، وكاد قلبي ينفطر من فرطِ حزنها. وقالت في نهاية المطاف: «لا يا عزيزتي، لم يستيقظ أبوك. لم يستيقظ بعدُ على الأقل. يقول الأطباء — حسنًا — يجب أن ننتظرَ ونرى ما سيحدث.» وفي تلك اللحظة أدركتُ ما يجب أن أفعلَه تحديدًا وإن لم أعرف كيفيةَ تحقيقه.

عندما وصلنا إلى الكنيسة، سرعان ما أدركت أن الربَّ أصغى جيدًا إلى دعاء السيدة روزماري على عكسِ ما فعل معي. كانت ساحة انتظار السيارات مُمتلئةً عن آخرها وانتشر الأطفال في كل مكان. لم تكن هذه حفلة صغيرة. وإنما بهرجةً مبالغًا فيها.

لو لم أعرف سامسون، لقلتُ إنه اختفى قبل أن تتوقَّف الشاحنة؛ إذ ابتعد عن الأنظار فور أن خرجنا. وسيظهر لاحقًا، بطبيعة الحال، بعد قضائه فترةَ ما بعد الظهيرة في أي مخبأ مليء بالغبار تحت الأرغن أو مع المماسح في خزانة التخزين. اكتفى جَدِّي بعضِّ شفتَيه وهزِّ رأسه، مُغمغمًا لنفسه، والسيدة روزماري تقوده وجيبسي إلى الكنيسة، مارِّين

بحافلة مدرسية مطلية بلون وردي كلون أسفل قدَمي جيبسي، وعليها إعلان شركة «هارت لاند» لتوريد الكتب المقدَّسة.

أمسكني فيش من ذراعي، فورَ أن استدارت السيدة روزماري، ووجهني بعيدًا عن الحافلة الوردية والكنيسة.

وقال مُصدِرًا هبَّة رياح ضربتني كالتوبيخ: «لا يُمكنك فعْلُ هذا الشيء هُنا يا ميبس. هذا ليس المكان المناسب لوجودك اليوم. أنتِ تعلمين أن الأمرَ خطير.»

طمأنته قائلة: «ستكون الأمور على ما يرام. أنا أعلم ماهية هِبَتي الخارقة، يا فيش، ولن تُؤذي أحدًا. في الحقيقة ...»

قاطعني فيش قبل أن أُخبره بالمزيد: «هل تعلمين بالفعل؟» وشدَّد قبضته على ذراعي. أصابتني رياحُ أخي المُفاجئة القَلِقة بالشك لوهلة. لكن لا، كنت واثقة من هذا الأمر تمامَ الثقة.

أجبت: «أجل يا فيش، أنا أعرِف هِبَتي. أسكِنْ عاصفتَك فحسب.»

نظر فيش إليَّ بترقُّب. كنتُ سأَشرح له أهمية ذهابي، دون غيري، لإيقاظ أبي. الأمر في غاية البساطة؛ فهِبَتي الخارقة تكمُن في إيقاظ الكائنات الحية مثلما حدث لسُلحفاة سامسون. أعلم أن هِبَتك الخارقة ليست شيئًا تستطيع الحصول عليه بمجرَّد رغبتك في وجوده، لكنني إذا تمكَّنت من بلوغ سالَينا، فسيُمكنني إثباتُ أن سُبل إيقاظ أبي موجودة بداخلي، وعلى استعداد للانطلاق مثل شرارات روكيت أو أمطار ورياح فيش. كنتُ على وشْك أن أُخبر أخي بكل هذا لولا أن ويل الابن عثر علينا آنذاك.

قال ويل مُبتسمًا: «عيد ميلاد سعيد يا ميبس. ألن تأتيَ إلى الحفل؟»

أجبتُه وأنا أُحرِّر ذراعي بالقوة من قبضة فيش المحكمة: «أنا قادمة.»

أطلق فيش سراحي، لكنه نظر إليَّ نظرةً ثاقبة، أكَّد فحواها بسُقوط القليل من المطر من السُّحُب فوق رءوسنا على نحوٍ عَشوائي مباغت. بادلت فيش النظرةَ الحادة نفسها. ثم ابتسمت لويل الابن ابتسامتي الخاصة، وتركته يَسحبني إلى الكنيسة، إلى خضمِّ الكارثة مباشرة؛ حفل عيد ميلادي الثالث عشر.

الفصل السادس

فور أن مررتُ من البابين المزدوجَين المفتوحين للكنيسة، التقَيت بأشلي بينج وإيما فلينت لسوء الحظ، وكان شَعرهما مُصفَّفًا ممشَّطًا وعليهما ثوبان جميلان من أجل الحفل. وكنتُ قد تمنَّيت ألا ألتقي بأيٍّ منهما أبدًا بعدما غادرت مدرسةَ هيبرون الإعدادية للمرة الأخيرة. لكن في ذلك اليوم لم يكن ثمَّة تشابُه بين ما رغبت فيه وما حصلت عليه.

نقلَت أشلي بصرها منِّي إلى فيش ثمَّ إلى ويل الابن وركَّزت على الأخير لفترة طويلة، لكنني صرتُ أشجعَ مما كنت عليه في المدرسة، ربما كان ذلك لأني بلغت الثالثة عشرة أو لأنني أقف بجوار فيش وويل، وشدَدتُ قامتي أمام تلك الفتاة المُتغطرِسة ورفيقتها التي تُوافقُها بشكلٍ أعمى.

وسألت: «لماذا أتيتما إلى هُنا في الأساس؟» لم أحب الطريقة التي حدَّقت بها أشلي إلى ويل مثلما لم أحب شعوري بالانزعاج من تحديقها إليه.

قالت دون أن تبعِد عينيها عن ويل: «لقد أجبرتني أمي على القدوم يا ميسي-بيسي.»

كرَّرت إيما: «أجل يا ميسي بيسي.»

شعرتُ بالخِزي والخجل وأنا واقفة هناك. لم أُصدِّق أن هاتين الفتاتين دعتاني بهذا الاسم المرعب أمام ويل الابن. ورغبت في أن أزحف تحت السجادة البُنية المبقَّعة وأمكث هناك. عبس فيش في وجه الفتاتَين وضربتنا هبَّةُ رياح قوية للغاية ومُباغتة أجبرت الفتاتَين على الإسراع عبْر الباب المفتوح لتفقُّد شَعرَيهما وإصلاحِ ما فسد من زينتِهما المُفرطة. ودون أن ينظر إليَّ، كان فيش لا يزال عابسًا بشدة، وأدركت أنه لم يقصد إطلاق العِنان لنفسه بتلك الطريقة أمام الجميع.

سأل ويل بابتسامة مشفقة دون أن يُركز انتباهه على فيش أو الرياح: «هل هما صديقتاك؟»

تمتمتُ وأنا لا أزال أشعر بالخزي: «بالطبع لا.»

أومأ ويل برأسه موافقًا. وقال: «أشعر أنكِ ستَكونين أفضل حالًا دون صديقاتٍ كهؤلاء.»

عقب ذلك، لم يَقل ويل الابن المَزيد بشأن أَشلي وإيما، من باب التلطُّف. واجتَزنا معًا تحت قيادته أبوابَ المكان المقدَّس وبابَ مَكتب أبيه المفتوح حيث تبدَّدت ابتسامته عندما توقَّفنا لحظةً نَختلِس النظر إلى الداخل. نظرت نظرة خاطفة إلى القسِّ ميكس، بقامته الفارهة وقميصِه المزرَّر، وهو يتحدَّث إلى رجلٍ ويَنقُر على كتاب مقدَّس ورديٍّ كبير بين يدَيه. لم يبدُ الواعظ في غاية سعادته. وتدلَّت ربطة عنقه الصفراء معوجَّة، وراح يَبصُق أثناء الحديث.

وبينما يدُسُّ إصبعه داخل ياقتِه المُنشاة، كما لو كان أعلى زرٍّ بها يُحكِم إغلاقَها حول عنقِه، أبعدنا ويل الابن عن الباب بسرعة باتجاه قاعة الحفل. وتدلَّت حول القاعة شرائط طويلة رفيعة من ورق الكريب البرتقالي والأحمر وكأنها بقايا زينةٍ مِن حفل آخر. كانت الغرفة فارغة، باستثناء كعكة شوكولاتة كبيرة بلا ورود من السُّكر أو شمعة واحدة ذائبة أو غير ذائبة، وكومة صغيرة من الهدايا التي اشتراها أصحابها في عجالة. واحتشد غالبية الحضور بالخارج، وربما لا يزالون غير واثقين مِمَّن قَدموا للاحتفال به تحديدًا.

أخرج ويل هديةً من الكومة الموجودة على الطاولة ونحن نمرُّ بجانبِها. وكرَّر وهو يُناولني عُلبة صغيرة مُغلَّفة بورقٍ زاهٍ: «عيد ميلاد سعيد يا ميبس. إنها مجموعة أقلام.» وأشار برأسه نحو الهدية وأضاف: «هذا إن كنتِ تتساءلين.»

قلتُ: «شكرًا»، وحرتُ هل أفتح الهديةَ الآن مع معرفتي ما بداخلها. لكن ويل لم يَمنحني الفرصة. وبدلًا من ذلك رافقنا عبْر الغرفة المفتوحة نحو المطبخ، حيث أُجبرَت بوبي وفتاتان من الكنيسة في نفس عمرها على إعداد عصير الفواكه وشطائر زبدة الفول السوداني المُقطَّعة إلى أرباع مع إزالة الحواف. كانت الفتيات يرتدين سراويلَ جينز أنيقة وقُمصانًا تَكشِف عن أَجسادهن وسُرَّتهن. وكنَّ يَضعن مساحيق تجميل على خُدودهنَّ وشفاهِهن ويَسلُكن سلوكًا خاصًّا وبدا أن كل ذلك يَنسكِب في عصير الفواكه.

نظرت بوبي إلى الزهرة الأرجوانية الكبيرة على كتفِ فستاني وأدارت عينَيها في مَحجِرَيهما. وقالت بنَبرة تُشبه السَّب: «عيد ميلاد سعيد.» وبدأت الفتاتان تتهامَسان

وتَضحكان وهما تَخلِطان جِعَة الزنجبيل وحلوى رين بو المُثلَّجة بعصير الأناناس أصفر اللون الباهِت الذي له نفس لون فستاني.

تجاوَزَتني نظرات فتاتَي الكنيسة وفيش وويل، وأخذت تبحث في المدخل، على أملِ أن يظهر شخص آخر.

وسألت الأُولى مُتنهِّدة: «ألم يأتِ روكيت؟» لم يكن روكيت موجودًا إلا أن وسامته الداكنة وشُهرته الغامضة أكسبتاه مُعجبتَين؛ صرخت الفتاة الأخرى مُقهقِهةً عند ذكرِ أخي، وتظاهَرَت الأولى بالغياب عن الوعي. قلَّبت بوبي عصيرَ الفواكه بشبحِ ابتسامة، حجبَتْها بسُرعة مرةً أخرى بعد نكزة مُمازحة من الفتاتَين. وفجأة، بينما أنظر إلى هاتَين الفتاتَين المُراهقتَين في ثيابهن المراهقة، شعرت أنني أصغر من فتاة في الثانية عشرة من عمرها على وشْك تمام الثالثة عشرة، وأن فستان المناسبات الخاصة ليس خاصًّا للغاية. وأدركت أنني نفسي صرت مراهقة للتو، وهناك تغييرات قادمة في حياتي ليسَت لها أي علاقة بهِبَتي الخارقة.

وبينما أنا واقفة في ذاك المطبخ، أعبَث بالزهرة المصنوعة من الشرائط على فستاني في توتر، سمعت صوتًا مُباغتًا غريبًا لم أفهمه جيدًا. لكنه استرعى انتباهي. وللحظة، نسيت فستاني وتجاهلتُ الفتيات الأخريات وأملتُ رأسي جانبًا كأنني كلبٌ يُصغي السمع إلى ذلك الصفير الذي لا يستطيع مالكه سماعَه أو كالجَدة دَالاب وهي تُرهف السمع للوصول إلى موجة الإذاعة الصحيحة لتضمها إلى مجموعتها.

وهمس صوتٌ غنائيٌّ مكتوم وراء أذني، وكان الصوت يُشبه ماءً لا يزال عالقًا هناك بعد السباحة لفترة طويلة. هززت رأسي وأدرت إصبعي في أذني. وتوقَّف الصوت لحظةً من الزمن. أدركت أنَّ فيش عاد يرمقني بعينيه. ويراقبني. كان ينتظر؛ ينتظر انفجار الديناميت. لكن هذا لن يحدث لأنني أعلم كيف ستَسير الأمور. أعلم أنني سأَذهب إلى سالَينا. وأدرك أنني سأوقظ أبي بنفس الطريقة التي أيقظت بها جيبسي وسُلحفاة سامسون.

ثم سمعت الصوتَ مرةً أخرى، وهذه المرة بدا كأنه ينبعث من خلف مُقلَتي عيني مثل صداع الرأس، لو أمكن أن يتحوَّل صداع الرأس إلى صوت. اختل توازني، فأسقطت مجموعةَ الأقلام هديةَ عيد الميلاد السعيد المغلَّفة، وارتطمت بويل الابن مباشرة، واصطدم الأخير بصينية الشطائر بعنف. سقطت الصينية على الأرضية في صخب وطوَّحت مثلثات الخبز وزبدة الفول السوداني في الهواء. سبَّت بوبي، مثل سائق شاحنة بثلاثة إطارات

فارغة، وانحنَت لتلتقط الصينية. كان هذا عندما رأيت الصورة على جِلدها. ولاحظت الحِبر الزاهي لوشم بوبي.

كانت لابنة الواعِظ رسمة صغيرة في منطقةِ أسفل الظهر لا تظهر إلا عندما تَنحني بسروالها الجينز العصري. وكان الوشم عبارةً عن مَلاك صغير، ذي هالة ذهبية وأجنحة مُنبسِطة، إلا أنه امتاز بابتسامة كبيرة ماكرة وذيل أحمر مُستدق الرأس يَتناسب معها. لم أفهم كيف حصلَت بوبي على هذا الوشم. كنتُ واثقة إن عَلمتْ بهذا الأمر السيدة روزماري، التي لها اتصالات مباشرة مع السماء ولديها القُدرة على الحصول على مساعدة الإله الجبار في تخطيط حفل عيد ميلادي، فلن تتمكَّن بوبي من بلوغ حَفلة عيد ميلادها القادمة أو الوصول إلى السماء لنَيل هالتها المقدسة.

حينئذٍ أدار الملاك الصغير رأسَه ولفَّ ذيله، وقال: «إنها تَشعُر بوحدة شديدة حقًّا، كما تَعلمين ...»

وحينها، غبتُ عن الوعي.

الفصل السابع

استيقظتُ على أصوات شجار. كان لا يزال رأسي مشوَّشًا ومُضطَرِبًا، وسمعت نقاشات حادَّة في كل اتجاه. ووجدت نفسي مُستلقية على الأريكة الزرقاء ذات القماش الاسكتلندي التصميم في غُرفة مكتب القس ميكس. وقف القس محكِمًا قبضتَه على الكتاب المقدَّس الوردي الكبير وصرخ في رجل كان شديد النحافة حتى إنه يَحتاج إلى ضِعف حجمِه كي يُلقي بظلِّه على الأرض.

قال القسُّ ميكس وهو يَضرب على الكتاب المُقدَّس الوردي الكبير بيدِه بقوة: «هذا … هذا! ليس هذا ما طلبته!»

تلعثَمَ الرجل النحيف وانتفضت كتِفاه: «لست سـ… سوى عامل توصيل يا سيدي.»

كان عامل التوصيل يَرتدي بدلةَ عملٍ وقميصًا بياقة مُزرَّرة وربطةَ عنق وردية متَّسخة. وكانت هناك قرنفلةٌ ذابلة مُثبتة على الحمَّالة اليُسرى لبدلةِ عمل الرجل الذي كان ذا شَعر خفيف مُصفَّف يغطِّي رأسَه الأصلع كالدثار. بدا وجهه طيبًا حزينًا — كوجه كلب تائه — وكان يحمل حافظةً أمامه كالدرع. لكن لا الحافظة ولا وجه الرجل الحزين يمكن أن يَقيَه من صراخ الواعظ العالي.

قال القس ميكس غاضبًا: «عندما وافقت على طلب الكتب المُقدَّسة لم يُخبرني أحد من شركة «هارت لاند» لتوريد الكتب المقدَّسة أنها ستكون وردية اللون! ماذا تحسبُنا؟ أترانا كنيسة مليئة بالمخنَّثين المُدللين؟»

انتفضت كتِفا عامل التوصيل مرةً أخرى كما لو أنه يحاول منْعَ حمَّالات بدلته من السقوط. لكن كل ما استطاع قولَه هو: «حسنًا يا سيدي …» أو «لا يا سيدي …» أو «إن وقَّعت هُنا فحسب يا سيدي …» قبل أن يُقاطعه الواعِظ مرةً أخرى.

وفي الجانب الآخر من الغُرفة، انهمك فيش في جداله مع السيدة روزماري، أمام مكتب ضخم من خشب البلوط، وفي أثناء ذلك كان جَدِّي بومبا جالسًا أمامها يومئ برأسه من مقعد القس الجلدي الكبير.

ظل فيش يقول وهو يحاول انتزاعَ الهاتف من يد المرأة: «لا تحتاج ميبس إلى طبيب يا سيدة روزماري. كلُّ ما تحتاجه هو العودة إلى البيت. وأن تفعل ذلك في الحال!» تحرَّكت رياح فيش بقوة في غرفة المكتب، وبعثَرَت الأوراق من فوق المكتب، ودفعَتْ بشعور الحاضِرين إلى التمايل فوق رءوسهم؛ وتخطَّفت شَعر عامل التوصيل الخفيف مثل غطاء سرير مبسوط على حبل غسيل.

أصرَّت السيدة روزماري، وهي تُحاول نزْعَ أصابع فيش عن الهاتف: «هذا أمرٌ يُقرِّره البالغون أيها الشاب.» لكن مع تشتُّت انتباهها بالأوراق المتطايرة والرياح الغامضة التي هبَّت بقوة عبْر الغرفة، لم يكن لديها أيُّ فرصة حقيقية في إبعاد الهاتف عن فيش.

صاحت السيدة روزماري في زوجها: «روجر! روجر! أيُمكنك نسيانُ الكتبِ المقدَّسة تلك لحظةً واحدة وتُساعدني من فضلك؟» لكنه كان مُستغرِقًا في انزعاجه من صناديق الكتب المقدسة المخنَّثة؛ ومِن ثمَّ لم يُعِرها أدنى انتباه.

صاح فيش: «إن كنتِ بحاجة إلى رجل بالغ ليبتَّ في الأمر، دعي جَدِّي يبدي رأيه!» وتمكَّن في نهاية المطاف من إبعاد الهاتف عن زوجة الواعظ واندفع فوق مكتب القس ميكس مطيحًا بإطارات الصور وثقَّالات الأوراق على الأرض بينما يَمضي في طريقه. ووقف بجوار جَدِّي بومبا الذي ظلَّ جالسًا مُنحنيًا في المقعد الجلدي. ورفع الهاتف فوق رأسه عاليًا كأنه يتحدَّى السيدة روزماري للقدوم وإمساك الهاتف إن استطاعت. وقال: «أخبِرها يا جَدِّي.»

ولسُوء الحظ كان جَدِّي قد غفا بسببِ كبرِ سنِّه وأخذ يغطُّ بصوتٍ منخفض. أمالت السيدة روزماري رأسَها في ظفَرٍ ووضعت يدَيها في خَصرها.

وارتفع صوتها بحدة: «روجر! أنا بحاجة إلى مساعدتك!» وأدركتُ أن الأمور ستسُوء جدًّا بالنِّسبة إلينا، صغارَ بومونت، مقارنةً بذلك الوقت حينما سكب فيش وروكيت عصيرَ الفواكه الأحمر في جميع أنحاء السجادة في قاعة احتفالات الكنيسة.

جلست على الأريكة، وبي بقيةٌ من دُوَارٍ.

وكأنَّ شجارين غير كافيَين، تقاطع معهما شِجارٌ ثالث بلا سابق إنذار. لم أَستطِع تحديدَ مصدر الأصوات الأخرى من مَكاني، فوق الأريكة الاسكتلندية الزرقاء. لكنَّني شعرت

بالحزن والقلق عندما أدركت بما يُشبه اليقين أنها مُنبعِثة من داخل رأسي. وبدا كأنَّ لديَّ فتاتَين سيئتَي المِزاج حانقتَين عالقتَين وراء حدقتَي عينيَّ.

قال الصوت الأول المُتذمِّر الخَنِين: «أتعلمين أن هذا خطؤك يا كارلين؟»

ردَّ الصوت الآخر بحدة: «هذا ليس خطئي؛ فابنك بليد الذِّهن يا روندا — أيتها العجوز البغيضة.» كان هذا الصوت خافتًا أجشَّ شابًّا مُقارَنةً بالصوت الأول. قلَّبت بصري في أرجاء الغرفة. لم أرَ أحدًا آخرَ هناك. تردَّدت الأصوات داخل جمجمتي مثل الكرة.

قال الصوت الأول: «لا، أنتِ مَن جعلتِه يَعمل في توصيل الكتب المقدَّسة عند ابن عمِك لاري بدلًا من قبول تلك الوظيفة وبيع القهوة في محطة الحافلات. القهوة مشروب سيشتريه الناس.»

ردَّ الصوت الثاني: «أوَلا يشتري الناس الكتبَ المقدَّسة؟»

قال الصوت الأول: «لن يَشتريَ أحدٌ الكتب المقدسة الوردية!»

دارت رأسي من الأصوات التي بدَت لا صاحب لها. احتضنتُ رأسي بين يدي، وأنا لا أزال جالسة على الأريكة، أتعجَّب مما دهاني. تذكَّرت أنني دخلت إلى مطبخ الكنيسة ورأيت وشْم بوبي. كما أنني رأيتُه يتحرَّك. وسمِعته يتحدث. ماذا قال؟

«إنها تشعر بوحدة شديدة، كما تعلمين ...»

حاولت تحليلَ ضوضاء الأصوات المتشاحنة الكثيرة داخل وخارج رأسي. ولم أفهم أيًّا منها. لم يبدُ ما يجري صائبًا. ماذا جرى لهِبَتي الخارقة؟ كان جَدِّي نائمًا، وأنا أسمع الأصوات. حملقت بشدة، والهلع يَتنامى داخلي، إلى جَدِّي بومبا النائم في مَقعَد الواعظ. وبكل ذرَّة من تركيزي أردتُ أن يستيقظ جَدِّي. لكن غمرتني الضوضاء في الغرفة وعجزتُ عن التركيز. لم أستطِع لمَّ شتات تفكيري. ولم أَستطِع التفكير. ربما لو صمَتَ الجميع فحسب، لتمكَّنت من تشغيل هِبَتي الخارقة.

وضعتُ يديَّ على أذني، في محاولةٍ غير مجدية، لحجبِ جميع الضوضاء. احتجت إلى الابتعاد عن المكان. احتجتُ إلى الذهاب إلى مشفى «هوب» في سالَينا. احتجت إلى العثورِ على أبي حتى تُسجِّل هِبَتي الخارقة موعدَ وصولها وتبدأ العمل على الفور. أبي بحاجة إليَّ.

لم يلحظ أحدٌ من الموجودين في الغُرفة أنني أفقتُ. كان القس ميكس مُوليًا ظهرَه إياي. وانهمك في قذفِ الكتب المقدَّسة الوردية في صناديق من الورق المُقوَّى ودفعها عبْر الأرضية صوب عامل التوصيل. كانت السيدة روزماري وفيش يدوران حول مكتب الواعظ مرةً تلو الأخرى، ويتشاجران بشأن الهاتف. ولعبت أصوات المرأتين في رأسي مباراةَ تنس من العتاب المستمر أبدًا، وراحت تضرب مثل الدم في أذني.

استرقَ ويل الابن النظرَ عبْر شقٍّ في الباب. وعندما رأى أنَّني عدتُ إلى الوعي، ابتسم وتنفَّس الصعداء. كلُّ ما أردتُ فعله هو مغادرة الغرفة. رغِبت في الهرب من هذا المكان.

وانتظرت اللحظة المُناسبة للهرب، انتظرت حتى تأكَّدت أنه لن يَرانيَ أحد وأنا أثبُ على قدمي بسرعة وأتسلَّل من غرفة مكتب القس، تاركةً كل هذه النقاشات الحادة خلف ظهري. وبينما أفرُّ من الغرفة، شعرت بالامتِنان لأن أصوات المرأتَين غير المرئيتَين، كارلين وروندا، بدأت تتلاشى. أيًّا كانت المرأتان — أو مهما كانت ماهياتهما — لم تَتبعاني. وخارج الباب، وضع ويل الابن يدَه على كتفي مرةً أخرى؛ لكنني لم أستغرب هذه المرة. كان قد حلَّ زرَّ قميصَه الأعلى، فذهبت عنه هالةُ البالغين قليلًا، وصار أكثرَ شبهًا بفتًى في الرابعة عشرة. وأمسك بمجموعة الأقلام، هدية عيد ميلادي السعيد المغلَّفة، التي أسقطتها عندما سقطت مغشيًّا عليَّ.

سأل ويل وعيناه السوداوان مَليئتان بالقلق: «هل أنتِ بخير يا ميبس؟»

قلتُ بنَبرة يائسة: «يجب أن أرحلَ من هُنا. عليك مساعدتي في الخروج من هذا المكان.»

الفصل الثامن

«يجب أن أذهب إلى سالَينا يا ويل.»

سأل ويل مرةً أخرى، ويده لا تزال على كتفي: «هل أنتِ مُتأكِّدة من أنكِ بخير يا ميبس؟ لقد فقدتِ وعيك للتو، ألا تدركين ذلك؟ ربما تعانين بعضَ الارتباك.»

نظرتُ في عينَي ويل الابن مُباشرة. وقلتُ: «أرجوك يا ويل. لستُ مُرتبكة. ساعدني في الخروج من هُنا فحسب. أحتاج إلى الذهاب إلى سالَينا.»

نظر ويل الابن إليَّ في حزن وعصر كتفي. وقال: «لا بدَّ أنك تَشتاقين إلى أمكِ وأبيك كثيرًا لأن اليوم عيد ميلادك وما شابه.»

دفعتُ يده عنِّي واستدرتُ ناحيةَ الباب. وكرَّرت: «يجب أن أذهب إلى سالَينا.»

أنشأ ويل يَعرض المساعدةَ، وهو يُلاحقني: «ربما تُوصِّلك أمي ...»

«لا يا سيدي. يجب أن أذهب إلى هُناك بنفسي.» أدركت أنني أتحدَّث بغير عقلانية. لقد أتممت الثالثة عشرة للتو، وظننتُ أنه يُمكنني بطريقةٍ ما السفر مسافة ٩٠ ميلًا إلى سالَينا، بكنساس، بمُفرَدي. لكنَّني سألتمس ركوب السيارات مجانًا إن اضطُررتُ إلى ذلك. سأسير على قدمي. لا أملِك خيارًا آخر. لا أستطيع تخيُّل الذهاب إلى أي مكان مع زوجة الواعظ إن كنت أسمع أصواتًا في رأسي. فكما قال فيش: الكنيسة ليسَت مكانًا ملائمًا لي. يجب أن أرحلَ من هنا، ولا بدَّ أن أفعلَ ذلك في الحال. يجب أن أعثر على أبي وأستخدم هِبَتي الخارقة لإيقاظه. هذا كلُّ ما في الأمر.

اتجهتُ مباشرة ناحية أبواب الكنيسة المزدوَجة المفتوحة. كان يمكنني سماعُ جلبة وضوضاء خلفي، في قاعة الاحتفالات، وكنتُ واثقة أنني سمعت ضحكةَ أشلي بينج المكتومة مَتبوعة بضحكة إيما فلينت المقلَّدة. ونظرت بينما يمرُّ أمامي فتيَانِ من مدرسة الأحد التي

يذهب إليها سامسون راكضَين وعلى فمهما بقايا الكعكة. لقد بدأ الحفل بغيابي. وأظنُّ أنه يجب أن ينتهيَ مثلما بدأ.

خرجتُ من الكنيسة، على استعداد للعَدْو حتى سالَينا، لو كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لبلوغها. كان ويل الابن يجري في أعقابي.

قال ويل: «مهلًا، على رِسْلك يا ميبس! انتظريني.»

وصلنا إلى ساحة انتظار السيارات، ونظرت حولي. كان هناك بضعة أطفال يلعبون في النجيلة، لكن كانت الأغلبية داخل الكنيسة. حلَّقَت سُحبُ فيش الكثيفة فوق الكنيسة منذرة بهطول الأمطار.

بدأت أجتاز السيارات الواقفة واحدةً تلو الأخرى كي أخرجَ إلى الطريق. لكن فور أن دنوتُ من حافلة شركة «هارت لاند» الوردية لتوريد الكتب المقدَّسة، توقَّفت. وبينما سمِعت همسَ غناءٍ شديدَ الخفوت مرةً أخرى خلف أذني، رأيت بوبي تستند إلى الحافلة وحيدة، تمضغ علكتها وتُفرقعها مثل مُتمرِّدة متحفِّظة. رأيتها مُتمردة نوعًا ما وهي في تلك الحالة، فما بالك بحاجبِها المثقوب والوشم، وفكَّرت أنه ربما يكون الملاكُ الصغيرُ صاحبُ الذيلِ العابثِ محقًّا؛ ففي تلك اللحظة، بدت بوبي، مع ما هي فيه، وحيدةً أكثرَ مما تخيَّلت أن يحدُث لشخصٍ مثلها.

جذبَ انتباهي الكتابة الموجودة على الحافلة بينما حاولتُ تجاهلَ الهمسات في رأسي. كانت الحروفُ الكبيرة التي تُشير إلى شركة «هارت لاند» لتوريد الكتب المقدَّسة سوداءَ، وتقشَّر لون الطلاء الوردي عائدًا إلى الون الأصلي لحافلة المدرسة وهو البرتقالي. ورأيت أسفلها حروفًا أخرى سوداء صغيرة تُشير إلى عنوان الشركة ورقم هاتفها. توقَّفت فجأة مُندهشةً من حظي السعيد. لم تأتِ شاحنة هارت لاند لتوريد الكتب المقدَّسة من مكانٍ آخر في العالم إلا من سالَينا، في كانساس؛ وتنصُّ على ذلك بوضوح شديد في الجانب، باللون الأسود الصارخ، كي يراه الجميع. وبوضع ذلك في الاعتبار، فكَّرت أنه إذا كانت الحافلة قدِمت من سالَينا فلا بد أنها ستعود إلى هناك. ربما شملني الرب برعايته على أيِّ حال.

شكرت السماء بسرعة، وتجاوزتُ بوبي وفقاعة علكتها الوردية الكبيرة، وتحسَّست بإصبعي هيكلَ الحافلة الوردي البارد المصنوع من الفولاذ، ورسمت خطًّا تحت كلمة «سالَينا» في العنوان، مُزيلة الغبار تحتها، كأنَّني أبرمتُ صفقةً للتو.

أما ويل الابن، الذي لم يتوقَّف عن ملاحقتي، فرفع حاجبيه عاليًا عندما رأى الكلمة التي وضعتُ خطًّا تحتها على الحافلة. لكنه لم يقُل شيئًا، وأنا أتخطَّى بوبي وأصعد أولَ درجة سُلَّم إلى داخل باب الحافلة.

فكَّرت كم كنتُ مخطئةً عندما ظننت أنني ركبت الحافلةَ بالأمس للمرة الأخيرة، لفترة من الزمن، وأثناء ذلك تجاهلت صوتَ أمي في رأسي وهي تُحذِّرني من الركوب مع الغرباء، وتجاهلتُ صوت أبي وهو يُخبرني ألا أنسى إبلاغ شخص بالغ بمَكاني، من أجل سلامتي. وحاولتُ مرارًا وتكرارًا أن أتجاهلَ حديث ملاك بوبي في رأسي. ولكن تبيَّن أن ذلك أكثر صعوبةً مما ظننت.

«إنها تتساءل عما إذا كنتِ على ما يرام.»

قالت بوبي دون أن يظهرَ في صوتها أدنى قلق: «ماذا تظنِّين نفسكِ فاعلة يا طفلة عيد الميلاد المزعجة؟» لا يبدو ذلك الملاك على معرفة جيدة ببوبي حقًّا.

قال ويل الابن على نحوٍ أدهشَني وشقيقته: «اغربي يا بوبي. دعينا وشأننا، وإلا سأُخبر أمي وأبي بشأن درجة «مقبول» التي حصلتِ عليها في اختبار الكيمياء.» كان ويل مُمسكًا باب الحافلة بكلتا يدَيه وواضعًا قدمًا واحدة على أول درجة كأنه يخطِّط لاتباعي إلى الداخل مُباشرةً.

أدارت بوبي عينَيها في مَحجِرَيهما كأنها تعرَّضت للتهديد من قِبل هاوٍ. وقالت بصوت كالشخير: «سيَكتشِفان الأمر على أيِّ حال. ولن يتفاجآ بالتأكيد.»

واصل ويل الكلام: «حسنًا. سأُخبرهما إذن عن كيفية خداعك لسكرتيرة المدرسة بانتحال شخصية أمي على الهاتف، كي تَحصُلي على الإذن متى أردتِ التغيُّب عن المدرسة.»

تحدَّته بوبي قائلة: «أتظنُّ أنني أكترث بذلك؟»

قال الصوت الخبيث: «إنها تكترث»، وتخيَّلت وشْم الملاكِ وهو يدير ذيله الشيطاني العابث. أضاف: «ستكره أن تخسرَ سلاحها السري.»

أخرجت بوبي كتلةَ العلكة الوردية من فمها، وألصقتها بجانب الحافلة، ولطَّخت حرف «الدال» من كلمة «الكتاب المقدَّس» بالكُتلة اللزجة، وسألت: «ما الذي تنويان فِعْله أنتما الاثنان على أي حال؟» ثم تحرَّكت لتحتل مكان ويل في المدخل بعدما صعدنا داخل الحافلة. رأيت فيش من الزجاج الأمامي خارجًا من الكنيسة، بوجه مُكفهِر وهائج، يبحث عني.

قال ويل الابن لبوبي: «يجب أن تذهبَ ميبس إلى سالَينا، وسأصحبُها إلى هناك للتأكد من وصولها سالمة.» قالها كما لو أنَّ الله الجبار ودولة نبراسكا العظيمة كلَّفاه بهذه المُهمَّة، وكما لو أن القس ميكس والسيدة روزماري لن يَضرباه ضربًا مُبرحًا لرحيله المفاجئ دون أن يتركَ لهما خبرًا.

صرخت بوبي في أخيها: «مَن تظن نفسك؟ هل أنت حارس ميبس الشخصي؟ ألا يَكفي وجود شرطي واحد في العائلة؟»

ولوهلة، بدا ويل على وشْك الانفجار. ولو لم يفكَّ ويل الزرَّ الأعلى من قميصه لانقلع من مكانه؛ إذ انتفخت أوداجه.

قال ويل: «اخرسي يا بوبي. إن سالَينا على بُعد ٩٠ ميلًا فحسب. وسنَصل إلى هناك في لمح البصر.»

وفي الجانب المقابل مِن مكان انتظار السيارات، رآنا فيش وكان في طريقه إلى الحافلة الوردية، وتموَّجت الحشائش المُجاورة لرصيف المشاة وتسطَّحت من حوله كأنها تحت شفرات مروحية دوَّارة. كان فيش في قمة الغضب.

قلتُ وبوبي لويل الابن في آنٍ واحد: «لن تذهب إلى سالَينا.» ثم تبادلت أنا وبوبي نظرةَ غضبٍ وحَنَقٍ طويلة، وكانت هي لا تزال واقفةً على الأرض أمام دَرج الحافلة، وأنا في قمته بجوار مقعد السائق، وويل الابن على بُعد مسافة مُتساوية بيننا، وفيش يقطع المسافةَ الفاصِلة بينَنا وبينه بسرعة.

تكدَّست غالبية المَقاعد المُهترئة داخل الحافلة بالصناديق ذات الأغطية وغيرها، وبدا كأنه أُزيلت المقاعد الخلفية لإفساح المكان لمزيد من صناديق التخزين. اتجهت ناحية مُؤخِّرة الحافلة، مُتجاهِلة بوبي وويل الابن، وفكَّرت أنه يُمكنني الاختباءُ هناك جيدًا حتى تَصِل الحافلة إلى كنساس. اتبعني ويل الابن وفي أعقابه بوبي.

قالت بوبي وهي تَصعد الدَّرج المؤدِّي إلى الحافلة بخطوات قوية، مستحضرةً معها شجاعةَ وتردُّد فتاة في السادسة عشرة: «حسنًا، لن تَذهبا إلى أي مكان دوني. لو اختفيتُما، مَن سيتحمل المسئولية إذن؟ مَن سيَقع في ورطة؟ بالطبع أنا سأتحمَّل المسئولية. وإذ كنتُ سأقع في ورطة، فالأفضل أن يحدُث هذا لأمرٍ يَستحق. سأذهب معكما.»

أنشأ ويل يجادل: «مُستحيل يا بوبي.» لكن بوبي رفعت إصبعها في وجه أخيها لإسكاته.

وقالت: «لا بدَّ أن يتعهَّدكما أحدٌ بالرعاية يا أطفال. سيَقتلني أبي وأمي إن تركتكما تذهبان بمفردكما.»

قال ويل: «سيَقتُلانك على أيِّ حال. بل سيقتلاننا.»

سأل فيش وقد صعد أيضًا دَرَج الحافلة مُستعينًا بيديه ورجليه: «ماذا يجري هُنا؟»

صحتُ في أخي من وراء ظهري، وأنا أتسلَّق الصناديق المكدَّسة في الممر: «لن أعودَ إلى البيت يا فيش. سأذهب إلى مشفى «هوب» في سالَينا. سأذهب إلى كانساس وسأجد أبي.»

سأل فيش بضحكة هازئة: «أبهذه الحافلة ستَذهبين؟»

قالت بوبي: «أجل»، باستهزاء بدا مُبهجًا في تمرُّده، جعلها تبدو كأنها تقف في صفي. وأردفت: «سنذهب جميعًا إلى سالَينا أيها الفتى فيش. إن كنت خائفًا جدًّا من السباحة ضد التيار مع بقيتنا، فالأجدر بك أن تنزل من الحافلة.» ألقت بوبي نظرةً سريعة مُباغتة فوق كتف فيش، وإلى خارج نافذة الحافلة الأمامية، ثم قالت: «لكن احسم أمرك بسرعة لأنَّني أظنُّ أن سائق الحافلة خارج من الكنيسة الآن.»

استدَرنا جميعًا لنرى أن ما قالته بوبي ليس كذبًا. كان عامل التوصيل الحزين يخرج من الكنيسة، حاملًا صندوقين ثقيلين من الكتب المقدسة الوردية ومطأطئ الرأس. تبادلتُ أنا وويل الابن وبوبي وفيش النظرات، وترقَّبنا مَن سيندفع من الحافلة أولًا، ومَن سيتحلَّى بالشجاعة لخوض التحدي والبقاء في الحافلة.

كاد عامل التوصيل يبلغ الشاحنة عندما ظهرت السيدة روزماري بين الأبواب المُزدوجة المفتوحة للكنيسة وفتَّشت ساحةَ انتظار السيارات بعينيها مثل حارس سِجن.

صاحت بوبي: «بسرعة! اختبئوا! لا نُريدها أن ترانا!»

تملَّكهم الرعب وتبعوني مُتسلِّقين الصناديق بأيدهم وأرجلهم للوصول إلى مؤخرة الحافلة، وراحوا يتعثَّرون وينزلِقون ويرتطِمون بالصناديق، فأوقعوا الكتبَ المقدسة الوردية على أرضية الحافلة مثل الأحجار التي تُداس عند عبور الماء. وفجأةً شعرتُ أنني غير واثقة تمامًا من هذه الخطة. ربما كنت مُتسرعةً جدًّا. ربما كان من الأفضل أن أسيرَ كلَّ هذا الطريق إلى سالَينا.

همس الملاك في أذني: «إنها خائفة.»

في تلك اللحظة، لم أكن بحاجة أن يُخبرني الوشم عن شعور بوبي. كنا نتشارك الشعور ذاته ولم يكن لدينا وقتٌ للتظاهر بعكسه. وقبل أن أفكِّر في الأمر مليًّا تسبَّبت في حبس الجميع في الحافلة الوردية الكبيرة. صِرنا مسافرين متهربين إلا إذا حملت الشجاعة أحدنا — أو الجنون — على النزول من الحافلة أمام عامل التوصيل والسيدة روزماري وإفساد الأمر على الجميع. لكن لم يحاول أحدنا الهروب، وكنتُ ممتنة لذلك.

غطسنا خلفَ كومة صناديق الكتب المقدَّسة الوردية في مؤخِّرة الحافلة، مختبئين، نتساءل عما إذا كنا مستيقظين أم إننا في حُلم، بينما صعد عامل التوصيل إلى الحافلة. واندهشنا عندما وجدنا في نهاية الحافلة سريرًا نقَّالًا، وحقيبةَ نوم محشورة بين الصناديق، بالإضافة إلى حقيبةِ سفر مُهترئة يتناثر منها جوارب غير مُتطابقة وبدل عمل إضافية. وإلى جانب ذلك، كان على الأرض كيس من رقائق البطاطس المقلية نصف فارغ، وبضع وجبات خفيفة من «سلِم جِمز»، وكومة مقلوبة من مجلات «ناشونال جيوجرافيك»؛ بعضها مُنثنية أوراقها باهتة الألوان، والأخرى حديثة جديدة.

لكن كانت المفاجأة الكبرى هي وجود سامسون.

تكوَّر سامسون في هيئة كرة تحت السرير النقَّال، مثلما تضمُّ سُلحفاته جسدها تحت قوقعتها. كان يتطلَّع إلى الصور في إحدى المجلات القديمة جدًّا، وعيناه الداكنتان مَفتوحتان على آخرهما وهو يُطالع مقالًا بعنوان «عادات غريبة للعُثَث المألوفة» عندما اقتحمنا مَخبأه. لكنه لم يَحمل نفسه على النظر إلينا حتى سمع الضوضاء المجلجِلة المدوية للمحرك ترجرج الحافلة.

رفعت إصبعي إلى شفتي في تنبيهٍ غير ضروري لسامسون بالتزام الصمت، ونسيت لوهلة أن أخي المزاجي الكئيب دائمًا ما يكون صامتًا، وسيتطلب الأمر ما هو أكثر من ارتفاع صوته كي يُمكن سماعه وسط صوت زمجرة محرك الحافلة القديم. بدأت العجلات في الدوران، فتشبَّثنا بما يمكننا التشبُّث به حتى لا نرتطم أو نثب في الأرجاء بينما تغادر الحافلة ساحةَ انتظار سيارات الكنيسة باتجاه الطريق السريع. لكن الحافلة الوردية الكبيرة بلَغَت طريق ٨١ السريع وانعطفت يسارًا لا يمينًا، واتجهت شمالًا لا جنوبًا، ووجدنا أنفسنا فجأة نبتعد عن كنساس بدلًا من الاقتراب منها.

الفصل التاسع

فورَ أن أدركتُ وفيش أننا نَقترِب من نبراسكا أكثرَ فأكثر، نهَضْنا على ركبنا بسرعة كي نسترِق النظر من النافذة. نظر إليَّ فيش بعينَين مُلتاعتَين صارمتين كأنهما تُلمِّحان بنبرةٍ لاذعة إلى أن فكرتي كانت غبية وتقول: «ماذا عسانا نفعل الآن؟»

استرختْ بوبي على الفراش النقَّال مثل كليوباترا، تسُند جسدها بمِرفقها، في لا مُبالاة واضحة، وتترك ثِقَلها يضغط على سامسون الذي ظلَّ مُتكورًا تحت السرير بهدوء. وأخرجت لفَّة كبيرة من علكة «بابِل تيب» واقتطعت منها قطعة طويلة وحشرتها في فمها. ثمَّ التقطت إحدى إصدارات «ناشونال جيوجرافيك» الحديثة من أعلى الكومة وشرعت تتفحَّص صفحاتها بفتور. احتوى غلاف المجلة على صورة قلب بشري، بدا مجرَّد بطيخة كبيرة لا أكثر، تتشعَّب فيها جذور باهتة؛ وفي ظني أن الصورة جعلت قلبَ المرء يبدو هشًّا للغاية على عكسِ ما تعلَّمت في المدرسة من أنه عضلة قوية. حينها نظرت إلى بوبي وأدركت أنها قد تكون على نفس الشاكلة؛ قوية وهشة في نفس الوقت. كانت تتمدَّد على ذلك السرير النقَّال كأنها على أريكتها بمنزلها. ولولا همسات الملاك في رأسي يُخبرني عن كيفية شعورها بالتوتر مثل بقيتنا، لظننت أنه ليس هناك ما يقلقها البتَّة، وأنها فتاة قوية في السادسة عشرة من عمرها.

حطَّ فيش على السرير، ووضع مرفقيه على ركبتيه، محاولًا الابتعادَ عن بوبي قدْر الإمكان، ما آل به إلى الجلوس عند قدمَيها في طرَف السرير. حاول فيش الحفاظ على توازنه على طرَف مفرش السرير المعدني، وشعرت بعينَي أخٍ مسئول تخترقاني. كنتُ أعلم أنه في قمَّة الغضب. وأعلمُ أنه يشعر بالقلق. وتخيَّلت أنه يسمع صوتَ أمي وأبي في رأسه أيضًا،

ويشعر أنه الشخص المسئول أمامهما. وفوق ذلك، أعلم أنه يتذكر الإعصار الذي تسبَّب به وما نجم عنه مِن أضرار؛ وذلك لأنه أتمَّ الثالثة عشرة بالمكان الخطأ.

جلست على الأرضية واثقةً تمام الثقة أن الحافلة ستُغيِّر اتجاهها وستعود إلى سالَينا بكنساس في لمح البصر. ألصقت ركبتي بصدري، وشددتُ تنورتي الصفراء الناعمة حتى وصلت إلى كاحلي: ودغدغَت الزهرةُ الأرجوانية الكبيرة وجنتي كما لو أنها تُريد دفعي إلى الابتسام. جلس ويل الابن على الأرضية بجواري رغم تلويثها لسرواله. جلس، تكاد تلمس يدُه يدي، واستقرَّت في حجره مجموعةُ الأقلام، هدية عيد ميلادي السعيد، التي لا تزال مغلَّفة بورق هدايا عيد الميلاد.

وبينما تُقعقع الحافلة مُبتعِدة عن كنساس، وعن أبي في المشفى، وعن أمي وروكيت في النُّزل مع الصابون والمناشف البيضاء، كان يُمكنني سماعُ النميمة الخافتة لملاك بوبي في رأسي. وحاولت أن أتجاهلها وأتظاهر بعدم سماعها.

تذكَّرت أنني عندما كنا نعيش في الجنوب، رأيتُ رجلًا مجنونًا ذات مرة، يترنَّح ويَهيم على وجهه على رصيفٍ في وسط المدينة، لا يَتحدَّث مع أحد سوى نفسه؛ كان يتحدَّث ويصفع جانب رأسه كأنه يُحاول إخراج شيءٍ ما من الجانب الآخر. وبدا كأنه يُعاني من وجود حشرة في أذنه أو أنه يسمع أصواتًا في رأسه. وتساءلت ماذا لو أن هذا مَصيري؟ لكنَّني حدثت نفسي قائلة إن ما حدث بسبب الإجهاد، والقلق بشأن أبي، والتوتُّر بسبب مُحاولتي لاكتشاف هِبَتي الخارقة والتأكُّد من عملها على النحو السليم. فالتوتُّر يدفع عقولَ البشر إلى فعلِ أشياءَ غريبة.

حاولت تجاهُل همهمة الملاك ودندنته بنفس الطريقة التي تجاهلتُ بها الهمسات المُزدرية لأشلي وإيما وجميع الأطفال الآخرين في مدرسة هيبرون الإعدادية، بالأمس وفي الأيام السابقة، بل وفي كل الأيام منذ قُدومي للعيش في كنساسكا-نبرانساس. لكن بينما أدفع بذلك الصوت إلى الخلفية في رأسي، بنفس الطريقة التي دفعت بها فُتات الطعام تحت الموقد عند عدم انتباه أمي، أدركت أنه يتردَّد وراء صوت الملاك، وضجَّة الحافلة، وخشخشة الصناديق، صوتُ السيدتين المُتعاركتين من مكتب القس ميكس في رأسي من جديد.

قالت كارلين بصوتها الرخيم الخشن: «هذا الرجل لا يَستخدِم المقدار القليل من الذكاء الذي حباه الله به. كما أنه أَخفق في التوصيل بالطريقة المناسبة. ما مدى صعوبة تسليم صندوق من الكتب المقدسة؟»

قال صوت روندا الذي ينمُّ عن كِبَر سنِّها في غضب: «إنَّ بيعَ القهوة سهل. كان من الأفضل له أن يبيع القهوة. لم تَعرفي قط كيفيةَ العناية بابني. لا أدري ما الذي رآه فيك.»

وبدا أن الأصوات انجرفت مِن مُقدمة الحافلة إليَّ، عبْر نظام اتصال داخلي متَّصل بعقلي مباشرة. كنت على يقينٍ أنه لم يركب الحافلة إلا عامل التوصيل ونحن الأطفال، ولم يساورني أدنى شك في أنه لا أحد غيري يسمع ما أسمعه.

ألقيت برأسي على ركبتي وهززت رأسي يَمْنة ويَسْرة، في محاولة للتركيز على ملمس القماش الأصفر الباهت لفستان المناسبات الخاصة على بشَرتي، ولتجاهل جدال المرأتين البغيضتين ولوم إحداهما الأخرى على حظ عامل التوصيل العاثر.

لم يكن لديَّ أدنى فكرة كم مضى من الوقت والحافلة تُصلصل وتُجلجل في الطريق السريع. شعرتُ كأنَّ عدَّة ساعات مرَّت. رأيت السماء عبْر نَوافذ الحافلة مِن فوقي وهي تَسير معنا، وشاهَدْت صفًّا لا يَنتهي من أعمدة الهاتف يمرُّ بسرعة كبندول الساعة. وحدَّدَت صوامعُ الغلال وأبراج الماء المسافاتِ بين البلدان المُحاذية للطريق السريع، لكنَّني في كل مرة أنهض فيها بما يَكفي لأتطلَّع خارج النافذة لا أرى سوى المشهد الخامل المستمر للأبد على ما يبدو؛ لا أرى إلا حقلًا تلو الآخر من سيقان الذُّرة البُنية الميتة الباقية من فصل الصيف الماضي، وصفوفًا من معدات الري الهيكلية الهامِدة بانتظار استيقاظ الأرض مع الربيع وطلبها شربة ماء.

بدأ الخَدَر يسري في مُؤخِّرتي، وشدُّ العضل يَنخَز في ساقي، بينما مالت شمس آخر النهار تحت الأفق لفترة طويلة ساطعة عبْر نوافذ الحافلة مُلقية بظلال صناديق الكتب المقدسة المستطيلة الكبيرة على الأرض.

آنذاك شعرت بوبي بالضجر. فرفعت قدَمها وركلت فيش مِن على طرَف السرير النقَّال بابتسامة ماكرة بغيضة. فقَدَ أخي صوابه، وانقبض وجهه، وأطلق العِنان لهِبَته الخارقة؛ إذ عجز عن السيطرة عليها بسبب حَنَقه وتوتُّره.

تطايرت المجلات في الهواء مثل سربٍ غاضب من الطيور الفوضوية الصفراء الأجنحة وجد نفسه عالقًا في تيار الهواء المتصاعِد الناجم عن حَنَق فيش. تأرجحت أغطية الصناديق الورقية ورفرفت، وعلا البخار نَوافذ الحافلة واهتزَّت بقوةِ عاصفةِ فيش المُطرةِ الجنونية. غطَّت بوبي رأسها بذراعَيها، والمجلات تَطير مِن فوقها مُتوعِّدة بالسقوط عليها، والحرارة تَرتفِع داخل الحافلة حتى صارت استوائية تمامًا. تصوَّرتُ أن بوبي ستُمزِّقها القصاصات الورقية من المجلات المُتطايرة الخفَّاقة، وقفزتُ مِن فوق الأرضية لأمسك بفيش الذي ركَّز

نظراته الحارقة على بوبي دون أن يحُول عنها. أخذت أخي من كتفَيه وهزَزتُه هزًّا عنيفًا. وظننتُ للحظة قاتمة جدًّا أنني قد أُضطرُّ إلى صفعِه أو لكمِه أو قَرصِ أذنَيه أو إلى فعل أي شيء من شأنه إيقافه عن إثارة العواصف.

همست باسمه: «فيش!» وهززته مرةً أخرى في يأس. وفجأة وجدت سامسون واقفًا بجواري. ووضع يده الشاحبة على ذراع فيش بهدوء شديد دون أن يَبتسِم أو يَعقد حاجبيه أو يطرِف بعينيه. ولم يعصر ذراعه أو يقرصها أو يضربها أو يُقيِّدها. اكتفى سامسون بلمس رُسْغ أخيه بأنامله المُغبرة فسكنَت الزوبعة.

أشاح فيش نظرته المُلتهبة عن بوبي وتطلَّع إلى سامسون، وهو يهزُّ رأسه بضع مرات كأنه يزيل بقايا نوبات الغضب من عقله.

قال: «آسف»، وبدا مُنزعجًا مُرتبكًا خجلًا في اعتذاره لسامسون أو لبوبي أو لنفسِه. كان ويل الابن قد نهَض من فوق الأرضية أثناء انفعال فيش، وأسقط مجموعة الأقلام من حِجره، وركلَها تحت الفراش النقَّال على سبيل الخطأ، وهو يتصارع مع المجلات المُعتدية. ونظر وشقيقتُه إليَّ وإخوتي كما لو أننا كائنات فضائية خضراء شريرة هبطت في فنائهما الخلفي. وساد الصمت الأرجاء بالمعنى الحرفي للكلمة. واستغرقت لحظة كي أستوعب كم كانت الأجواء هادئة ... كم كانت ساكنة.

توقَّفَت الحافلة. وأوقف السائق المُحرِّك. وسكنت القرقعة والرجرجة. ووقف عامل التوصيل في الممر واضعًا يديه على خاصرته، وراح يُحدِّق بنا جميعًا، وتبدَّلت نظرته الحزينة بأخرى منزعجة أو على الأحرى غاضبة جدًّا.

قال ملاك بوبي في أذني: «إنها تعلم أنها في ورطة الآن.»

وحدَّثت نفسي قائلة إنها ليسَت وحدها.

الفصل العاشر

في صمتٍ يُصِمُّ الآذان، نظر عامل التوصيل إلينا، حائرًا فيما يفعل بشأن عُثوره على فئرانٍ صغيرة تعشش بين كُتبِه المقدَّسة؛ هل يُسمِّمها أم يُغرقها؟ هل يُطعمنا للقطط أم يَصطادنا بمصيدة؟ نظر إلينا، ونظرنا إليه بدورنا، لا نجرؤ على التنفس تقريبًا.

كان الرجل قد أزال زهرةَ القرنفل الذابلة وأرخى ربطة عنقه الوردية. كما طوى كمَّيه عند الرُّسغ، وعندما عقَد ذراعيه على بدلتِه الباهتة التي تُغطي صدره الغائر النحيل، كشفت المرأتان المتخاصمتان الوقحتان، كارلين وروندا، عن وجهَيهما — أو دعنا نقول — عن مكانهما.

كانت كارلين مرسومة بحروف مُزخرفة على ذراع الرجل الأيمن، فوق زهرة سوداء ذات أشواك كالمسامير. أما روندا فكانت مرسومة على ذراعه الأيسر، تحت قلب أحمر، قد حُفرت داخله كلمة «أمي». نظرت، وحروف كل اسم تدور وتتمايل؛ وشعرت بالغثيان والخطوط تُعيد رسْم نفسها على شاكلة وجوه نسائية. وبدأتا تتجادَلان من جديد.

«أنتِ أمُّه يا روندا. ماذا فعلتِ كي يَشبَّ لِيستر ضعيفًا على هذا النحو؟ إنه لا يُظهِر مقاومة من أي نوع.»

«لا تلوميني! فليستر يُشبه والدَه الأحمق العديم الفائدة، ذلك الرجل الضعيف. لكن ربما لو لم تُصرِّي يا كارلين أن يُعطيَك ابني كلَّ قرش يحصل عليه من توصيل تلك الكتب المقدَّسة لابن عمك فقد يَحظى بفُرصة الادخار، لمرة واحدة في حياته، بدلًا من تكبُّده المشاقَّ لتغطية نفقاتك.»

شاهدتُ المرأتين وقد عادتا إلى الحياة من خطوط أسمائهما كأنَّ الرسوم الكاريكاتيرية في طرائف يوم الأحد قد دبَّت فيها الحياة، وشعرت بالتشوُّش والدُّوار مرَّة أخرى. تراجعت خطوة للوراء، مُضطربة تعجز ساقاي عن حَملي، وأخذت أُذكِّر نفسي أن هذه ليست موهبتي

المتفرِّدة. وما يحدُث هو مجرَّد حيَلٍ ماكرة يمارسها عقلي. ما أزال مُضطرَّة إلى الذهاب إلى أبي وإيقاظه لأن هذا ما يجب أن يحدُث. أردت أن أجلسَ على السرير النقَّال، قبل أن تستسلم ساقاي الهلاميَّتان، لكن كانت بوبي لا تزال مُستقرَّة هناك، وويل الابن يقف حجرَ عثرة في طريقي.

ثم رأيت سامسون يقف في زاوية عيني كالشبح، وبلمسته الرقيقة يَمسح ظهري. لم أَعُد أشعر أنني سأفقد وعيِيَ، وتمكَّنت من تجاهُل المرأتين المتحدثتَين بصوتٍ عالٍ، وبدأت أُخفِض صوتَيهما قليلًا، عبْر الاسترخاء والتنفُّس بعمق.

قال عامل التوصيل: «ماذا تفعلون في حافلتي يا أ... أطفال؟» قالها عابسًا بنَبرة عالية، لكنها عذبة مدهشة كمُغنٍّ غربي قروي يُغني بصوتٍ مُختلف الطبقات مِن فوق نبتة صبار. لم يَقُل أحد شيئًا، لا ندري ماذا نقول أو مَن يجب أن يتطوَّع بالإجابة.

قال الرجل: «لا أريد تكرار السؤال»، بنَبرة لا تزال موسيقية لكنها مُتوتِّرة كأن التحدُّث إلى الأطفال يُصيبه بالتوتر.

قالت روندا من فوق ذراعه الأيسر: «رائع يا ليستر. أرِهم شجاعتك.»

قالت كارلين بازدراء: «هذا لو أنه يتحلَّى بالشجاعة. سيكون استعراضه قصيرًا للغاية قبل أن تتداعى شجاعته. وهؤلاء الأطفال سيقودون هذه الحافلة وسيُخبرونه بمكان جلوسه في أقل من عشر دقائق.»

ابتلعتُ ريقي بصعوبة، وخطوت تُجاه الرجل بحذر وبطء. وسألت: «هل ستعود إلى كانساس قريبًا يا سيدي؟ نحن نُحاول الذهاب إلى سالَينا.»

نظر إليَّ ليستر، وكان لا يزال يَعقد ذراعَيه فوق صدرِه ويُقاوم للحفاظ على بقاء كتفَيه في مكانهما، باذلًا غاية جهده للثبات على موقفِه. تحرَّك فمُه كأنه يَمضغ شريطًا من علكة بوبي، يُحاول أن يمنع الكلمات الخاطئة من أن تتكوَّن داخله. وتنبَّهت إلى أنه ربما تدور تروسه ببطء نوعًا ما مُقارنة بالأناس الآخرين أو أن قبَّعة تفكيره انكمشت في المغسلة ولم تَعُد تَستوعب حجمَ مخِّه.

قال الرجل أخيرًا، وهو يُشير بإصبعه نحونا باسطًا ذراعه: «لا يُمكنكم الوجود على متن هذه الـ... الحافلة أيها الـ... الأطفال.» لكن اهتزَّ إصبع ليستر، وسط ضحكات كارلين وتوبيخيات روندا، سُخرية من محاولاته للتحلي بالإصرار والشجاعة، كما لم تحمل نظراته أيَّ حقد حقيقي أو غيظ.

خطوت خطوة أخرى تجاهه قائلة: «أرجوك يا سيدي. نحن نُحاول بلوغ سالَينا فحسب. لن نتسبب في أي مشكلات ولن نُعيق طريقك. وبالتأكيد لا ضرر من انتقالنا بالحافلة معك مجانًا. فلديك الكثير مِن الأماكن. ستعود إلى هناك، أليس كذلك؟ فاللافتة على حافلتك تقول ...»

تلعثم ليستر، وهو يخطو خُطوة للوراء، ويدُسُّ سبَّابته تحت إبطه الرطب، كما لو كان لا يثق به، قائلًا: «قد أقع في أزمة ك... كبيرة جدًّا بوجود أ... أطفال في حافلتي. ربما لن يرُوق الأمر لرئيسي على الإطلاق. وسيَطرُدني من عملي بالتأكيد. هل تعلم عائلتكم أين أنتم؟»

قلتُ: «إنَّ أمي وأبي في سالَينا الآن. وأبي يَرقُد في المشفى. ستُسدي إليهما خدمة جليلة إن أوصلتنا إليهم. أقسم لك»، ورفعْت يدًا في الهواء كأنني أقطع عهدًا؛ ومع وجودي وسط كل هذه الكتب المقدَّسة ظننت أن عهديَ سيكون له وزن. تحرَّك ليستر جَيئةً وذهابًا، وكتفاه لا تزالان تهتزان، وترُوسه لا تزال تدور بعد كلامي.

قالت كارلين: «ها قد بدأ. هذا هو ليستر سوان. انظري إليه وهو يُذعن لفتاة صغيرة كالأحمق.»

طقطقت روندا، بلسانها المرسوم، بخيبة أمل معهودة من الأمهات. وقالت: «لم يتطلَّب الأمر أكثرَ من لمسة خفيفة كي يُطرح ابني ليستر أرضًا. ليته صار مثلي. حينها، كنت سأُلقِّن هؤلاء الأطفال درسًا.»

خفضت يدي، وخطوت خطوة أخرى إلى الأمام؛ أما ليستر فقد تراجع إلى الخلف خطوة أخرى، كأنه يخشى أن أعَضَّه إن دنوتُ منه أكثرَ من اللازم.

وقلت: «أتسمَح بنقلِنا يا سيدي؟»

مرَّر ليستر يدَه اليمنى في شَعره الخفيف، وحكَّ رأسه الأصلع، فانتصبَت خصلات شعره المتبقية مثل ريش بطة صغيرة قبيحة؛ أدارت كارلين عينَيها الكاريكاتيريتَين المرسومتَين في مَحجِرَيهما، وهي تهتز للأعلى والأسفل، وتَنقلِب رأسًا على عقب مع حركة يده. ولوهلة، ظننت أن ليستر سيلقي بنا من الحافلة مباشرة، ويَتركنا على جانب الطريق السريع، وسط المجهول. لكن بعد فترة صمتٍ غير مريحة، مرَّت هذه اللحظة، وانخفض ليستر ليجلس على حافةِ أقربِ مقعد له، بعد أن تهدَّلت كتفاه وارتخيتا بصورة زائدة.

سأل بنَبرة رجل حزين يُدرك أنه خسِر آخرَ قطرة من شجاعته: «حسنًا، من أين جئتم جميعًا؟»

الفصل الحادي عشر

تبيَّن أن ليستر سوان يستمتع بتجاذب أطراف الحديث مع الآخرين. فبعد أن أفرغ الصفوف الأمامية من المقاعد المُهترئة البالية، ألحَّ علينا جميعًا للجلوس في المقدمة، وهو يقود الحافلة. جلس ويل الابن وبوبي في نفس الجانب من الحافلة، وراء مقعد السائق مُباشرة، غير واثقين فجأةً منَّا، صغار بومونت، والأشياء الغريبة التي تَجري حولنا. جلستُ وفيش في الجانب المقابل عبْر الممر، مُشتاقَين إلى العودة لطريقنا. وفضَّل سامسون الانعزال في مُؤخِّرة الحافلة، وانسلَّ أسفل السرير النقَّال مرة أخرى، ومعه كيس رقائق البطاطس المقلية ووجبات «سلِم جِمز» الخفيفة وكومة المجلات في متناول يده.

قاد ليستر الحافلة الوردية الكبيرة وأسهب في الحديث عنها قائلًا: «قد تُعاني هذه العجوز بعض الـ… المكابس المَعطوبة ويَحتاج الـ… الكربراتير إلى الاستبدال، لكنها لا تزال قادِرة على السير أميالًا عديدة.» كان يتحدَّث عن الحافلة كأنها سيدة أنيقة مُرهَفة الحس تحتاج إلى اهتمامه وعنايته دائمًا. قال: «وبالطبع، أحرص ألا أنسى ألا أتخطى ٥٤ ميلًا في الساعة»، وعبس ليستر وتغيَّرت تعابير وجهه كأنه يستحضر كلَّ الأوقات التي نسيَ فيها هذه الحقيقة. أضاف: «إذا تخطيت هذه السرعة، فستتوقف هذه الـ… الحافلة القديمة عن العمل. أتذكَّر ذات يوم عندما …»

قاطعَ فيش ثرثرةَ ليستر بفروغ صبر مُتسائلًا: «كم سيستغرق الوقت للوصول إلى سالَينا؟ أبي في حالةٍ يُرثى لها. يجب أن نذهب إلى هناك في أسرعِ وقت ممكن.» خفق قلبي وشعرت بالألم يعتصر مَعِدتي عندما تذكَّرت كلمات أمي: «يقول الأطباء إنه يجب أن نَنتظِر ونرى ما سيحدث.» تحرَّك ويل وبوبي في مقعديهما بتوتر؛ إذ تذكَّرا أيضًا السبب الذي من أجله تسلَّقنا تلك الحافلة في المقام الأول.

قال ليستر مُرتبكًا من القلق الذي أثاره تغيير الخرائط العقلية في منتصف الجملة: «حسنًا، دعوني أفكِّر. يجب أن أبلُغَ مدينة بِي ق... قبل الخامسة.» وبينما يضع يدًا واحدة على عجلة القيادة، أخرج ليستر ساعةَ يدٍ ذات جلدة مقطوعة من جيب بدلته.

هتف: «تبًّا!» وكاد يَنحرف عن الطريق وهو يُحملق إلى الساعة. تابع: «لقد تأخَّرت.» ارتفعت الحافلة وارتجَّت إذ ضغط ليستر على دوَّاسة البنزين بقوةٍ أكبر. ما إن تذكَّرت وفيش كلَّ ما أخبرَنا به للتوِّ عن تعطُّل الحافلة الوردية الكبيرة عند سيرها بسرعةٍ كبيرة، راقبْنا مؤشرَ السرعة، من فوق كتفِ ليستر، عن كثَب بتوتُّر.

أردف فيش: «وماذا بعد؟ أين ستذهب بعد بِي؟ هل ستعود إلى سالَينا بعد ذلك؟»

نظر ليستر إلى فيش دون تركيز كأنه لا يصغي السمع: «همم؟ بعد بِي؟ يجب أن أذهب إلى وايمور ثم سأعرِّج سريعًا على مانهاتن لـ... لدفع بعض المال إلى صديقة، لاري ر... رئيسي هو ابن عمها وهي تثور إن لم أحضر لها المال. وبعد ذلك، سنعود إلى سالَينا.»

كانت بوبي قد انزلَقَت إلى طرف مقعدها آنذاك؛ تُحدِّق بانتباه إلى الحاجز الفاصل بينها وبين الجزء الخلفي من مقعد ليستر، وتَنظر إلى عامل التوصيل في عبوس. وسألت: «كم سيستغرق كل هذا؟ متى تخطِّط للرجوع تحديدًا؟»

أجاب ليستر بذهنٍ شارد، وهو يَخرج من الطريق السريع الرابط بين الولايات، مُتوغلًا شمالًا بعيدًا عن سالَينا، ويَدخل في طريق سريع ريفي صغير: «أوه، أظنُّ أنني لن أتأخَّر عن ظهيرة الغد.»

صِحنا جميعًا: «الغد؟ الغد؟»

هتفت: «هذا وقتٌ طويل للغاية!»

قال ليستر وهو يُحاول جاهدًا إنهاء المحادثة: «حسنًا، ما باليد حيلة. لا أَحتمِل أن أفقد وظيفتي. إن عُدت الآن فسأَخسر عملي بلا شك. حينها لن يكون هناك كتب مُقدَّسة، ولا حـ... حافلة، ولا مُستقبل لليستر العجوز المسكين.»

ابتلعت ريقي بصعوبة، وشعرت أنني بين السَّنْدان والمِطرقة، وأدركت تمامَ الإدراك مدى صعوبة الموقف حقًّا. كيف لي أن أطلب من رجلٍ لا أعرفه البتَّة المخاطرة بلقمة عيشه من أجلي؟ لكن كيف سأنتظر يومًا آخرَ حتى أصل إلى أبي؟

استدارت بوبي في مَقعدها ونظرت إليَّ بعينين جاحظتين عاجزةً عن تصديق هذه الأجواء غير المعقولة قائلة: «غدًا؟ رائع.» كرَّرت مرةً أخرى: «غدًا» وهي تُومئ برأسها وتَستنِد بظهرها على مقعدها. وأضافت: «هذا مذهل.»

نظر فيش وويل الابن ناحيتي أيضًا. انكمشتُ، وغُصت في مقعدي، شاعرةً بالبؤس والاضطراب من وضعنا الجديد. وما أثار دهشتي أن ويل غمز ناحيتي، وعلت شفتَيه ابتسامةٌ جانبية، فشعرت بالتحسُّن قليلًا. من بين كل الموجودين في الحافلة، بدا ويل الوحيد الذي ربما يَحظى بوقتٍ مُمتع.

كانت بلدة بِي المتناهية الصغر، في نبراسكا، في حجم نحلة مخطَّطة صفراء تقريبًا؛ قد تئزُّ بجانبك ولا تكاد تراها إن طرفتَ بعينَيك ببُطء كافٍ. وكأن الوضع ليس سيئًا بما يكفي بالنسبة إلينا، فاستحال توحُّشًا وجنونًا فورَ أن وصلنا إلى تلك البلدة الصغيرة.

كانت هناك كنيسة واحدة في بِي. وقد شُيدت على هيئة صندوق بزوايا مثل أكورديون، لكن كانت نوافذها مُعتمة وأبوابها موصدة بإحكام.

نقل ليستر سوان بصره من ساعة يده إلى الشمس — التي كانت قد اختفت تحت الأُفق تقريبًا — بينما يعبث بمقابض الباب ويَقطع النجيلة الصناعية الخضراء الزاهية الموصلة إلى الباب الجانبي جَيئة وذهابًا. ثم جلَس على دَرَج الكنيسة الأسمنتي وفرَك رأسه. ابتعدتُ عن ليستر كي أتجنَّب سماعَ تأنيب كارلين وروندا وتذمُّرهما بشأن حماقة ليستر الأخيرة. كانت هاتان المرأتان تُصيبانني بالقُشَعْريرة من فرط فظاعتهما. تذكَّرت أمي، وشعرتُ بالأسف نحو ليستر. كان صوت روندا أبعدَ ما يكون عن صوت الأم الحاني. بالطبع، كانت أمي فريدةً بشكل خاص؛ لذا حرصت ألا أنسى هذه الحقيقة. كانت أمي مثالية.

تذكَّرت أمي وهي تقول لي ذات يوم: «لقد استغرق الأمر عدةَ شهور حتى اكتشفت هِبَتي الخارقة عندما كنتُ في نفس عمرك.» كنا في المطبخ، أنا وأمي وجيبسي، وأثناء ذلك كانت أمي تُحاول تعليمي كيفيةَ إعداد فطيرة مثالية. لكن كانت فطيرتي أبعدَ ما تكون عن المثالية. أما جيبسي فقد انهمكت في حشرِ أصابعها في أعماق كُتلتها الصغيرة من العجين الناعم، وتَقتَطِع منها قِطعًا صغيرة وتأكُلُها، عندما تُدير أمي رأسها.

كانت فطيرتي تتفتَّت وتتشقَّق أو تَلتصِق بيدي وتتمزَّق؛ فكنتُ أُعيد جمْعها من جديد وأحاول ترقيقَها مرةً تلو الأخرى، بينما ارتفعت فطيرةَ أمي بسلاسة وسهولة وانسابت أسفل صينية الخبز بمرونة ونعومة كالحرير، في قوام مثالي غاية المثالية.

سألتُ أمي والطحين يُدغدغ أنفي وينهمر مثل الثلج من فوق حافة الطاولة حيث وقفت حاملةً مرقاق العجين الكبير: «كيف عرفتِ يا أمي؟ كيف اكتشفتِ هِبَتك الخارقة؟ متى عرفتِ أنك مثالية لأول مرة؟»

نظرت أمي إلى الفوضى التي أحدثتُها على الطاولة وضحكت؛ كان صوتها مثل أجراس كنيسة هيبرون ذات صباح مشرق. ظننت في البداية أن أمي تضحك على كتلة العجين المتعبة والجريحة في يدي، ثم تذكَّرت أنها لن تَفعل مِثل هذا الشيء أبدًا. سحبت أمي أحدَ مقاعد المطبخ بالقرب مني وجلست عليه، ووضعت مِرقاق العجين جانبًا، ثم احتضنت يديَّ المغبَّرتين والمغطاتَين بالطحين في يدَيها. وابتسمت إليَّ بعذوبة.

قالت: «لستُ مثالية يا ميبس. لا أحدَ خالٍ من العيوب. كلُّ ما في الأمر أنني بارعة في وضع الأمور في نصابها. قد يبدو ذلك مثاليًّا في بعض الأحيان. إلى جانب»، وواصلت كلامها بينما فترت ابتسامتها قليلًا وهي تعتصر يديَّ: «ستَندهشين عندما تعلمين أن كثيرين يَضيقُون ذرعًا بقضاء الوقت مع الأشخاص الذين يفعلون كلَّ شيء ببراعة طَوال الوقت. أن يكون المرء هكذا ليس أمرًا سهلًا.»

أومأت برأسي بينما أحاطتني أمي بذراعَيها. لم أَقدِر على تخيُّل شخص لا يرغب في تمضية الوقت مع أمي.

قالت أمي: «نحن، أفراد عائلة بومونت، نُشبه الآخرين بصفة عامة»، وتركت يديَّ وأضافت المزيدَ من الطحين إلى العجين الخاص بي، وتلت الكلمات التي سمِعتها مرات كثيرة من قبل. «فنحن نأتي إلى الحياة ونموت في وقت لاحق. وفيما بينهما نسعَد ونحزن، ونحبُّ ونخاف، ونأكل وننام ونتألم مثل الآخرين.»

فكَّرت في أمي وأنا أدور حول الكنيسة وأسير في الطريق المُترَب المختصر المليء بالحُفَر، وغشَّتني الراحة عندما خفتت الأصوات داخل رأسي وبدأت فرقةٌ من صراصير الليل الإحماءَ لعرضِها المسائي — ربما أيقظتها من نومها، هكذا حدَّثت نفسي. عبرتُ الطريق، وأنا أركُل الصخور، باتجاه منزل قديم آيل للسقوط، مُغطَّاة نوافذُه بالألواح، بدا كأنَّ شاحنة مليئة بالطلاء الأبيض ألقت بحُمولتها عليه، من أعلاه إلى أسفله، في وقتٍ ما بالماضي. مكث فيش في الحافلة بصُحبة سامسون؛ كان فيش لا يزال غاضبًا مُتذمرًا، والآن صار هادئًا نكِدًا كشقيقنا الصغير. كانت بوبي تقف خارج الحافلة، تلوك بفمها قطعةً جديدة من العلكة وتَلعن بخفوت؛ لذا تركناها وشأنها.

صعدت إلى شُرفة المنزل القديم بخطوات حذِرة، وفكرت أن هذا المكان كان يَنقُصه أرجوحة ليصير مثاليًّا في الزمان الماضي. ولأننا لم يكن لدينا أرجوحة في كنساسكا-نبرانساس، كان أبي يصحبنا إلى أكبرِ أرجوحةِ شُرفةٍ في العالم في منتزه هيبرون. كانت تلك الأرجوحة تستطيع حمل خمسة عشر شخصًا في المرة الواحدة. فكان أبي يَحمل

العائلة كلها في السيارة العائلية، ويدع شرارة روكيت تقودنا إلى هناك، أيام الآحاد في فترةِ ما بعد الظهيرة، كي نَجلس معًا على تلك الأرجوحة المجنونة الطويلة التي لا شرفة لها.

وكلما تذمَّرت من أن أرجوحة الشرفة لا بدَّ وأن تكون ملحقة بشرفة كان أبي يقول: «استخدمي خيالك يا ميبس فحسب. أغلقي عينَيك وتخيَّلي منزلًا فاخرًا يَليق بأرجوحة شرفة بهذا الحجم.» وكنت أمتثِل لما يقول، لكن المكان الوحيد الذي استطعت تخيُّله هو بيتنا.

قال أبي لي: «كلُّ بيت ريفي مُريح لا بد أن يحتوي على مكان يجلس فيه المرء ويتأمَّل ويُشاهد السُّحب وهي تمرُّ في السماء.» لذا أراد أبي أن يَبني لنا أرجوحة، واحتلَّ هذا الأمر تقريبًا قمةَ قائمة الأشياء المهمة التي يريد أن يفعلها. أعلم أنني لا بد أن أذهب إلى أبي في القريب العاجل. لا يمكنني المخاطرةُ بحدوث شيء له، مع عدم انتهاء تلك القائمة بعد؛ فهو لن يُريد أن يتخلى عن أحلامنا. سيُريد بناء تلك الأرجوحة حتى يمكننا الجلوس معًا فوقها.

انبعث صوت صرير وأنين من أرضية الشرفة. استدرتُ ووجدت ويل الابن يقف في الشرفة خلفي. لم يُحاول الاقترابَ مني كما فعل في المرة السابقة. كان يَضع يدَيه في جيبَيه ويَنظر إليَّ نظرة فتًى لم يرَ فتاة من قبل.

سأل ويل: «ما الخطْب يا ميبس؟»

أجبتُ وأنا أتحاشى النظرَ إليه مباشرة: «ماذا تعني؟»

قال ويل جونيور وهو لا يزال يتفحَّصني بعينَيه: «أعني، ما رأيك أن تبدئي بالحديث عما جرى في الحافلة مع فيش وتلك الزوبعة؟»

مرَّرتُ يدي على درابزين الشرفة، وبشُرود مسَّدت الطلاء المتقشِّر الذي يغطي الخشب الرمادي القديم مثل الشظايا المزينة بالشرائط، ولا أزال أتحاشى النظر إلى عينَي ويل جونيور مباشرة.

قلت، وأنا أشعر بالزيف والكذب؛ إذ كنتُ أعلم ما يُريد سماعَه تحديدًا وأدرك أنني لا يُمكنني إخباره بما يُريده أبدًا: «لا أعلم ما الذي تتحدَّث عنه.» وعندما استجمعتُ شجاعتي للنظر إلى وجهه، لاحظت أن عينَي ويل لامعتان تَفيضان فضولًا، مثل طفل صغير يترقَّب ظهور موكب استعراضي.

قال ويل الابن: «دائمًا ما أحسست أن ثمة شيئًا مختلفًا بكِ، يا ميبس بومونت، وبأشقائك أيضًا.» هززتُ كتفي دون أن أوافق على كلامه، ولكن دون أن أقول أي شيء.

أضاف ويل بإحراج، وهو يَدنو مني قليلًا: «لا تُسيئي فهْمي؛ فقد أحببت هذا بكِ.»

وقفتُ في الشرفة وقد انعقد لساني من الدهشة والإحراج حتى صار الصمت مزعجًا غيرَ مريح. ووسط بحثي اليائس عن طريقةٍ لتغيير الموضوع، التفتُّ بالكامل ناحيةَ ويل الابن، وسألته بارتباك: «ما السبب في تسميتِك ويل الابن على أيِّ حال؟ فأبوك ليس اسمه ويل الأب. كما أن اسمه ليس حتى ويليام، بحق السماء.»

ابتسم ويل ابتسامة ماكرة. قال: «ربما لستِ الوحيدة التي لديك أسرار يا ميبس.»

نظرت إلى ذلك الفتى، من قمة رأسه إلى أخمص قدمِه، ولسببٍ مجهول لم أَستطِع منْع نفسي من الابتسام رغم اشتعال وجنتي حمرةً.

قلتُ في نهاية المطاف كأننا توصَّلنا إلى اتفاقٍ نوعًا ما: «أظن أنني أستطيع التعايشَ مع ذلك.» ستبقى أسرارنا على حالتها.

أخرج ويل الابن إحدى يدَيه من جيبه. كان يَحمل مجموعةَ أقلام عيد الميلاد السعيد المُغلَّفة. هذا بعد أن التقطها من أرضية الحافلة، وها هو ذا الآن يمدُّ يدَه إليَّ كي آخُذَها. كان ورق التغليف الزاهي مُمزقًا من الجانب وفي حالة مُزرية نوعًا ما.

قال: «لا يزال اليوم عيد ميلادك كما تعلمين.»

تناولتُ الهدية من ويل واتسعت ابتسامتي أكثر. لقد كان محقًّا. لا يزال اليوم عيد ميلادي ولم أفتح هديةً واحدةً مِن هَداياي. دسستُ أصبعًا في المَزْق الجانبي وانتزعت ورقَ التغليف كاشفة عن صندوقٍ رفيعٍ ذي مفاصل. دفعت زوبعة — كنت آمُل ألا يكون فيش له علاقة بها — بورق التغليف من يدي، فحلَّق في الهواء، وعبَر إلى الطرف المقابل من الطريق، بعيدًا عنَّا. فتحت العلبة ووجدت قلمَين فاخرَين أنيقين من الحبر الجاف، امتاز كلٌّ منهما بمسكة فضية لامعة وغطاء مُستدير. وضعت الصندوق فوق درابزين الشرفة وأخرجت قلمًا واحدًا.

قلت: «كنتُ سأُجرِّب كتابة شيء لو لم يَطِر الورق بعيدًا.» مدَّ ويل الابن ذراعه أمامه في إيماءة نبيلة، قبل أن يركعَ على الألواح المُتشظية المتشقِّقة عند قدمي، مثل رجل راشد يعرض الزواج على امرأته. قدَّم يده إليَّ، باسطًا راحة يده، كي أكتب عليها.

تناولتُ يده في ارتباك. تدفَّق الحبر الأزرق بسلاسة وسهولة على بشرة ويل الابن، وسرعان ما رسمت شمسًا باسمة. وفي اللحظة التالية، قفزت للخلف، وتعثرت في لوحٍ خشبي ناتئ، فسقطت على مؤخرتي؛ إذ رأيت الشمسَ الباسمة تَطرِف بعينَيها وتبلع ريقها كأنها استيقظت من نومها للتو.

بدتْ كأنها استيقظت من نومها للتو، والآن لديها ما تقوله.

الفصل الثاني عشر

قبل أن تتفوَّه الشمس الزرقاء بكلمة، نهضتُ من مكاني وهربت من ويل الابن والمنزل المتداعي. تجاوزتُ ليستر سوان الذي كان جالسًا وقدماه على العُشب الصناعي، وبوبي التي كانت تنفخ فقَّاعةً بعلكتها. وتسلَّقت الدَّرج، ومنه إلى الحافلة، وركضت متجاوزةً فيش الذي كان يجلس مُقرفصًا ومُتذمِّرًا في المقعد الأمامي. ولم أتوقَّف حتى حشرتُ نفسي تحت السرير النقَّال في مؤخرة الحافلة، وزاحمت سامسون، الذي أفسح مكانًا لي دون سؤال أو كلمة، كأنه كان يتوقَّع قدومي. أغلقت عيني بشدة وشرعت أهمهم.

باءت محاولتي بالفشل. فلا أزال أسمع الأصوات كلها. عندما صعد ليستر وبوبي إلى الحافلة للاطمئنان عليَّ، كان يمكنني سماع أصوات كارلين وروندا والملاك الصغير ذي الذيل العابث المستدق داخل رأسي. لكن انضمَّ إلى هذه الأصوات صوتٌ آخر جديد، وهو صوت الشمس الزرقاء الباسمة، وقد بدا كصوت جرس آتٍ من الأعماق أخذ في الارتفاع عندما صعد ويل الابن على متن الحافلة.

«سرٌّ في مقابل سرٍّ ... لدى ويل سرٌّ. أتُريدين معرفة سرِّه؟»

لم أَدرِ ماذا أفعل، فصحتُ: «اغسل يدك يا ويل الابن!» وإن كنت أعلم أن كلامي يبدو غبيًّا، حتى بالنسبة إليَّ، بينما تردَّد صوتي عبْر الحافلة الهادئة مشوِّشًا على ضجيج الأصوات الأخرى في رأسي. لم أرغَب في معرفة سرِّ ويل. فأنا لا أريد معرفة الأشياء التي لا يَنبغي لي أن أعرفها.

صاح ويل، وهو يشقُّ طريقه عبْر ممرِّ الحافلة: «ميبس؟ هل أنت بخير؟» وعلا صوت الشمس الزرقاء الصاخب كلما اقترب من مكاني أكثرَ فأكثر.

«لدى ويل سرٌّ ...»

صرخت في ويل: «لا تقترب مني!»

رآني فيش مُنزعجة، فلم يُحاول معرفةَ ما حدث، وطوَّق ويل الابن وأداره على عقبِه قبل أن يعالجه بلكمةٍ قوية سريعة في عينه مباشرة. تلقَّى ويل الضربةَ وتعثَّر للخلف في ممر الحافلة، وانضمَّت بوبي إلى الشجار فتسلَّقَت المقاعد وانقضَّت على فيش وخدشت وجنتَه بأظفارها.

تجاهل فيش بوبي، واندفع نحو ويل، وسأله: «ماذا فعلت بشقيقتي؟ ماذا فعلت بها؟»

«لدى ويل سرٌّ ... أتريدين معرفة السر؟»

«اغسل يدك ويل جونيور!» صرختُ في ويل مرة أخرى بصوتٍ عالٍ، كي يَتمكَّن مِن سَماعي فوق أصوات الشجار وصوت تهشم الزجاج. ازداد ضغط أخي، فطفقت النوافذ القريبة منه تتشقَّق مُصدِرة أزيزًا وأخذت شُروخها تتشعَّب وتزداد اتساعًا مثل شبكة عنكبوت، بينما ازدادت زوابع فيش وعواصفُه سرعة وقوة. صرخت بوبي وصاح ليستر عندما تحطَّمت النوافذ واحدة تلو الأخرى. قفز ليستر وتمايل، وانقبَضَ وجفل مع كل نافذة تَنفجِر، حتى أمسك بالصبيين من ياقتهما، وراح يَدفعهما ويَسحبهما ويجرهما خارج حافلته، وبوبي في أعقابهم.

«سرٌّ في مقابل سرٍّ ...» راحت الشمس المرسومة بالحبر الأزرق تُثرثر في رأسي لكن بخفوت الآن. اندفعت من تحت السرير النقَّال واسترقت النظر إلى الخارج من أقربِ نافذة مكسورة.

صحت، وأنا أُدرك أن ويل لن يَفهم كلامي: «أرجوك، يا ويل، اغسِل الحِبر الذي على يدك!» خارجَ الحافلة، هبَّت رياح فيش عبْر ساحة انتظار السيارات وبين الأشجار المحيطة بالكنيسة. وبدأت سحابة سوداء تتشكَّل فوق رءوسنا، وشرعت زخات المطر تنهمر بغزارة على الأرض. ولحسن حظنا أننا لم نكن على مقربةٍ من أي كُتَل مائية كبيرة، وإلا لنافست عاصفةُ بلدة بِي عاصفةَ عيد ميلاد فيش الأسوأ.

بينما يسحق فيش بقدميه قطعَ الزجاج المكسورة المُبعثَرة في ساحة انتظار السيارات، توقَّف فجأة عن مقاومة ليستر سوان، ونظَر إلى وجهي المُطل من النافذة. ونظر إليَّ، وأنا أصرخ وأسدُّ أذني بيديَّ وتَنهمِر دُموعي على وجنتي كما يَنهمِر الماء من صنوبر المطبخ؛ لقد فهِم ما حدث أخيرًا وأنصت إلى كلامي. أدار فيش ظهره إليَّ بحدة، كي يَنظر إلى ويل الابن،

كأنه توصَّل إلى نتيجةٍ لا يصل إليها عامةُ الناس بالمُعطيات الموجودة. سكنت العاصفة تدريجيًّا، وأمسك ويل من رُسغه، لينظر إلى الشمس المرسومة بالحبر الأزرق على راحة يده. ثم نظر نظرةً أخيرة إلى الرسمة البسيطة قبل أن ينقلَ بصره إلى وجهي المُثير للشفقة داخل النافذة المكسورة. أدرك فيش ما يجب عليه فِعله بعد أن فهِم أن انزعاجي له علاقةٌ مباشرة بالأشياء غيرِ المتوقَّعة التي تحدُث ببلوغ أفراد عائلة بومونت الثالثة عشرة.

ظلَّ فيش مُتشبثًا برُسغ ويل، وراح يجمع ريقَه في فمه لحظةً، قبل أن يَبصُق بصقةً ضخمة ثخينة كبيرة في يد ويل الابن مباشرة.

صاح ويل باشمئزاز: «ماذا دهاك يا رجل! هذا مُثير للاشمئزاز!» وحاول أن يُحرِّر يده، لكن ظل فيش محكِمًا قبضته عليها، وأخذ يَدهن البُصاق في أرجاء راحة يده كي يَدمُجه بالحبر، حتى لم يتبقَّ شيء سوى بُقعة غير واضحة كبيرة، تُشبه الكدمة السوداء الضاربة للزرقة التي بدأت تتشكَّل حول عينِ ويل بفعل لكمةِ فيش.

قال ويل بلهجة آمرة بينما يُوسِع فيش ضربًا بقبضتِه الطليقة: «دعني وشأني!»

ومع بصقة فيش، راح الصوت الجديد يُقرقر ويُغمغِم بكلماتٍ غير مفهومة في رأسي، قبل أن يتبدَّد ويَختفي تمامًا كما يختفي الماء في البالوعة، دون أن يكشفَ عن سرِّ ويل الابن، وخلَّف وراءه ثلاثة أصوات في رأسي فحسب.

بذل ليستر سوان غايةَ جهده لفضِّ اشتباك الصبيَين والتخلُّص من بوبي، بينما كان يتدحرج وينزلق فوق قطعِ الزجاج المكسورة. فور أن رأى فيش انبساطَ عضلات وجهي، وعودةَ كتفي إلى وضعهما الطبيعي، وأمارات الارتياح في عيني، تَراجع للوراء بعد أن تحرَّر من قبضة ليستر وابتعد عن لكمات ويل. ربما كان فيش لا يعلم السببَ الذي دفعه لإزالة رسمة الحبر مِن يد ويل الابن تحديدًا، لكنه كان واثقًا أن الأمر مُهمٌّ بالنسبة إليَّ؛ لذا شعرتُ بالامتنان نحوه. أن يَحظى المرء بأشقاءَ أكبرَ منه سنًّا لهو أمرٌ رائع في بعض الأحيان.

مسح ويل الابن يدَه المتَّسخة المبللة في سرواله في اشمئزاز وارتياب. كان قميصُه قد خرَج من سرواله تمامًا، وشعره انتشرَ وتبعثَرَ فوق عينه المسودَّة.

انتبهتُ إلى أنني لا أزال أقبِض على القلم الفضِّي الفاخر الأنيق الذي أهداني إياه ويل. شعرت بثِقله في يدي كأنه مصنوع من الرصاص. وضعت الغطاءَ على طرَف الكتابة ثم دسسته في جيبٍ عميق من جيوب تنُّورتي؛ فقد تركت الصندوقَ والقلم الآخر في المنزل المتداعي. كنتُ أشعر بالإنهاك والتعب، ولا أظنُّ أنني أحببت أن أصبح مُراهقة لهذه الدرجة.

بعد أن استسلم آخر شعاع من أشعة الشمس لسيطرة اللون الأزرق الداكن المسائي، غُصت على أرضية الحافلة وتجنَّبت التفكير أو الاستماع إلى أي شيء مرة أخرى.

تمتمت كارلين خلف مُقلتي: «ما الذي أقحم ليستر نفسَه فيه هذه المرة؟»

أجابت روندا باستياء: «المشاكل المعتادة بالطبع. المشاكل المعتادة.»

الفصل الثالث عشر

انهمك ليستر سوان في إعادة الآخرين إلى الحافلة، وخصَّص لكل واحد منهم مقعدًا بعيدًا قدرَ الإمكان عن الآخر وأخذ يتفحَّص الدمار الذي لحِق بالنوافذ في أسًى، أما أنا فحاولت عقْدَ صفقة مع الله. أقسمت أنني سأتناول الفاصوليا الخضراء دون تذمُّر، وسأصير فتاةً مطيعة، ولن أحصل إلا على نصف الكَعكة المحلاة بمسحوق السُّكر بعد مدرسة يوم الأحد. هذا لو توقَّفت عن سماع الأصوات عندما يكون أحدٌ في الجوار ذو وشم على بشَرته، خاصة تلك الأصوات التي تُصرُّ على مشاركة أسرار أصحابها ومشاعرهم التي يرغبون في إخفائها عن الآخرين.

لم أبكِ منذ وقوع حادثة أبي، لكن بعد أن انفجرت باكية، في الحافلة الوردية الكبيرة، لم أستطِع التوقُّف. شعرتُ أنني محطَّمة يائسة. ماذا لو ذهبت كلُّ هذه الجهود هدرًا؟ ماذا لو كانت حالة أبي قد تحسَّنت بالفعل والآن يجلس في فراشه يَضحك ويتجاذَب أطراف الحديث مع أمي وروكيت؟ أو ماذا لو كانت حالة أبي قد ساءت؛ ماذا لو كان ...

بكيت بحُرقة وحاولت طرْدَ أسوأ مخاوفي من عقلي. زحف سامسون من أسفل السرير النقَّال مع كيس البطاطس المقلية الفارغ تقريبًا، وأغلفة وجبات «سِلم جِمز». وجلس على الأرض بجواري وقدَّم لي فُتات البطاطس المُملَّحة، دون أن يَنبِس ببنت شفة، ووضَع يده على ذراعي بلُطف.

ثمَّة شيء مجهول مُرتبط بسامسون الغامض الخجول يجعل المرء يَستجمِع نفسه بمجرَّد لمسة منه. كان هذا الشيء يحدُث من حين إلى آخر، وأعلم أن بعض الأشخاص يحظَون بهِبَاتهم الخارقة مُبكِّرًا عن العادة. فلدى خالي أوتري فتاتان توءمان، في سنِّ

الخامسة، كانتا تَستطيعان رفْع مُهرَيهما البلاستيكيِّين بضع بوصات عن الأرض أثناء اللعب، وتُحركانهما للأعلى والأسفل مثل خيول العجَلة الدوَّارة. لكن باستثناء بنات خالي، كان حدوث مثل هذا الأمر نادرًا. قد يكون الاستثناء في هذه الحالة لأن الفتاتين توءمان، وبدا أنهما تقتسمان الهِبَة الخارقة فيما بينهما.

ربما كانت لمسة سامسون الداعِمة سحرًا بشَريًّا عاديًّا، من ذلك النوع الذي يُولد عندما يَقلق شخصٌ على آخر بإخلاص وصدْق. وبصرف النظر عن السبب، مع وجود يدِ سامسون الصغيرة على ذراعي، سرعان ما بدأت الدموع تجف في عيني.

قالت روندا من فوق ذراع ليستر الأيسر: «ما الذي يُفكر فيه ذلك الغبي الأحمق؟ لا بدَّ من فحص رأسه. كيف يَصير لي ابنٌ مهزوز الشخصية لهذه الدرجة؟»

قالت كارلين من فوق ذراعه الأيمن: «كان من الأجدر به أن يتركَ أولئك الأطفال المشاغبين على قارعة الطريق، مثلما تخلَّصت من كلبِه الأجرب الذي أكل حذائي المفضَّل الأحمر. لكن الغبي يُضمِّد جراحهم ويُربِّت على رءوسهم.»

أدركت أنني لا أكترث كثيرًا بأمِّ ليستر روندا، وتيقنت أنني لا أكترث البتَّة بكارلين. لكن لا بد أن ليستر لديه مَشاعرُ قوية تجاه المرأتين وإلا ما رأى حاجةً لوشم اسميهما على جسمه مباشرة. بالنسبة إليَّ، أرى أن هاتين المرأتين عبءٌ عندما يحملهما المرء في الأنحاء. وقفت على ركبتي، واسترَقت النظر من فوق المقاعد والصناديق، أُضيِّق عيني عبْر الضوء الخافت، لأراقب ليستر، وهو ينقِّب تحت مَقعد السائق، قبل أن يَنهض، ونظرات الانتصار على وجهه وهو يَحمل صندوقًا معدنيًّا قديمًا صدئًا عليه صليب الإسعافات الأولية الأحمر. ناول ليستر الصندوقَ لبوبي التي نظرت إليه كأنه أعطاها فأرًا ميتًا.

سألت بوبي: «ماذا تُريد مني أن أفعل بهذا الصندوق؟»

تلعثم ليستر وهو يُشير إلى صندوق الإسعافات الأولية. وقال: «ما رأيكِ بعلاج جروح الـ… الصبيَّين ليتسنى لي تـ… تغطيةُ بعض هذه النوافذ ومتابعة رحلتنا؟»

قالت بوبي بتذمُّر وسخرية انعكست على حركة شفتيها: «لن أعالجَ أحدًا. ماذا تظنُّني؟ مُمرِّضة؟»

ابتسم ليستر ابتسامةً فاترة، وإن انتفضَت كتفاه حتى كادتا تَبلُغان أذنيه هذه المرة، وأجاب: «لا، لكنكِ تَبدين أكبرهم سنًّا.» وعقد ذراعَيه ثم أرخاهما، لا يدري ماذا يفعل كي تستجيبَ لكلامه.

قالت بوبي وهي تُعيد صندوق الإسعافات الأولية إلى ليستر: «هذا خطأ ميبس. فلتعالجهما هي.»

جفَل ليستر. وانتفض. ثم تناوَل الصندوق من بوبي، وقلَّب بصره في أرجاء الحافلة، حتى التقت عيناه بعيني بينما كنتُ أَختلِس النظر مِن وراء المقعد الأخير. ورغم عتَمَة الليل إلا أنني يُمكنني تمييزُ نظرة رجل غريق عندما أراها. لم أتحمَّل الاستماع إلى ضحكات كارلين وروندا واستهزائهما بليستر لغرقِه في خضمٍّ أمواج أسلوب بوبي. ربما كانت هذه فرصتي لأُري الله كيف يُمكن أن أصبح فتاةً صالحة، وأنني أستحقُّ إعادةَ النظر في شأني، فربما كان يَنبغي لي أن أحصل على ما هو أفضل مما حصلت عليه حتى الآن في أهم أيام حياتي.

بدا ليستر مُمتنًّا للغاية عندما نهضَت من مكاني، ومشيت إلى مقدمة الحافلة، وتناولت صندوق الإسعافات الأولية بتنهيدة صغيرة وابتسامة مُعتذرة مُرتبكة. فقد كانت بوبي محقَّة عندما قالت إن هذا الموقف العصيب هو خطئي. فلولا عيد ميلادي، والقرارات التي اتخذتها بسبب عيد ميلادي، لربما اختلفَت الأوضاع. وبدأت أكتشف أن من الصعب على المرء، في بعض الأحيان، أن يَتنبأ بعاقبة اختياره أو يتحكَّم فيها، شأنها في ذلك شأن أي هِبَة خارقة جديدة.

فتحت صندوق الإسعافات الأولية، وحاول ليستر عبثًا تغطيةَ النوافذ المكسورة؛ فقد تهشَّمت ثلاثة ألواح زجاجية تمامًا، أما الرابع فيَنتظِر السقوط من إطاره مع أول رجَّة في الطريق. بدا ليستر على وشْك البُكاء، فتوقَّف في نهاية المطاف عن محاولةِ حشْر الورق المقوى في الثقوب الفارغة، وشغَّل المُحرِّك، الذي فشل بضوضائه في خفض الأصوات التي كانت لا تزال تدوي في رأسي.

قالت روندا: «ليستر هذا ...»

قالت كارلين: «الرجل الغبي ...»

قال ملاك بوبي في ضجر: «هي ليست متأكِّدة هل تحبُّكِ أم تظنُّ أنكِ غريبة الأطوار.»

قلت: «لست غريبةَ الأطوار يا بوبي»، وأنا أخرِج الشاش والمناديل المضادة للجراثيم التي جفَّ منها سائلها فأضحت عديمةَ الفائدة من صندوق الإسعافات الأولية بعناد.

أدارت بوبي عنقَها لتنظر إليَّ وقالت: «ماذا؟ ماذا قلتِ للتو؟»

بلعتُ ريقي بصعوبة ولم أقُل شيئًا، وأدركتُ أنني تحدَّثتُ بصوتٍ عالٍ، عندما كان من المفترض أن أُبقيَ فمي مغلقًا بإحكام. أخرجتُ كِمَادة بارِدة مُغبرة من صندوق الإسعافات

الأولية، وكانت من ذلك النوع الذي يتطلَّب ثنيه كي يسريَ مَفعولُه وركَّزت على ما أفعله. شعرت بعينَي بوبي تُراقبانني وتُحاولان تشريحي كأنني ضفدعة فارغة الأحشاء ممدَّدة على طاولة التشريح. ثنيت الكِمَادة، مُحدثةً صوتًا، وشعرت ببرودة تَنتشِر ببُطء عبْر الكِمَادة البلاستيكية الصغيرة. استدرتُ، وتحرَّكتُ للخلف مسافةَ ثلاثة صفوف؛ حيث جلس ويل الابن بعينه المسودَّة.

تدفَّق نسيم الربيع المسائي عبْر نوافذ الحافلة المكسورة؛ إذ انعطف ليستر بحدةٍ وبسرعة شديدة جعلت الحافلة تتمايل وتصِرُّ — وهو يُعيدنا إلى الطريق السريع — ودفعتُ بالصناديق والمجلات والكتب المقدَّسة إلى الانزلاق. تعثَّرت وسقطت على المقعد المجاور لويل، وناولته الكِمَادة الباردة لعينه المتورمة بقوةٍ أكبرَ مما نويت، حتى إنني كدتُ ألكمه بها في أنفه.

قلتُ وأنا أحاول العودةَ بسرعة إلى ممر الحافلة التي تَقفز وترتجُّ: «أنا آسفة.» لكن ويل الابن أمسك بيدي وسحبني لأجلس في المقعد المُجاور له. وضع الكِمَادة الباردة على عينه بحذرٍ فارتسم الألم على ملامحه. وظل ممسكًا بيدي، ونظر إليَّ مباشرةً بعينه السليمة.

قال: «لستُ غاضبًا يا ميبس.» هل قصد أنه ليس غاضبًا من الطريقة التي دفعتُ بها الكِمَادة الباردة بالقرب من أنفه أم أنه ليس غاضبًا بشأن البقية وبشأنِ ما حدث في مدينة بِي، لا أدري. لكنني كنت آمُل أنه يقصد الأمر الثاني.

قلتُ: «لستُ غريبةَ الأطوار.»

فقال: «لم أقُل إنكِ كذلك.»

أجبت: «بلى، لكن ربما كنتَ تُفكِّر في ذلك.»

توقَّف ويل، وسقطت الكِمَادة البلاستيكية في حجره، ونظر نظرةً سريعة إلى شقيقتِه، ثم تفحصُني بعينَيه كأنه يُحاول سَبر أعماقي وصولًا إلى حمضي النووي.

سأل: «هل كانت بوبي تفكِّر في ذلك؟»

قلتُ وأنا أحاول تجاهلَ سؤال ويل والنهوض من مكاني: «يجب أن أنظفَ تلك الخدوش التي أحدثتها بوبي في فيش.»

سأل ويل: «هل كانت بوبي تفكِّر في ذلك؟ هل كانت تُفكِّر أنكِ غريبة الأطوار؟»

قلتُ: «ربما.»

سأل ويل: «كيف عرفتِ ذلك يا ميبس؟»

اكتفيتُ بهز كتفي.

عاد ويل يسأل: «كيف عرفتِ بالأمر؟ أخبريني، يا ميبس، ماذا حدث عندما رسمتِ تلك الصورة على يدي؟ لماذا فقدتِ صوابك؟ كيف تسبَّب فيش في أن تعصف الرياح على هذا النحو؟ أعلم أنه المسئول عنها، بلا شك.» ودنا مني. وأضاف: «أريد أن أعرف ...»

وعادت تلك النظرة المتلهِّفة إلى وجه ويل مرة أخرى. كان يتحرَّق لمعرفة سرِّي.

قال: «أخبريني يا ميبس. أخبريني ما الذي يُميِّز أفراد عائلة بومونت عن غيرهم؟»

الفصل الرابع عشر

ما الذي يُميِّز أفراد عائلتي عن غيرهم؟ كلُّ ما أعرفه أن هذا التميُّز يسري في عروقنا. هذا ما شرحه لي جَدِّي بعد وفاة جَدَّتي دالاب، منذ سنوات كثيرة، وقبل انتقالنا إلى كنساسكا-نبرانساس. كان قد أخذني للتجوُّل على الشاطئ، وأمسك يدي بيده البارزة العظام، وأخبرني أن هِبَات عائلتنا الخارقة ورِثناها عن أسلافنا.

حكى جَدِّي قصصًا عن أسلافنا وأقاربنا الذين تجمعنا بهم صلةُ رحم قريبة وبعيدة. ولأن «بومونت» هو لقبُ عائلة أبي، تضمَّنت حكايات جَدِّي أسماءَ عائلات مثل ياجر أو مندلسون أو باين أو دانزينجر أو أوكونيل أو بيتشام. قصَّ جَدِّي قصصًا عن أبناء الأخوال والخالات وأبناء الإخوة وبناتهم، مَن استخدم منهم هِبَاته الخارقة في أعمال الخير والبِر، ومَن سلك مَسلكًا مختلفًا مثل شقيقة جَدَّتي الصغرى جوبلي التي تميَّزت بقُدرتها على فتْح أي قفل واستغلتها في الاستيلاء على مُمتلكات الآخرين.

قال جَدِّي: «ليست الهِبَة الخارقة علَّة أو مرضًا يا ميبس. وليست سحرًا أو شعوذة. بل تَسري في عروقك. وتَنتقِل إليك بالوراثة مثل عينَيك العسليتَين أو أصابع أقدام جَدَّتك الطويلة أو موهبتها في الرقص على موسيقى البولكا.» لقد أحبَّت جَدَّتي إيقاعات موسيقى البولكا، وعبَّأت منها أوعيةً كثيرة قبل وفاتها؛ ولا تزال أمي تَمتلِك بعضًا منها بين الأوعية القابعة على سطح خِزانات مطبخنا في كنساسكا-نبرانساس. وهذه الإيقاعات تحديدًا تحبُّ جيبسي الرقص عليها مع أصدقائها الخياليين.

لكنَّ الحديث عن جَدَّتي دالاب دفع جَدِّي إلى التوقُّف عن السرد ذلك اليوم على الشاطئ. فلا تزال ذكرياتُه عنها قاسية وحارقة من لوعة الفراق. ولو لم أتَّخذ حِذري في التعامل مع مشاعره حينها، لدمدمتِ الأرض، وانبعجتِ الأرصفة، وتزحزحتْ تماثيل حدائق الجيران

إلى أفنية الحدائق المجاورة. تظاهَرتُ أنني لم أرَ دموع جَدِّي على خدَّيه أثناء سيرنا على الشاطئ. لكنني احتضنت يده بيدي بحرارة وشددت عليها حتى عُدنا إلى البيت.

قالت أمي ذات مرَّة إن كثيرًا من الأشخاص العاديين لديهم هِبَات خارقة لكن الغالبية لا تَنتبِه لوجودها ببساطة. قالت: «يُدرك البعض اختلافهم عن الآخرين يا ميبس. لكن الغالبية لا تستطيع تحديدَ سببِ هذا الاختلاف. فهناك شخصٌ يَصنع مُربى الفَراولة بمهارةٍ تجعل الآخرين لا يشبعون منها من فرطِ حلاوتها. وآخرُ قد يعلم الوقت المناسب لزراعة الذرة حتى تصبح كثيرة العصارة حلوةَ المذاق مثل السُّكر في أشد أيام الصيف قيظًا. ضحِكت أمي، حينها، وحِرت هل كانت تخبرني بالحقيقة أم إنها تخدعني. ثم أضافت: «هناك أشخاص لا يتلطَّخون بالوحل بعد العواصف الممطرة أو يتعرَّضون للقرص من الناموس أثناء الصيف على الإطلاق.»

شببتُ عن الطَّوق وعلمتُ أن الهِبَة الخارقة ليست سوى نوع مختلف من الخبرات. فبعض الأشخاص يُطلَق عليهم عباقرة أو أفذاذ لأنَّهم يَبرعُون في حلِّ الألغاز أو عزف الموسيقى على نحوٍ أفضلَ ممَّا يَستطيع أيُّ شخص، أو يستطيعون سردَ قيمة العدد المُتسامي ط، ٣,١٤١٥٩٢٦٥٣ ... من الذاكرة إلى ما لا نهاية لعدَّة ساعات دون توقُّف. وهناك مَن يُمكنهم العدْوُ بسرعة والفوز بالميداليات، وآخرون يَستطيعون إقناعَ أي شخص بشراء أي شيء. هذه الهِبَات هي خبرات مِن نوع خاصٍّ لا أكثر.

حسنًا، نحن، أفرادَ عائلة بومونت وأسلافنا، لا نَختلف عن الآخرين اختلافًا كبيرًا. ما يُشكِّل الفارق هو أننا نُعطي تسميةً لمواهبنا، وتكهُّنات تقريبية للوقت الذي ستَظهر فيه تَرِكَتنا وخبراتنا، وكان علينا أن نتعلَّم كيفية تخفيف وقْعِها؛ أي كيفية استخدامها أو السيطرة عليها.

لذا عندما سألني ويل الابن سؤالًا مُباشرًا وصريحًا، كرصاصة من مسدَّس هوائي، عن ماذا يميز عائلتي لهذه الدرجة، أخبرته بما اعتاد أقاربي أن يقولوه للآخرين، لعدة أجيال، عندما يتعرَّضون لأسئلة لا مفرَّ من إجابتها.

أجبت بكلمات مُتلعثِمة خالية من الروح، مِن ذاكرتي، كأنَّني أُردِّد قَسَم الولاء: «نحن، أفرادَ عائلة بومونت، لا نختلفُ عن الآخرين يا ويل. فنحن نأتي إلى الحياة ونمُوت في وقتٍ لاحق. وفيما بينهما نسعد ونحزَن، ونُحبُّ ونخاف، ونأكُل وننام، ونتألَّم مثل الآخرين.»

سأل ويل حتى لا يدَعني أتهرَّب من سؤاله المباشر بسهولة: «ثم ماذا؟»

أجبت: «ثم ماذا … لا شيء. كلُّ ما في الأمر أن لدينا خبراتٍ تَختلِف في مَذاقها عن الأغلبية.»

سأل ويل وهو يَدنو مني أكثر: «ما هي «خبرتكِ» إذن يا ميبس؟»

أجاب فيش: «حسنًا، من الأفضل أن تكون لديها خبرة في إحضار بعض الضِّمَادات بسُرعة لإسعافي.» كان فيش يقف فوق رأسَينا، مُتشبِّثًا بظهور المقاعد القابعة أمامنا، كي يُحافظَ على توازنه ووقوفه مُنتصبًا على متن الحافلة التي تتمايَل وتَقفِز على الطريق. كان يَنظر إليَّ، كعاصفة وشيكة الحدوث، بعينَين تَنقل مقصده. كان يقول لي: لا تُخبريه بأيِّ شيء. لا تتفوَّهي بكلمة واحدة!

نظرتُ إلى فيش بحدة. وجدتني عالقةً بين الفتيَين، وبين مخاوفي من أن أشارك أو لا أشارك أسراري، فهززتُ كتفي بلا اكتراث. وفي نهاية المطاف، استدرتُ إلى ويل، وقلتُ: «ليس لديَّ ما أقوله لك أكثرَ مما قلت.»

تنص قوانين عائلتنا على التزام الصمت. ويجب ألا نَكشفَ أسرارنا لأحد إلا عند الاضطرار أو في حالة الزواج؛ أي عند إنشاء عائلة جديدة. وفي الحالة الثانية يُستحسن أن نخبرَ مَن سنشاركه حياتَنا أن أطفالنا قد يُطوِّرون هِبَة السير عبْر الجدران أو عزف بيانو الجيران في الطرف المقابل من الشارع دون لمسه.

كان أبي يَعمل بالبحرية، ويتمركز في بلدة جولف بورت، بمدينة مسيسيبي، عندما التقى بأمي في أحد مهرجانات عيد العمال بالشارع بالقُرب من الشاطئ. لم تكن أمي تَخطَّت السابعة عشرة من عمرها بعدُ، وكانت تزور الساحل برُفقة شقيقتها الكبرى، دينا. لم تكن خالتنا دينا مثالية كأمي. لكنَّها كانت تملِك هِبَةً تجعل الآخرين يفعلون ما تقوله أيًّا كان بطريقةٍ ما. فبكلمة واحدة منها يتوقَّف الأطفال الرُّضَّع عن البكاء. وبالطبع يُحسِن الفتيانُ المُراهقون التصرُّف ويُعانقون أمهاتهم. بل قد تَدفع أكثرَ العَجائز ثِقلًا وكآبة إلى أن يرقصَ رقصةَ الجيج متى شاءت. وقالت لنا أمي، ذات مرة، إن خالتي دينا أحبطت مُحاولةَ سرقة أحد البنوك بعدما أمرت السارقَ بالجلوس وعدم التحرُّك حتى تحضُرَ الشرطة. أحبَبنا خالتي دينا جميعًا، لكنَّنا بلا شك شعرنا بالامتنان أنها ليسَت أمنا.

في يوم المهرجان ذاك، كان أبي لا يعلم شيئًا عن أصحابِ الهِبَات الخارقة، مثل أمي ودينا. وقد كان هو ورفاقه في البحرية يُمضُون عطلتهم في التبختُر ببدلاتهم الرسمية ومغازلة الفتيات. لكنه فورَ أن وقعت عيناه على أمي، وقع في غرامها؛ كان أبي يستطيع تمييزَ الفتاة المثالية بمُجرَّد رؤيتها.

التقيا عند لعبةِ رمي الأطواق. لم تَرغب أمي في اللعب وأصرَّت أنه ليس عدلًا المشاركةُ في هذه اللعبة؛ إذ كانت تعرف أنها تستطيع قذفَ الطَّوق على وتدٍ متحرك متمايل بصورة مثالية، في كل مرة، كما أنه ليس صائبًا التباهي بموهبتِها الخارقة بهذه الصورة الواضحة أو على الملأ. لكن خالتي دينا ألَحَّت على أمي باللعب، وهي تَضحك، وانتهى الأمر بأن وافقت بالطبع. وسرعان ما تجمهر الناس حول أمي، يُشاهدُونها وهي تفوز مرةً تلو الأخرى، وكان أبي ورفاقه من بينهم.

وبعد مُشاهدة أمي تفوز بخمس عشرة رمية مُتتالية، شقَّ أبي طريقه وسط الحشد وانسلَّ ليقف بجوارها.

همَس أبي في أُذنها بابتهاج وهو يَفرُك ذقنه بظهر يده: «سأقول لك شيئًا، إن فزتَ في الرمية التالية، فسأشتري خاتمًا وأتزوَّجك.» ارتسمت على وجه أمي ابتسامةٌ خبيثة ذات مغزًى والتقطَت طوقًا آخر، واختارت هدفًا بحذرٍ ودقَّة. ثم صوَّبت على وتدٍ بعيد، وأدارت الطوقَ بشكلٍ احترافي. ساد الصمتُ الحشدَ، وراح الطوق المعدني الرفيع يُحلِّق ناحية الصفوف البعيدة من الأوتاد المُهتزَّة المُتحرِّكة، ثمَّ أخطأ الهدف، وارتطم بالأوتاد في جلبة، وسقط على الأرض. وهكذا أخطأت أمي الهدف على نحو مثالي.

رفعت أمي حاجبها، وهزَّت كتفَيها بلا مُبالاة، رافعةً راحتَي يديها للأعلى وكأنها تقول له إنها ليست آسفة على ذلك. وأمرَت دينا أبي بالابتعاد، مُستغلةً هِبَتها الخارقة، لكنه ابتسم فحسب. لم يكن أبي مِن النَّوع الذي يستسلِم بسهولة ولو كان خَصمه هو خالتي دينا. في الحقيقة، إذا عزم أبي على أمر، فإنه لا يتركه أبدًا، وقد أخبر أمي ذلك حينها.

عندما طلب أبي مباركة جَدِّي بومبا وجَدَّتي دالاب على الزواج بأمي، علِم أن بعض الأشخاص قد يخالف ظاهرهم حقيقتهم. وفي ذلك اليوم مدَّ جَدِّي لأمي وأبي ستة فدادين من الأرض لبناء منزل فوقها، ونقل جميع جيرانهم الجدد شرقًا وغربًا، كما عبأت جَدَّتي أغنيةً رومانسية في وعاء، حتى يستمعا إليها متى شاءا. واحتفظ أبي وأمي بهذا الوعاء على رف المدفأة، يفتحان غطاءه من حين لآخر، حتى تملأ الأغنية الأبدية المنزلَ.

كلما استمعت إلى هذه الأغنية، اهتزَّت روحي طربًا، وتمنيت وأنا جالسة في تلك الحافلة لو أنها معي. أما فيش وويل فكانا يَتبادلان النظرات النارية، كأنهما يلعبان كرةَ القدم، وخشيت أن يتقاتلا مرةً أخرى على الفور. كنت على وشْك أن أخبرَ فيش بالعودة إلى مقعده، عندما ضغط ليستر على دوَّاسة المكبح فجأة. قفزَتْ حافلة الكتب المقدَّسة الوردية الكبيرة واهتزت، مثل حوت أُمسك به من ذيله، فترنَّح فيش وسقط على ظهره على الأرض

وسط سيل من الكتب المقدَّسة والصناديق. دوَّى صوت بوق غاضب، بينما تجاوزت سيارة حافلتنا التي توقفت بغتةً وسط الطريق السريع الريفي المظلم.

أشعل ليستر الأضواء الحمراء، وضغط على المقبض الذي يَبسط إشارة التوقف الحمراء، ما أدى إلى توقف السيارات القليلة المُسافرة عبْر الطريق السريع الموحش. ثم فتح الباب الذي يُصدر صريرًا، ووقف دون أن ينبِس ببنت شفة أو يَنظر إلينا نظرة واحدة، ودسَّ قميصه في بدلته، وغادر الحافلة.

الفصل الخامس عشر

نهض فيش بنفسه من فوق الأرض، وراقَبْنا جميعًا ليستر ينزل من الحافلة، مُتسائلين عن السبب الذي دفعه لإيقافها بغتة. تسلَّلتُ وفيش وبوبي وويل إلى مقاعد الطرَف المقابل من الممر كي نتطلع خارج النوافذ المشروخة أو المكسورة لنرى ما الذي يُخطِّط له ليستر. ولوهلة ظننت أنه تجاوز سرعة ٥٥ ميلًا في الساعة فتعطَّلت الحافلة، لكنني عندما رأيته يتحدَّث إلى سيدة طويلة واقفة بجوارِ سيارةٍ رُفع غطاءُ مُحرِّكها وأُشعلت أضواء الإنذار بها، أدركت أنه قد توقف لتقديم المساعدة فحسب.

كانت المرأة تَرتدي سترةً طويلة، في طول المعطف، مُغلَقة بحزام وتتجاوز حافة زي النادلات العتيق الطراز ذي اللونين الأخضر والأبيض الذي تَرتديه تحتها. واتَّسمت المرأة بكِبَر حجمها وبكتفَيها العريضتَين، مقارنةً بليستر ذي الصدر النحيف والكتفين المتهدلتَين، فبَدَوَا مُثيرَين للضحك أثناء وقوفهما معًا هناك. تحرَّك ليستر حول سيارة المرأة، وأجرى بعض الإصلاحات تحت غطاء المحرِّك المفتوح، لفترة زمنية وجيزة. ومن حين لآخر تقترب سيارة من الحافلة رغم إشارة التوقُّف المشرعة والأضواء الحمراء المشتعلة. لكن في نهاية المطاف، اعتدل ليستر واقفًا، وهزَّ رأسه، وأشار إلى الوراء.

تأمَّلت المرأة حافلةَ شركة «هارت لاند» لتوريد الكتب المقدَّسة. وعندما رأت وجوهنا تُطلُّ من النوافذ المكسورة، ابتسمت مثل فتاة صغيرة في جسد امرأة كبيرة، ولوَّحت بيديها إلينا. نظر ليستر إلينا أيضًا، وانفرج وجهُه عن ابتسامة عريضة مُفاجئة مضحكة تفصح عن أنه، رغم الشجار والعِراك والدمار الذي لحِقَ بحافلته، كلما زاد العدد زاد المرح. وتخيلت لو كان له ذيل لاهتز طربًا من فرحته. لكنه بدلًا من ذلك لفَّ إبهامَيه حول حمَّالتَي بدلة العمل، وأخذ يَتمايل بجسده للأمام والخلف.

ركلت المرأة سيارتها البالية المُعطَّلة ركلةً قوية مُرضية، ثم تركت ليستر يقودُها عبْر درجات الحافلة الوردية الكبيرة الثلاث، ويُقدِّمها إلينا كأنه تزوَّج للتو.

قال: «أُحب أن أعرِّفكم إلى الآنسة لِيل كايتلي وسـ... ستركب معنا إلى مدينة إميرالد.»

نقلنا بصرنا من ليستر إلى لِيل إلى أحدنا الآخر دون أن نَنبِس ببنت شفة. أما فيش فهزَّ رأسه وتجهَّم. كنتُ أعلم ما الذي يدور في خَلَده؛ لأنني كنتُ أفكِّر في الشيء نفسه: ها هو ذا شخص بالغ آخر يتدخَّل في شئوننا ويُؤخِّر وصولنا إلى أبي. فترَت ابتسامة ليستر، وقفزَت كتفُه اليمنى حتى حاذَت أذنه تقريبًا، وهو يستوعب عدم فرحتنا برؤية لِيل. بلع ريقَه وشدَّ ربطة عنقه الوردية المُلتوية المُرتخية. ساد الصمت الحافلة. حسنًا، كاد يسود.

قالت روندا بازدراء من فوق ذراع ليستر: «عجبًا! شخص ضالٌّ آخر ...»

ردَّت كارلين من فوق الذراع الأخرى: «إن ليستر لا يجد بأسًا في استضافة ضبع مسعور حتى بعد أن يعضَّه.»

زمجرت روندا: «أنتِ الأدرى بذلك بالطبع.»

قالت كارلين بنبرة قاسية للغاية: «يا لكِ من عجوز شمطاء يا روندا.»

ردَّت روندا غاضبة: «حسنًا، لتتعرَّفي على أحدهم، لا بدَّ أن تكوني مثله، على ما أعتقد.»

قالت لِيل وهي تُلوِّح إلينا مرة أخرى: «مرحبًا، هل أنتم جميعًا أبناءُ ليستر؟»

زمجرت بوبي وعادَت إلى مقعدها الأساسي في سخطٍ غير مُكترث. وقالت «لا بد أنكِ تمزحين. أفضِّل أن يكون والداي ذئبَين على أن يكون ليستر هو أبي.»

أجاب ليستر غيرَ منتبه لما قالته بوبي تقريبًا: «لا، هؤلاء الأطفال ...»

قاطعتُه قبل أن يقولَ إننا أطفال مُتهربون: «نحن أصدقاء قديمون لليستر. أعني أنه صديق عائلتنا. وهو يُوصلنا إلى مكانٍ ما بحافلته، أليس كذلك يا ليستر؟»

ابتسم ليستر ابتسامةً فاترةً، وفرك جانبَي رأسه في آنٍ واحد، على أملِ أن يحفز ذلك عقله ويساعده على مواكبةِ ما يحدُث؛ إذ أخذتْه مقاطعتي السريعة على حينِ غِرة. نقلت لِيل بصرها من ليستر إليَّ، ويمكنني القول إنها لاحظت ارتباكَ ليستر. لكنها لم تَقُل شيئًا؛ لذا ابتسمت فحسب.

أطلقت سيارةٌ أخرى نفيرَها، تُريد المرور؛ إذ كانت الحافلة لا تزال واقفة وسط الطريق السريع، مُشعلةً أضواء الإنذار بها وباسطة إشارةَ التوقُّف. زادت الضوضاء

والإزعاج الجديدان من ارتباك عقل ليستر وخجلت من نفسي لتضليل عامل التوصيل بهذه السهولة.

تبدَّدت ابتسامتي وأشرتُ بإصبعي لِي ولفيش. وقلتُ لِليل والقلق يعتصر مَعِدتي: «أبونا في المشفى في سالَينا.» نظرت إليَّ لِيل، التي كانت أذكى من ليستر كثيرًا بلا شك، نظرةً فاحصة. فتابعت كلامي وأنا أحاول ألا أتحاشى النظرَ في عينَيها مباشرة: «لقد حضر السيد سوان حفل عيد ميلادي اليوم. كان الحفل قد عُقد في كنيستنا بهيبرون.» ونطقتُ الكلمات الأخيرة ببطء كي أشجِّع ليستر على الكلام، لكنني لم أكن واثقةً من أنه فهِم رسالتي.

قاطعتني بوبي بنبرةٍ شبه مُبتهجة: «أجل، كان ليستر العجوز الصالح يتحدَّث إلى أبي — قس كنيسة هيبرون — إذ كان يُسلِّمه بعض الكتب المقدسة، و...»

أشار ويل بإصبعه إلى نفسه وإلى بوبي، وقال مُحاولًا تقديم المساعدة أيضًا، لكنه سارَ في خطانا الاحتيالية بلا تحمُّس كشقيقتِه: «وعندما عرف أبونا ... حسنًا، عندما عرف أن صديقنا العزيز ليستر سيعود إلى سالَينا ...»

أنهى فيش الجملة بنَبرة قاطعة مباشرة كي يضع حدًّا للحديث فيما يبدو: «قال إن ليستر ينبغي أن يصحبنا معه.»

نظرت لِيل إلينا بارتياب. وفهمتُ مِن نظرتها أنها لم تُصدِّقنا تمامًا. أما ليستر فقد تنفَّس الصُّعداء كأن الأمر صار منطقيًّا له فجأة، مفسرًا سببَ وجودنا على متن حافلته، وإن لم يتذكَّر تفاصيلَ الواقعة على هذا النحو.

بذل ليستر جهده لتقديمنا إلى لِيل بصفتِه صديقَ عائلتنا وما شابه. لكن لسوء الحظ، أساء التمثيل، ونادى فيش بـ «تروتة»، وويل الابن بـ «بِل الابن»، وأنا بـ «ميدج». ونطق اسم بوبي بطريقة صحيحة، لكنه نسيَ أمرَ سامسون، أو ربما لم يتذكر أنه منعزل تحت السرير النقَّال.

ردَّت لِيل ببطء في ارتياب: «يُسعدني التعرُّف عليكم جميعًا.» جلسَت جانبيًّا في مقعدها، تحاذي بساقيها المقعدَ الأمامي القريب من ليستر، وقد تركت حذاءها الرياضي الأبيض الكبير يتدلَّى مِن طرف المقعد كالطفلة، وأسندت ظهرها إلى النافذة كي يتسنى لها مراقبتنا جميعًا.

وبينما كان ليستر يَسحب إشارة التوقُّف ويغلق أضواء الإنذار، اتجهت عينا لِيل إلى وجه فيش المُخربش ثم إلى عين ويل المسودة. وقالت، وهي تنظر إلى النوافذ المكسورة،

بضحكة متوترة صغيرة لا تَتناسب مع حجمها: «يبدو أنكم جميعًا بحاجة إلى الاغتسال والاعتناء بمظهركم. أأنتم واثقون أن هذه الحافلة ليست خاصة بالأطفال الأشقياء؟»

قالت بوبي: «لا، إنها خاصة بغريبي الأطوار.»

ابتسمت لِيل قائلة: «إذن فأنا الشخص المناسب للركوب معكم.»

الفصل السادس عشر

لا أعلم تحديدًا ما الذي جذَبني إلى لِيل كايتلي لكنَّني أحببتها على الفور. بل أحببناها جميعًا. حتى بوبي بدت كأنها تخلَّت عن غطرستها قليلًا؛ فقد ضبطتُها تضحك بضع مرات عندما كانت لِيل تثرثر وتمزح معنا.

كانت لِيل سيدة ضحوكة بلا وشوم على جسدها. وتعمل بالليل نادلةً في مطعم مَوقف شاحنات على الطريق الواصل بين الولايات بالقرب من إميرالد، وكانت في طريقها إلى عملها، عندما قرقرت سيارتها المؤسِفة المُنبعجة المُتصدِّعة الصدئة وغرغرت واختنقت بآخر قطرة من البنزين قبل أن تتعطَّل عن العمل. لذا جلست في سيارتها على جانب الطريق السريع ما يقرُب من عشرين دقيقة تُقلِّب في عقلها إبرازَ إبهامها، كي يُوصلها أحد مجانًا إلى مكان عملها الذي يبعد نحو خمسة وعشرين ميلًا عن موقعها الحالي، إلى أن رآها ليستر سوان وأوقف الحافلة. وبينما اهتزَّت الحافلة في الطريق السريع باتجاه الطريق الواصل بين الولايات، نهضت لِيل من مكانها لتُساعدني في تنظيف وجه فيش دون أن تسأل أبدًا عما حدث.

وجد ليستر صعوبة في إبعاد عينيه عن لِيل والتركيز في طريقه. ومن حين لآخر كانت سيارة تطلق بوقها طويلًا كأنها تصرخ به لانحرافه عن حارته ودخوله في حارتها بسبب التفاته إلى لِيل.

ومع وجود لِيل، بدا الأمر كأنَّ معنا أمًّا على متن الحافلة. فقد أولَت عنايتَها لكل واحد منَّا بالتناوب، ونظَّفت جروح فيش وضمَّدتها، وتفقَّدت عين ويل المتورِّمة.

قالت لي لِيل: «اسمحي لي بإصلاحها لكِ يا صغيرتي»، وشدَّت شرائطَ الزهرة الأُرجوانية لفستان المناسبات الخاصة بلطف، فحلَّتها ثم أعادت تثبيتَها على كتفي عاليًا. لقد تجعَّدت

الزهرة الحريرية وانحرفت عن مكانها الأصلي بعد شجار اليوم، وصار فستاني متَّسخًا ومكرمشًا.

تابعت لِيل وهي منهمكة بإعادة تنسيق الشرائط: «هذا الفستان الذي ترتدينه في غاية الفخامة.»

قلتُ وأنا أتذكَّر النظرةَ الراضية على وجه أبي وهو يُشاهدني أتمايل بالفستان في أرجاء غرفة المعيشة: «لقد انتقاه لي أبي بمُفرده.» وابتسمت عندما تدفَّقت هذه الذكرى إلى عقلي، ثم تبدَّدت ابتسامتي، حيث بدأت شفتاي ترتعشان.

حثَّت الحافلة السيرَ عبْر الظلام، وأثناء ذلك أخبرت لِيل مطولًا عن أبي: كيف اشترى فستاني ولم يفقد الأملَ إلى أن عثَر عليه؛ كيف قدَّمه لي في صندوقٍ أبيضَ كبير مُغلَق بشريط ذهبي مطاطي، ما أضفى لمسة خاصة جدًّا على الهدية. وآلَمني قلبي وأنا أُخبرها عن أكبر أرجوحة شرفة في العالم، وعن الحادثة التي وقعت في الطريق السريع والسيارات التي تكوَّم بعضُها فوق بعض مثل فطائر يوم الأحد. ثم حكيتُ لها عن أمي وروكيت، وأنهما بصُحبة أبي في مشفى «هوب» بسالَينا، في الوقت الحالي. أنصتَت لِيل إلى قصتي كلها دون أن تُقاطعني ولو مرة واحدة. لكن بدا من وجهها أنها تُصغي إلى كل كلمة أقولها، حيث تغيَّرت ملامحها من ابتسامة دافئة إلى ضحكة عالية وفي النهاية إلى قلق يتقطَّر شفقة وحنانًا.

ختمت كلامي مُوجِّهة حديثي إلى نفسي أكثر من لِيل: «أبي بحاجة إليَّ. إنه بحاجة إلى ذهابي إلى سالَينا. وهو هناك يرقد مثل الجميلة النائمة ينتظر أن أوقظه.»

تجاهَلتُ نظرةَ القلق التي ارتسمت على وجه لِيل بوضوح عندما تفوَّهتُ بهذه الكلمات. كنت أعلم أنها ترى أن الأمل قد ذهب بي بعيدًا حتى جعَلَني أُفكِّر أنني أستطيع مساعدة أبي. لكنها كانت مخطئة؛ لذا تجاهلت نظرتها. تجاهلتها مثلما تجاهلتُ كل الأصوات في رأسي، الأصوات التي يُفترض أن أسمعها وتلك التي لا يفترض أن أسمعها. سأحل أمرَ هذه الأصوات لاحقًا، بعد أن يعودَ أبي إلى البيت بكامل صحته وعافيته. لا وقت لديَّ للاستماع إليها الآن.

قالت لِيل برقة: «يبدو أنَّ أباك في غاية الحنان يا صغيرتي. وهذا الفستان في غاية الأناقة.» ملأني مديحها بالفخر في البداية. لكنني نظرت إلى النسيج الأصفر والشرائط المتعرِّجة البيضاء، ولم أستطِع منْع نفسي من الشعور بالخجل، عندما تذكَّرت ضحكات الفتيات الهازئة في الكنيسة.

هززت كتفي، وأنا أشعر بالإحباط من شعوري بالخجل، كأنني بشكلٍ ما خيَّبتُ أملَ أبي بالتشكيك في تفرُّد فستان المناسبات الخاصة، وأجبتُ: «أجل، أظن ذلك.» توقَّفت قليلًا، ثم اختلست النظر إلى بوبي، وسألت لِيل: «أتظنين أن هذا الفستان يجعلني أبدو كفتاة صغيرة؟»

نظرت لِيل إليَّ نظرة فضولية. وسألت بهدوء: «هل يجعُلكِ تشعرين أنكِ فتاة صغيرة؟»

قلتُ وأنا أحاول أن أشرحَ ما يجول بعقلي: «فقط عندما أكون بجوار بوبي. إنها في السادسة عشرة من عمرها.» كشف وجه لِيل عن ابتسامة عريضة ونظرت إلى بوبي أيضًا.

وقالت ضاحكة: «أتدرين؟ أنا أيضًا أشعر أنَّني فتاة صغيرة بجوار بوبي. لكن دعيني أُخبرك بسرٍّ يخصُّ سنَّ السادسة عشرة»، وواصلت كلامها وهي تَنحني لتهمسَ في أذني. وقالت: «تبدو سن السادسة عشرة أكبرَ وأكثر رعبًا من سنِّ الثانية والأربعين التي هي عمري. أعتقد أن بوبي حادَّة المِزاج فحسب؛ لذا لا تَعبئي بتصرفاتها. وفستانك مثالي تمامًا.»

أشعرني كلامها بالارتياح. حاولت تنعيم التجاعيد التي أصابت تنُّورة فستاني منذ أن ارتديته في كنساسكا-نبرانساس، وأنا في غاية الارتباك من شعوري بنظرات ويل التي تراقبني.

نقلت لِيل بصرها مني إلى ويل بدَهاء. وقالت وهي تبتسم وتَنكزني بمرفقها: «حسنًا، أليس فتاكِ هذا لعوبًا صغيرًا؟»

تلعثمتُ مُحتجَّةً وشعرتُ بوجنتيَّ تشتعلان خجلًا: «ماذا؟ إن ويل ليس ... إنه فقط ... فهو ليس ...»

واصلَت لِيل كلامها، وهي تَضحك ضحكة صغيرة وتُربِّت على ساقي على نحوٍ جعلني أشعر أننا صديقتان قديمتان للغاية، وقالت: «هذا الفتى لا يستطيع منْع نفسه من التحديق إلينا، وهو لا ينظر إليَّ بكل تأكيد. من الواضِح أنه مغرم بكِ. أترَين يا ميبس؟ لستِ فتاةً صغيرة. لديك بالفعل فتًى وسيم يتطلع إليكِ.»

لم أعلِّق على كلامها. فقد تذكَّرت كيف حملقت أشلي بينج إلى وِيل في كنيسة هيبرون. كما تذكَّرت أنني لم أحبَّ الطريقة التي نظرتْ بها إليه. وتخيَّلت صوت أشلي في رأسي وهي تقول: «لقد حظيت ميسي-بيسي بحبيب»، وإيما تُردِّد وراءها: «حبيب!»

قالت لِيل: «لا تَقلقي يا صغيرتي. ثقي بي؛ فبعد سنوات قليلة من اليوم، سيَصير ويل الابن أصغرَ همومك.» وأحاطَت كتفي بذراعها وألصقتني بها مثلما كانت ستفعل أمي لو

أنها هُنا. ولبُرهة فكَّرت أنها ربما كانت ملاكًا أُرسل لرعايتنا بينما نترجرَج على الطريق السريع في حافلة الكتب المقدَّسة الوردية الكبيرة، ملاكًا يختلف عن وشم بوبي ذي الذيل العابث أو الملاك الكثيف العطر ذي الابتسامة البلهاء المُتدلي من النافذة الأمامية لشاحنة السيدة روزماري الصغيرة. هي ملاك حقيقي. كما أنها ملاك ضخم القدمين.

الفصل السابع عشر

في وقتٍ لاحق، ظهر سامسون الغامض بجوار فيش دون أن يصدِر صوتًا، ونحن نقترب من أعتاب إيمرالد. كان يقبض بشدة على كيس رقائق البطاطس الفارغ. وتلألأت عينا لِيل بالأضواء الصفراء الوامضة للإشارات المرورية المُنبِّهة لعبور الطريق واتسعتا في دهشة، ثم نظرت إليَّ بتساؤل مشيرة إلى سامسون الذي جلس هامسًا لفيش.

سألت لِيل بخُفوت كأنها تتحدَّث عن مخلوق بري خجول قد خرج للتو من مخبئه: «ومَن هو ذاك المخلوق؟»

قلتُ مُفسِّرة: «إنه شقيقٌ آخرُ لي. واسمه سامسون. إنه في السابعة وهو لا يتحدَّث كثيرًا.»

قالت لِيل بعطف: «هل هو من النوع الصامت القوي؟ مرحبًا يا سامسون.» نظر سامسون إلى لِيل بهدوء ولا مبالاة، بنفس الطريقة التي تَنظر بها الحيوانات إلى المرء وهو يشاهدها في حديقة الحيوان. ثم صوَّب بصره إلى فيش مرةً أخرى، ونكزه في أضلاعه بمرفقه الرفيع، وطقطق بالكيس الفارغ.

وضَّح فيش: «يَشعُر أخي بالجوع يا سيدتي. فنحن لم نتناول سوى القليل من الطعام منذ وقت الغداء، ولا بد أنه قد مرَّ وقتُ العَشاء منذ وقت طويل.»

نظرت ليل إلى ساعة يدها، مُقرِّبة إيَّاها إلى وجهها، في ضوء الحافلة الخافت. ثم تنهَّدت تنهيدةً طويلة. وقالت: «أنت محق يا سيد فيش. لقد مرَّ وقتٌ طويل على العشاء، ووقتٌ أطول على موعد بدء ورديَّتي في المطعم. إذا كانت لديَّ مَوهبة — موهبة حقيقية — فستكون التأخُّر.» ونظرت إلينا جميعًا وابتسمت ابتسامةً مُتحسِّرة حزينة. وبدا أن ارتيابها بشأننا في البداية قد تبدَّد بعدما أخبرتها عن أبي والحادثة. وبينما كنتُ أتحدَّث، عاجزة عن

إخفاء موجات الخوف والأسف التي اضطربت داخلي، تجاوبت معي لِيل بإشفاق. وأظن أنه ليس هناك ما يستحوِذ على قلبِ سيدة رقيقة مثل فتاة مَفطورة القلب ذات قصة حزينة.

تابعت لِيل: «لكن دعوني أُخبركم بأمر. إذا وصلت إلى العمل، وكنت لا أزال مُحتفظة بوظيفتي، ولم يَطردني رئيسي على الفور لتأخُّري عن العمل كثيرًا ... مرة أخرى»، وتنهَّدت قبل أن تضيف: «سأتأكَّد من حصولكم جميعًا على وجبة عشاء فاخرة. بل سأضمن أن يحصل كل واحد منكم على شريحة فطير هديةً مني، قبل أن تنطلقوا في طريقكم من جديد.»

سأل سامسون: «ألديك كِريمة الموز؟»

استدار الجميع لينظروا إلى سامسون، مُندهِشين من سماعه يتحدَّث بصوتٍ أعلى من الهمس. كان صوته الإنشادي مبحوحًا من عدم الاستخدام والغبار الموجود تحت السرير النقَّال لكنه عذبٌ كعادته. حاولت أن أتذكَّر آخرَ مرة سمعتُه فيها يتحدَّث بصوتٍ عالٍ، ولا أدري هل كان ذلك منذ يوم؟ أم أسبوع؟ أم شهر؟ هكذا كان الحال مع أخي الكئيب. ابتسمتُ إلى سامسون؛ فلم أعلم من قبل محبَّته لفطيرة كِريمة الموز.

غمغمت بوبي: «يا إلهي، إنه يتحدَّث.» وبينما جلس سامسون بوجه جامد صارم، دوَّت قهقهة جذلة عبْر صفوف المقاعد، آلت إلى ضحك هستيري، تبدَّد بها توتُّر الصباح، كأمواج تتكسَّر على الشاطئ. لو أنني أستطيع نسيان السبب وراء وجودي على الحافلة لشعرت بالبهجة حينها. وشعرت للمرة الأولى أنني، رغم كل هذه الفوضى، لا أمانع تكوين صداقات جديدة، حتى مع بوبي.

اتَّبع ليستر تعليمات لِيل لدخول مدينة إيمرالد. قبعت استراحة ومطعم موقف شاحنات إيمرالد في الطرف الأقصى للمدينة، وأُضيئت لافتتها بنيون أخضرَ خافت. اخترق ضوء فلوريسنت أبيض ساطع ظلامَ الليل، وانسكب عبْر الباب الزجاجي، عند واجهة المطعم. كانت هناك درَّاجات نارية قوية وصلبة مُتوقِّفة بالقرب من الطريق. وامتلأ الموقف بشاحنات ومقطورات صغيرة متراصة جنبًا إلى جنب، مثل عربات القطار، في ساحةٍ خلف المبنى. اضطُرَّ ليستر إلى إيقاف حافلة الكتب المقدَّسة الوردية الكبيرة وراء تلك الشاحنات والمقطورات، في زقاق خلفي، يعجُّ بحاويات القُمامة الكريهة الرائحة، وأكوام من ألواح التحميل الخشبية المتشقِّقة، وصناديق الكرتون المتعفنة القديمة.

قال ليستر بنبرة مُعتذِرة، وهو يساعد لِيل على الهبوط من الحافلة، كأنها أميرة من الأميرات: «لـ... ليتني أنزلتكم عند واجهة المبنى.»

قالت لِيل وهي تجُول ببصرها في الزقاق الضعيف الإضاءة: «سيروا بالقرب منَّا يا صغار.» هبط بقيتنا من الحافلة، خلف ليستر ولِيل، وخطونا جميعًا فوق جرائد وأكياس بلاستيكية متسخة وممزَّقة، راحت تحفُّ وتُطقطق وسط نسيم المساء. لم أستطِع الجزم إن كان هذا النسيم من صنْع الطبيعة أم من صنْع فيش الذي كان قلقًا بشأن أبي؛ فقد كان وجهه غامضًا، ونحن نسير في الزقاق المهجور.

أمسكت لِيل بيد سامسون الذي سار بينها وبين ليستر دون تذمُّر كأنه يفعل هذا كلَّ يوم. واندهشتُ برؤية سامسون يعتاد على الغرباء بهذه السرعة الشديدة. وإن كنت أعلم، من جمود فكِّه وتخشُّب جسده، أنه يشعر بالخوف والحنين إلى أمي وأبي مثلي ومثل فيش، وأن لِيل وليستر ثاني أفضل اختيار بالنسبة إليه. سار فيش أمام الجميع، مثل فتًى كشَّافة، كي يَضمن سلامة الطريق؛ ومشَت بوبي خلفه بخطوات متثاقلة، وبقيتُ أنا وويل في المؤخرة.

آنذاك رأيت شيئًا أصابني بالهلع. توقفتُ في نهاية ساحة انتظار السيارات، خلف مطعم موقف شاحنات إيمرالد، حيث يقود الزقاق إلى الشارع. في مكانٍ ما، وراء حاوية مهملات كريهة الرائحة محاطة بتلال من أكياس القمامة المكتظَّة، برزت يدٌ متسخة من تحتِ ما بدا أنه كومة من الملابس القديمة. كانت اليد مقلوبة على ظهرها، والأصابع ممدودة، كأنها تطلب مني المساعدة.

أمسكت بذراع ويل، وجذبتُه نحوي، لا أجرؤ على التنفُّس تقريبًا. أما الآخرون فساروا إلى الأمام، غير منتبهين لليد المتسخة أو لتخلُّفي وويل عن الرَّكْب، كي نُحملق إلى اليدِ وصاحبها. تبادلت وويل نظراتٍ خائفة في الضوء الغريب المنبعث من المصباح الوحيد بالجوار.

أمعنَّا النظر، ورأينا جسدًا ممدودًا بلا حَراك، لرجل عجوز مشرَّد مُلتحٍ متَّسخٍ، تفوح منه رائحة الخمر واليأس. حاول ويل إبعادي. وأشار برأسه ناحية زجاجات خمر فارغة كثيرة مُبعثَرة على الأرض بجوار الرجل. وقال بنَبرة آسفة لكنها صارمة، كأنها صادرة عن رجل شرطة يُباشر تفريقَ حشد المتفرِّجين في موقع الحادثة: «ليس هناك ما يُمكننا فِعله من أجله يا ميبس. هيَّا، يا ميبس، لنذهب.» وسحبني من ذراعي بلطف مرةً أخرى، لكنني لم أتزحزح من مكاني.

قلت هامسة: «ماذا لو كان ميتًا؟» كان قلبي يَخفق بقوة. شاهدتُ الرجل المستلقي على الرصيف بلا حَراك، ولم أستطِع منْع نفسي عن التفكير بأبي، وهو يَرقد هامدًا بلا حَراك في سالَينا، وكاد قلبي يَنفجِر مِن شدَّة ضرباته.

قال ويل بتوتُّر؛ إذ كان لا يُريد البقاءَ أكثر، ويَرغب في الرحيل واللحاق بالآخرين: «ربما أفرط الرجل في شُرب الخمر وفقَدَ وعيه فحسب يا ميبس.» لكنَّني لم أستطِع سماعَه أو الشعور بلمسةِ يده على ذراعي تقريبًا. كلُّ ما رأيته هو ذلك الرجل البائس. وسيطر على تفكيري أنه قد يكون هناك ما يُمكنني مساعدته به. ربما يُمكنني إيقاظه. ربما أستطيع إيقاظه بالطريقة التي سأوقظ بها أبي عند وصولي إلى سالَينا. لم أعُد أسمع الأصوات السخيفة في رأسي؛ فقد آنَ أوان عمل هِبَتي الخارقة الحقيقية كما يجب. لا بد أن تعمل في الحال.

خطوتُ ناحيةَ كومة اللحم الهامدة التي كانت يومًا ما رجلًا يَسير ويتحدَّث ويرجو ويحلُم؛ رجلًا كان ابنًا أو صديقًا لشخصٍ ما ... أو ربما حتى أبًا.

همس ويل: «ميبس!» وحاول أن يسحبني للخلف، لكنني أبعدْته عني.

انحنيت على الرصيف لا أكاد أشعر بالحصى التي انغرست في ركبتي. وجلست على مسافة ذراع من الرجل الممدَّد على الأرض، ووضعت إصبعًا مُرتعشًا وَجِلًا على باطن رُسغ الرجل، كأنني أتحسَّس نبضه.

نقَّبت في أعماقي، أبحث عن ذلك الشيء أو تلك الشرارة أو العاصفة القوية الخاصة بي؛ كنت أبحث عن منبع هِبَتي الخارقة وحشدتُ كاملَ قوَّتي لإيقاظ الرجل الممدَّد على الأرض أمامي.

استيقِظ.

استيقِظ.

أرجوك. استيقِظ.

كرَّرت هذه الكلمات في عقلي، وهمستُ بها بخفوت، مثل ترنيمة. فكَّرتُ بهذه الفكرة بقوة مثلما لم أفعل من قبل. وصببتُ تركيزي على إيقاظ الرجل حتى بدأت عيناي تسيلان دمعًا وأسناني تتألم من طحن بعضها بعضًا.

ضغطتُ بإصبعي على الرُّسغ الهزيل البارد أكثرَ فأكثر. وأحسستُ بنبضاته تحت الجلد بطيئةً تكاد تكون مُتردِّدة. ولمدة دقيقة، لم يحدُث شيء. وفجأةً اندلع صوتٌ عالٍ خَشِن داخل رأسي دفعني إلى الخلف زاحفة على الرصيف.

«لا أريد أن أرى أيَّ شيء ... أو أشعر بأي شيء. اتركيني أموت ... لقد رأيت الكثير ... الكثير!»

كان الصوت داخل رأسي زاخرًا بتيارٍ معاكس يائس لا قرارَ له. وشعرتُ بألم الرجل المُغمى عليه وحسْرتِه خلفَ عينيَّ يهزَّان عقلي بعنفٍ مثل شظايا قنبلة.

لكن الرجل لم يستيقظ: «لقد رأيتُ الكثير! دعيني وشأني ...»

لم أستطِع إيقاظه.

حينها علمتُ، على الفور، وبلا أدنى شك، أنه ليس هناك ما يُمكنني فِعله على الإطلاق لمساعدة أبي.

شعرتُ كأن شخصًا ما لكَمَني في مَعِدتي، واقتلع عظامي كلَّها، مُحوِّلًا إياي إلى كتلة عديمة الفائدة ومثيرة للغثيان من الجيلي. تحرَّك الرجل المُحطَّم على الأرض، دون أن يستيقظ، وقلَب يدَه لتكشف عن وشمٍ باهت لعُقاب مُحلِّق، مرسوم على ظهرها، منذ سنوات كثيرة مضت. وبينما أنصتُّ إلى صراخ الصوت الحزين اليائس داخل رأسي، خفَق العُقاب وصاح ورفرف بجناحيه، كأنه جُنَّ جنونه، كأن جُلَّ ما يُريده الآن هو التحرُّر من معقله والفِرار.

أدركت في ذلك الوقت أن المصادفة، لا الهِبَة الخارقة، هي التي أيقظت جيبسي من نومها ذلك الصباح، وأن سُلحفاة سامسون الأليفة الميتة خدعتني واستيقظت من سباتها الطويل في ذلك اليوم المهم، دون أي اعتبار للهِبَات الخارقة أو الآمال أو إساءة الفهْم. لقد قامت الطبيعة بعملها ببساطة، وأنا مَن أخطأ قراءةَ ما حدث.

ولأول مرة، منذ أن كبِرت ووعيت معنى الهِبَة الخارقة، ومنذ ذاك اليوم الذي بدأتُ فيه أتخيل ماهية هِبَتي، تمنَّيت لو أنني مثلُ أبي ولم أحظَ بأيِّ هِبَة خارقة على الإطلاق. لا أريد هِبَة خارقة تُسبِّب لي الحزن. لا أرغب في هِبَة خارقة تبعث فيَّ الأمل ثم تتركني عديمة الحيلة.

الفصل الثامن عشر

قال ويل بهدوء: «هيَّا، يا ميبس. لنذهب. الجميع في انتظارنا»، بينما ساعدني في النهوض على قدميَّ وتنظيف يديَّ من الوسخ والحصى. ثم أبعَدني عن الرجل الفاقد الوعي. لكنه لم يكن على علمٍ بما سمعتُه. ولا بما رأيته. كان الأمر أسهلَ على نفسه؛ إذ لم يُضطرَّ إلى الاستماع لذلك الصوت مثلي. كانت ساقاي خائرتين، لا تَقدِران على حملي، فبدا من المستحيل أن أغادر المكان. لكن عندما أمسك ويل بمرفقي بخجل، تركته يقودُني ناحية الوميض الصادر عن استراحة ومطعم موقف شاحنات إيمرالد.

كان الآخرُون في انتظارنا أمام المطعم. أمسك ليستر بابَ المطعم، حتى ندلِف إلى الداخل. وجدنا المطعم يعجُّ بأشخاصٍ كثيرين، وفهمت بمرارة كيف كان روكيت مخطئًا، عندما قال إن الفتيات لا يحظَين إلا بالهِبَات الخارقة الراقية الهادئة. كان كلُّ ما حصلت عليه هو الضوضاء فحسب؛ عندما دخلت إلى ذلك المطعم، لم يكن «هادئًا» على الإطلاق، كما كانت الأصوات والأفكار المُدوِّية في أذني أبعدَ ما تكون عن الأدب.

كان السير إلى مَطعمٍ مليء براكبي الدرَّاجات النارية وسائقي الشاحنات ذوي الوشوم، يشبه تشغيلَ راديو صاخبٍ داخل رأسي؛ راديو ذي قرصٍ دوَّار يتنقَّل، بأزيزٍ وصوتٍ عالٍ، من محطة إلى أخرى بلا توقُّف. كنت لا أزال أشعر بالدُّوار من مواجهتي مع الرجل المشرد، فزاد الهجوم الجديد من أفكار أولئك الأغراب ومشاعرهم وأسئلتهم وأجوبتهم من شعوري بالغثيان وشعرت أنني سأتقيَّأ.

ضربتْني موجة من الدُّوار جعلت الغُرفة تتمايل، فتعثَّرت خطواتي، وبذلتُ محاولات غير مجدية لتغطية أذني والحفاظ على توازني. أمسكني فيش من جانب وويل من الجانب

الآخر، وراح أحدهما يَرمق الآخر بنظرات نارية بينما يحاولان الحفاظ على توازني وإبقائي واقفة على قدمي.

قال ليستر: «آه، يا إلهي ...» ودسَّ يدَيه في جيبَيه، وتراجع خطوة إلى الخلف، لا يدري كيف يتصرف مع الفتيات المغشيِّ عليهن.

سألت لِيل، وهي تستدير وتبادر لنجدتي: «هل أنتِ بخير يا عزيزتي؟» وقد فعلت هذا متجاهلةً امرأة تَرتدي زيًّا ذا لونين أبيض وأخضر يُشبه زيَّها تمامًا. كانت المرأة الأخرى حمراء الشعر متجهِّمة، تحاول دفْع أباريق القهوة والماء باتجاه لِيل، وهي تتذمَّر، كقطة مُبتلَّة، لتأخُّر لِيل عن العمل.

أجاب فيش لِيل في توتُّر واندفاع: «أظنُّ أن أختي مكثت في الحافلة وقتًا أطولَ من اللازم.» كان يحاول التستُّر عليَّ، والتستُّر على هِبَتي الخارقة، وإن كان لا يدري بعدُ ماهيةَ الشيء الذي يتستَّر عليه تحديدًا. شعرت بالامتنان نحو أخي، والخجل أيضًا. كنت أعلم أنني مضطرة إلى إخباره بكل شيء يتعلَّق بالأصوات، وكيف أنني أقحمتُ الجميعَ في هذه الفوضى الكبيرة بلا طائل.

قالت ليل: «حسنًا، ربما ينبغي أن تتمدَّد ميبس في الغرفة الخلفية لتَنال قسطًا من الراحة.» اجتازت ليل — بخطوات عريضة سريعة اضطُرَّ بقيتُنا إلى القفز لمواكبتها — مكان النادلة الحمراء الشَّعر المتذمِّرة الحادة الصوت، والمقصورات والطاولات المليئة بالزبائن وأفكارهم التي تُصِمُّ الآذان. وقادتنا أمام طاولة طويلة يجلس إليها الزبائن على مقاعدَ مُستديرة دوَّارة يتناولون حلقات البصل ويحتسُون القهوة، وعبرَت بنا «باب دخول الموظفين فحسب» المجاورَ للمطبخ.

وجدنا أنفسنا في غرفة تخزين ضيقة تفوح منها رائحة الكاتشب والمخلل والخردل. نزعت لِيل سُترتها وعلَّقتها على مِشجبٍ على الباب. امتدَّت على جوانب الغرفة أرففٌ عالية مكدَّسة بلفافات الخبز وأوعية المايونيز وصفائح ضخمة من البقوليات والطماطم، ذكرتني بقبو منزلنا، في المسيسيبي، وأوعية جَدَّتي دالاب الصاخبة. وفي المساحة الوحيدة الفارغة من أرفف المؤن كان ثمَّة خزانات ملفات، ومكتب غير مرتَّب، بالإضافة إلى أريكةٍ مهترئة. قبعت كومة من الجرائد على الأرض بجوار باب خلفي، كُتب عليه «باب الطوارئ»، وكانت هناك طاولة منخفضة أمام الأريكة مبعثر فوقها فُتات طعام وعلب صودا فارغة.

قبع تلفازٌ أبيض وأسود فوق إحدى خِزانات الملفَّات، وكان الهوائي مائلًا وزينتُه عُقد من ورق الألومنيوم المجعَّد. وقد شغَّل أحدهم التلفاز، وبثَّت صورته، الباهتة السيئة

الجودة، أخبارَ المساء. نقل مراسلٌ أخبارًا من مكانٍ ما بكِنساس، مُغطيًا حوادثَ انقطاع تيار كهربائي غريبة وتلف الشبكات الكهربائية في أماكنَ كثيرة من الطريق السريع ٨١، خاصة في كِنساس، ومرورًا بمدينة سالَينا. تبادلت وفيش نظراتٍ ذات مغزًى، واثقين تمام الثقة، أن روكيت له علاقة بهذا الأمر.

أمرت لِيل الفَتيَين، فيش وويل، أن يجعلاني أستريح على الأريكة، بينما خفضَت صوت التلفاز قليلًا، لكنني تجاهلت أوامرهم مثل ذباب مُزعج يطنُّ. فمجرد وجودي في الغرفة الخلفية حسَّن من حالتي. كان رأسي ينهشه الألم ومَعِدتي تُريد أن تقفز وترقص رقصة الجاز والتويست. كنت لا أزال أسمع جميع الأصوات، لكنها انخفضت مثل صوت التلفاز، لانزوائي في غرفة التخزين. جلست على حافة وسائد الأريكة المنسولة الخيوط، أُحدِّق إلى الأرضية، وأحاول ألا أسترِق السمعَ للأصوات، وأن أدَعَ الأصوات داخل رأسي وخارجه تمتزج مكوِّنة صرخة أبدية قاسية، تنتحب على تبدُّد آمالي المتعلِّقة بهِبَتي الخارقة وبأبي.

ووسط كل هذا الضجيج في رأسي سمعت فيش يُخبر الآخرين: «إنها تحتاج إلى بعض الخصوصية فحسب.»

قالت لِيل مُعتذِرة: «لا بد أن أذهب إلى العمل»، وعلَّقت يدها بذراع ليستر الذي كان واقفًا بجوارها. وأردفت: «ربما حالفني الحظ اليوم كما تعلمون. لم أرَ أوزي القوي العظيم عندما دخلنا إلى المطعم.» وبدَت مُسترخية، وضحكت ضحكتها الصغيرة، ثم خبطت ليستر بخاصرتها فكادت تطرحه أرضًا.

قالت: «أوزي هو المدير هنا، وكان سيُلقِّنني درسًا قاسيًا، إن أمسك بي وأنا أدخل المطعم في هذه الساعة. هلا مكثت مع أختك يا سيد فيش، وسأجعل الآخرين يُحضرون لكما الطعام هنا في لمح البصر.» أومأ فيش برأسه علامة الموافقة دون أن يُشيح ببصره عني. سحبت لِيل ليستر إلى داخل المطعم، وتبِعتهما بوبي وويل الابن الذي نظر إليَّ من وراء ظهره نظرة قلقة، تعرب عن عدم رغبته في تركي. نظرت حولي أبحث عن سامسون.

أنشأت أسأل: «أين ...؟»

أجاب فيش وهو يهز كتفيه بلا مبالاة: «الله أعلم. أنت تَعرفين سامسون. سيظهر.» ثمَّ نحَّى علب الصودا جانبًا وأزال بعض فُتات الطعام قبل أن يجلس على المائدة المنخفضة أمامي مباشرة، في تململ، عاقدًا ذراعيه أمام صدره. ثم قال: «أخبريني.»

كان فيش يريد معرفةَ روايتي الكاملة عن هِبَتي الخارقة. كان يريد التفاصيل. ويريد معرفتها في الحال.

حملقت إلى الصور المشوَّشة على شاشة التلفاز في الغرفة، لأنني كنت أريد أن أتحاشى النظر إلى وجه أخي المتجهِّم؛ كان هناك الكثير من التشويش، وبدا الأمر كمُحاولة مشاهدة التلفاز عبْر فقاعات مشروب غازي؛ كما كان الصوت مُنخفضًا جدًّا وعسيرًا على السمع. انتهَت تغطيةُ خبر انقطاع الكهرباء، وأدار مُذيع الربط الجالس خلف مكتب الأخبار مقعده إلى زاوية جديدة أكثرَ درامية، وبدَت على وجهِه أمارات الجدية. بدأ رقم هاتف يسير، على نحوٍ غير مُنتظِم، أسفل الشاشة، بينما حرَّك مُذيع الربط شفتَيه بصوت مكتوم.

حرتُ فيما أقوله لفيش. كنتُ واثقة غاية الثِّقة في هِبَتي الخارقة. ولولا ثقتي في قدرتي على إعادة أبي إلى البيت في كنساسكا–نبرانساس ما كُنا نَجلس الآن في غرفة التخزين في استراحة ومطعم موقف شاحنات إيمرالد. لكن كان واضحًا شفافًا، شفافية أواني أمي الكريستال الممنوع لمسُها وإلا فستَنال ما تستحقُّه، أنَّ هِبَتي الخارقة لها خططٌ أخرى، وكنتُ في غاية الأسف، مليئة بالتعاسة والرهبة، من مجرد التفكير في إخبار أخي بكل شيء.

قلتُ في نهاية المطاف: «إنه الوشم يا فيش»، وأنا لا أزال أفضِّل التركيزَ على التشويش الأبيض والأسود للتقرير الإخباري عن النظر في عيني أخي مباشرة.

سأل فيش: «عن أي وشم تتحدَّثين يا ميبس؟»

أجبتُ: «أي وشم، حسبما أعتقد، ما دام على بشَرة شخصٍ ما.» ضيَّق فيش عينيه وقال: «تابعي الحديث.»

حرتُ في كيفية شرح الأمر له. فلم أرغب في التنقيب في عقلي عن الكلمات الصحيحة كي أضعها في الجُمل الصحيحة مثل قِطَع لعبة تركيب الصور. كانت هذه العملية صعبةً للغاية. وتملَّكني شعور بالتعب والجوع. والآن، بعدما علمت أنه ليس بيدي ما أفعله لمُساعَدة أبي، أردت العودة إلى البيت فحسب. أردت العودةَ إلى جَدِّي بومبا وجيبسي. رغِبت في العودة إلى الوحل الذي خلَّفته أمطار فيش. أردتُ الخضوع للتعليم المنزلي، وتعلُّمَ كيفية زراعة الطحالب في أوعية المخلل، وكيفيةَ السيطرة على هِبَتي الخارقة حتى تَعلمَ قدْرَها الحقيقي.

قال فيش بلهجة آمِرة: «أخبريني يا ميبس.» انتزعت عيني عن التلفاز الصغير، حيث كان مذيعٌ يجري مقابلة مع رجلٍ وامرأة يشبهان، عبْر التشويش الأبيض الناجم عن الإرسال الضعيف، القسَّ ميكس والسيدة روزماري. التقت عيناي بعيني فيش وتنهَّدت مرة أخرى.

أخرجت من جيب تنُّورتي القلم الفضِّي الذي أهداني إياه ويل الابن في عيد ميلادي قائلة: «ربما ينبغي لي أن أريك كيف يجري الأمر. ابسط يدَك وفكِّر في أي رقم. لكن اجعل الرقم صعبًا.»

قطَّب فيش حاجبَيه في حذَر. قال: «ما الذي ستَفعلينه يا ميبس؟»

أجبت بنفاد صبر: «هذا ليس إعصارًا يا فيش. وهو ليس ديناميتًا. ثِق بي.» دفع فيش يده نحوي بتحفُّظ، وزمَّ شفتيه بشدة، حتى صارتا خطًّا مستقيمًا مشدودًا. أدركت أنني أثرتُ غضبه؛ فقد طار شعري بعيدًا عن وجهي، وحفَّت الجرائد القابعة عند الباب، ورفرفت. وضعت حافةَ القلم على راحة يد فيش ثم توقَّفت.

سألته بحدَّة: «هل فكَّرت في رقم؟ فأنا لا أريد سماع أي شيء غير رقم.» كان آخر شيء أريده هو أن أسمع ما يجري داخل رأس أخي. انتابتني قشعريرة. يا للقرف.

ضيَّق فيش عينيه مرة أخرى، ثم أومأ بخشونة وجدية وعبوس. وقال: «فكَّرت في رقم.»

قلتُ: «فكِّر في هذا الرقم مرارًا وتكرارًا»، وضغطت على القلم كي أرسمَ بسرعة دائرة صغيرة يقطعها عينان وفم، عبارة عن وجهٍ مبتسم ابتسامةً لا هي عريضة ولا هي فاترة. تموَّج الفم في عبوس وطرَفت العينان مرتين.

قالت الرسمة: «ألفان، ومئتان، واثنان وعشرون ونصف. ألفان، ومئتان، واثنان وعشرون ونصف، ألفان، ومئتان ...»

بصقتُ بسرعة على يد فيش، ومسحت الوجه، قبل أن تحظى أفكارُه بفرصة التجول إلى مكان آخر. لم يتحرَّك فيش، وجلس ينظر إليَّ كأنني قارئة حظٍّ محتالة مَعتوهة، تجلس في مهرجان المقاطعة وتقرأ كفَّه وتخبره بعدد الأطفال البكائين الصارخين الذين سيَحظى بهم عندما يبلغ سنَّ الرشد.

كرَّرت الرقم: «ألفان، ومئتان، واثنان وعشرون ونصف. أليس كذلك؟»

نكَّس فيش رأسه دون أن يُعرب عن مشاعره، وبدا جادًّا لكنه هادئ. سأل: «أيُمكنك سماع أفكاري؟»

أجبت: «أفكارك أو مشاعرك حسبما أظن.»

علا صوتٌ رخيم فوق الصراخ الرتيب والهمهمة داخل رأسي: «أيُمكنكِ قراءة العقول؟»

كانت بوبي تقف داخل غرفة التخزين، على وشْك إسقاط السلال البلاستيكية التي تفيض بشرائح الهامبرجر والبطاطس المقلية، من بين ذراعيها المُمتلئتَين عن آخرهما.

سألت: «أنتِ تقرئين العقول، أليس كذلك؟»

الفصل التاسع عشر

نظرت بوبي إليَّ وفيش. لقد رأت وسمعت كلَّ شيء.

قالت وهي تَضع سلال الهامبرجر على المكتب وتَتراجع بضع خطوات ناحية الباب: «كنتُ أعرف. كنتُ أعرف. كنتُ أعرف أن ثمَّة شيئًا ما بعقلك. لن يصدِّق ويل ذلك أبدًا.» وغادرت غرفة التخزين قبل أن أتمكَّن أنا أو فيش من النطق بكلمة واحدة.

وثَب فيش من مقعده على الطاولة المنخفضة. وقال: «لا بد أن أوقفَها!»

قلتُ، وأنا أقفز من فوق الأريكة لأمسك بذراع أخي كي أمنعه من القيام بأي عمل غبي: «ليس هناك ما يُمكنك فِعله يا فيش.» لكن لم يكن هناك داعٍ لذلك. فقد تجمَّد فيش في مكانه فجأةً وحملق إلى التلفاز الصغير القابع فوق خزانة الملفات.

نظرت إلى ما كان ينظر إليه وشهِقتُ. هناك، عبْر الشاشة البيضاء والسوداء المشوَّشة، كانت صورنا — أنا، وبوبي، وويل، وفيش، وسامسون — تُعرض على الشاشة بسرعة مع كلمات «تنبيه!» «مفقودون!» «تنبيه!» في شريط الرسائل أسفل الشاشة ورقم «٨٠٠» للاتصال في حالة العثور علينا.

شاهدنا صورَنا تُعرض على الشاشة وتهتزُّ، عبْر إرسال التلفاز الصغير السيئ الجودة، ثم انتقلت النشرة الإخبارية إلى مراسلٍ آخر يُجري حوارًا مع القس وزوجته أمام الكنيسة. بدت السيدة روزماري حزينة قلقة؛ أما القس ميكس فكان متحفظًا مُتوترًا ثائرًا.

كزَّ فيش على أسنانه، وتشنَّجت عضلاته. وتمتَمَ دون أن يُشيح ببصرِه عن التلفاز: «لدينا مشكلاتٌ أكبر يا ميبس.»

نقلت بصري من التلفاز إلى الباب المؤدِّي إلى منطقة الطعام، وبلعت ريقي بصعوبة، أحاول تصوُّر ماذا يمكن أن يُصيبنا بعدُ في هذا اليوم. فقد استحالت الأوضاع من سيئ إلى أسوأ، وراودني شعور بأنَّ وضعنا لن يتحسن في المستقبل القريب.

فورَ أن مدَّ فيش يده لإغلاق التلفاز، انفتح باب الطوارئ الخلفي على مصراعَيه بصريرٍ عالٍ — نتَج عن احتكاك المعادن بعضها ببعض — أثارَ الرعب في قلوبنا، فقفزنا للخلف. ووجدنا رجلًا عريض الصدر، يَرتدي كنزة رياضية ذات قلنسوة وسروالًا قصيرًا ضيقًا أخضر اللون، يَنظر إلينا بتجهُّم عند مدخل الغرفة. وكان يَلبَس سلسلةً ذهبية حول عنقِه وخاتمًا من الذهب الخام في كل يد.

لا بدَّ أن هذا أوزي، مدير استراحة ومطعم موقف شاحنات إيمرالد. أخرج الرجل عود أسنان من بين شفتَيه، وألقى به وراء ظهره، تجاه ساحة انتظار السيارات. ثم دلف إلى الغرفة، وانقضَّ عليَّ وفيش، مثل ثور هائج.

سأل الرجل بفمٍ يفوح منه مزيج قوي من الوعيد وأجنحة الدجاج المقلية: «ماذا تفعلون هنا يا أطفال؟ ألا تستطيعون القراءة؟ هذه المنطقة مخصَّصة للموظفين فحسب. هيَّا! اغربوا عن وجهي!» ثم تقدَّم نحونا مُلوِّحًا بيديه مثل عملاق مفتول العضلات يُروِّع الدجاج. وقال: «اعثرا على والدَيكما، أو اذهبا والعبا بصندوق الموسيقى أو ما شابه.»

صحتُ بصوتٍ رفيع وهو يَدفعنا إلى الخلف تجاه الباب المؤدِّي إلى منطقة تناول الطعام: «نحن هُنا مع لِيل. لقد قالت إننا يُمكننا البقاء هُنا.» لكن هذا لم يمنع أوزي من دفعنا إلى الأمام. بل زاد من سوء الوضع في الحقيقة.

قال بنَبرة خشنة استعراضية مثل جرسٍ طنَّان في برامج المسابقات: «طاااااااان! إجابة خاطئة! لِيل على رأس قائمتي في الوقت الراهن. في الحقيقة، إنها على وشْك الطرد من عملها.» ثم دفعني وفيش خارج غرفة التخزين.

وجدت نفسي وسط هذه الأصوات الصاخبة الفوضوية، فحاولت أن أحمي نفسي من الارتباك، وأن أعثر على طريقة يمكنني بها تخفيف وقْع هذه الأفكار المدوية التي هي ملك للآخرين وحدَهم، لكن كان هذا أمرًا صعبًا يتطلَّب سنوات — سنوات طويلة مرعبة من هذه الهِبَة الخارقة الغبية — وليست لدي أدنى فكرة عن كيفية تحقيق ذلك.

وقفت عند حافة الغُرفة قدْر استطاعتي، أحوم حول أقرب جدار للمطبخ، بجوار طاولة الطعام الطويلة. كنتُ أسمع صوت صُحون ترتطم بأختها في المطبخ، وصوت اصطدام الفضيات بالأسطح، وطقطقة الهامبرجر المَقلي وأزيزه. لكن طفَتِ الأصوات الصاخبة في رأسي فوق هذه الأصوات العادية مثل سفن حربية مُتقاتلة في محيط مضطرب.

لم أستطِع تحديد هل كانت الغرفة هي التي تدور أم أنا، ومرَّ المشهد التالي أمامي بسرعة مثل لقطات سريعة لمزيجٍ فوضوي مدوٍّ من أفكار الآخرين ومشاعرهم.

دخل أوزي غرفة الطعام، ولِيل تقف خلف الطاولة الطويلة وثلاث فطائر متراصَّة أمامها، وكانت تأخُذ الفطيرة الأولى وتضعها في كريمة الموز بسكِّين الفطائر المثلث الشكل. وجلس ليستر بالقرب منها على مقعدٍ مُستدير، يتناول شطيرة ثخينة من الهامبرجر، بينما ينسكب الخردل على ربطة عنقه المائلة.

سمعت فيش يَهمِس في أذني: «بوبي واقفة مع ويل الابن عند صندوق الموسيقى.» نظرت إلى زاوية الغرفة، ورأيت بوبي تتحدَّث إلى ويل وتُشير باتجاهنا.

قال فيش بتشاؤم: «لا بد أنها تُخبره بكل شيء.» لاحظت أن ويل يَنقل نظراته بين شقيقتِه وبيني، لكن في تلك اللحظة كان رأسي يُؤلمني بشدة فلم أعبأ بردَّة فِعله. آنذاك، بدأ أوزي يَصيح من جديد.

مشى أوزي إلى لِيل، والتقط فطيرة كريمة الموز، وانتزع السكِّين من يدها.

ثم قال وهو يُلوِّح في الهواء بسكِّين الفطائرِ المغطَّى بالكريمة المخفوقة، مُشيرًا بجنون، وهو يضرب ليستر على رأسه بشريحةٍ شاردة من الموز: «لقد انتهى أمرُك يا ليل. لقد اختبرت صبري بما فيه الكفاية. لو كنتِ تحضرين إلى عملك في الموعد المناسب، لكنتِ نادلة جيدة، لكن طفح الكيل. هذه هي المرة الأخيرة التي تأتين فيها إلى هُنا مُتأخِّرًا، والمرة الأخيرة التي تقطعين فيها الفطائر في مطعم موقف شاحنات إيمرالد.»

أنشأت لِيل تعترض: «لكن، يا أوزي ...»

صرخ أوزي، بسرواله الضيق، مُستمتعًا بنغمة صوته بلا شك، والاهتمام الذي ناله من النادلة الحمراء الشعر: «أريدكِ أن تُغادري المكان حالًا يا لِيل كايتلي.» آنذاك، توقَّف كلُّ مَن في المطعم عن الكلام والتفت لمراقبة المشهد المُتطوِّر بين أوزي ولِيل. كما انتهت الأغنية في صندوق الموسيقى كأنه هو الآخر يُنصت إلى ما يحدث. أسقط ليستر الهامبرجر من يده، ومسح كريمة الموز من شَعره الخفيف ببطء. دنا ويل وبوبي من الطاولة الطويلة، لكنَّهما توقَّفا مكانهما عندما رأيا أوزي يُلوِّح بالسكِّين في الهواء. كان انتباه الجميع مُنصبًّا ومركزًا على أوزي القوي العظيم حتى الأصوات في رأسي هدأت في حضرته.

وضع أوزي السكِّين في حوضٍ أسفل الطاولة الطويلة، وهو لا يَزال ممسكًا بالفطيرة، كأنه لا يثق بلِيل بما يكفي ليضعَها بجوارها. وبينما أشاهده، رأيت سامسون يجلس بلا حَراك وبهدوء تحت الطاولة، في الفراغ المكشوف عند حوض الصحون، قاتمًا وغامضًا للغاية، حتى إن أوزي لم يَنتبه لوجوده.

حاولت لِيل أن تتحدَّث مرةً أخرى: «أوزي، دعني فقط ...»

أحدث أوزي ضوضاءَ برامج المسابقات المزعِجة نفسها مقاطعًا لِيل: «طاااااان! لقد خسرتِ يا لِيل!»

استدار أوزي، مُمسكًا الفطيرة بيده اليسرى؛ وبيده اليُمنى فتح صندوق المدفوعات. ثم أخرج رِزمة من الأوراق المالية، وتمادَى في استعراضه بأن ألقاها إلى لِيل، التي بدَت من كل النواحي أنها على وشْك إطلاق فيضان من الدموع لو أنها فقدت السيطرة على نفسها وسمحت للسد بأن ينهار.

قال أوزي والأوراق النقدية تسقُط على الأرض عند قدمَي لِيل الكبيرتين: «خُذي هذه. يمكنك الحصول على التعويض المناسب؛ هذا المبلغ يُفترض أن يغطي راتبك الأخير.»

رأيتُ كيف ابتسمت النادلة الحمراء الشعر ابتسامةً ماكرة لِلِيل التي انحنت بكل ذرة كبرياء استطاعت حشدها كي تلتقط المال من فوق الأرض.

لو أفلح أوزي في كبْح جِماح نفسه قليلًا لكان خيرًا للجميع. لكنه عندما ضحك بقسوة، على لِيل المسكينة المنحنية على الأرض لتلتقط راتبها الأخير، أطلق العِنان لفوضى عارمة وجلبة حقيقية.

قال ليستر وهو يضرب بقبضته الطاولة الطويلة ضربةً قوية، وأدَّى انتفاضه إلى ارتفاع كتفه وهبوطه على شاكلة المكابس داخل مُحرِّك حافلته: «هذه ليست طريقة تُعامل بها امرأة مهذبة يا سيدي.» قال هذا، ودفع بصحنِه جانبًا، ونهض على قدميه، ثم دار حول الطاولة، كي يساعد لِيل في جمْع مالها.

في اللحظة نفسها، خرج سامسون من مخبئه خلف الطاولة الطويلة، وعضَّ أوزي القوي العظيم في ساقه عضَّة قوية.

صرخ أوزي مثل فتاة صغيرة، وطارت فطيرة كريمة الموز من بين يديه، لتسقط مقلوبة بشكل مقزز على الأرض أمامه.

قبض أوزي على ساقه المتألمة، ووثب على قدمه السليمة، وأخرج سكِّين الفطائر من الحوض متوعدًا: «أيها الصغير ...!»

هتفت: «لا!»

عندما رأى ويل وبوبي «سامسون» ينبثقُ من خلف الطاولة الطويلة، ويصبح قريبًا من الرجل الغاضب وفي يده سكِّين الفطائر، اندفعا عبْر أرضية المطعم. وحاولا انتزاعَ السكِّين من الرجل، من فوق الطاولة الطويلة، بينما انطلق سامسون من خلفها، وفرَّ باتجاه غرفة التخزين. تقدمتُ وفيش، ودفعنا أوزي في منتصف ظهره المفتول العضلات

دفعةً قوية، أدَّت إلى ترنُّحه وتعثُّره في الفطيرة المُلقاة على الأرض. تزلَّج الرجل الضخم على قدمٍ واحدة على كريمة الموز والكاسترد، بينما اجتاحت رياح فيش الغاضبة المَطعم، فاختلَّ توازنه أكثر. وانقلب أوزي على ظهره وارتطم بالأرض بقوة.

صرخت النادلة الحمراء الشعر، وهبَّ الزبائن واقفين على أقدامهم، حائرين لأي الطرفَين يَنحازون ويقدِّمون المساعدة، أو غير واثقين ممَّا إذا كانوا سيُقدمون المساعدة من الأساس.

صرخت بوبي، وهي تلفُّ حول الطاولة الطويلة عَدوًا، كي تساعد لِيل وليستر في جمع بقية المال: «لنذهب من هُنا!» قادَ ويل الابنُ وبوبي البالغَين المحبَطَين الغاضبَين بعيدًا عن أوزي المتخبِّط البذيء، باتجاه الباب الخاص بالموظفين، كي يَهربوا هُروبًا اضطراريًّا من باب الطوارئ، وتبعتْهما مع فيش في الحال.

أثناء عُبورنا من غرفة التخزين، جذبت لِيل سترتها من فوق المِشجَب، ونظرت إلى بقيتنا، وهي تهزُّ رأسها. كان وجهها أحمر، وحذاؤها الأبيض مُلطَّخًا بآثار فطيرة الموز.

قالت هامسة بينما نتَّجه إلى الباب: «أعتذر إليكم جميعًا. يبدو أن الأطفال الأشقياء والغريبي الأطوار عليهم الانطلاق من جديد.» وأشارت إلى السلال القابعة على المكتب حيث تركتها بوبي سابقًا. وقالت: «أحضروا شطائرَ الهامبرجر هذه أيها الصغار. يمكنكم تناولها في الحافلة.» ونظرَت إلى سامسون الذي تناول يدَها في حزن. وأضافت بصدق: «أنا آسفة لأنك لم تَتناول فطيرة الموز أيها الطفل.» توقَّف ليستر في مكانه فجأة.

وقال: «انتظروا جميعًا لحظة.» أوقفَتنا نبرةُ ليستر القاطعة في أماكننا. ودون أن يتوقَّف لحظة، رفع إصبعًا في الهواء، كإشارة للهجوم، واستدار واندفع عبْر الباب إلى منطقة الطعام. ظننت لوهلة أنه فقدَ ما تبقَّى من عقله وركض في الاتجاه الآخر بسبيل الخطأ. لكنه عاد، بعد لحظة، حاملًا فطيرةَ كريمة ثانية فوق رأسه عاليًا، كأنها كأسُ النصر. وقطع الغرفة في سباق محموم باتجاه باب الخروج، بينما وجَّهت لِيل للأريكة المُهترئة ركلةً أخيرة وقوية، مثلما فعلت مع سيارتها المعطَّلة. ثم دفعت بقيتنا خلف ليستر، وخرجنا مُتدافعين من الباب الخلفي، إلى ساحة انتظار السيارات خلف المطعم، بعيدًا عن أوزي واستراحة ومطعم موقف شاحنات إيمرالد.

الفصل العشرون

اندفعنا خارجين وكانت ليلة من ليالي الربيع؛ حيث الهواء المنعِش البارد، تتخلَّله أبخرةُ الديزل وأصابع الدجاج المقلية. بعد كل هذا الهرَج والمرَج والضجَّة الصاخبة داخل المطعم، كان الخروج مُريحًا للنفس وسط الصمت المهدئ للأعصاب للسماء والرصيف. وتمكَّنت من سماع أصوات السيارات العابرة في الطريق أمام المطعم، التي بدت كأمواجٍ تتكسَّر على الشاطئ لا أكثر.

لم يتحدَّث أحد أثناء قفزنا فوق النُّقَر بسرعة على ضوء المصباح الوحيد في الشارع، وتعرَّجنا عبْر الشاحنات والمقطورات، قاصدين الركنَ القصيَّ من ساحة انتظار السيارات، ومتجهين ناحية الزقاق. راقبنا عن كثَبٍ الطريق خلفنا تحسبًا لقيام أوزي أو أي شخص آخر بملاحقتنا. لكن لم يبدُ أن أوزي يجري في أعقابنا، سواء أكان ذلك بسبب استلقائه على ظهره وسط بقايا فطيرة الموز أم بسبب شعوره بالعار.

وسط كل هذه الجلبة داخل المطعم، نسيتُ أمرَ ذلك الرجل المشرَّد عند حاوية القُمامة. كدنا نتخطاه مرةً أخرى، وذلك قبل أن تمنعني العودة الصاخبة للصوت «لقد رأيت الكثير ...» من نسيان أنه لا يزال راقدًا هناك. أثقَلَني الحزن وتأنيب الضمير، وأدركتُ أنه إذا عجزتْ هِبَتي الخارقة عن فعلِ شيء لمساعدة ذلك الرجل المحطَّم اليائس، فلست عديمة الحيلة تمامًا. تخلفت عن الآخرين، ووضعت سلَّة الهامبرجر الخاصة بي على الأرض بجوار اليد الممدودة. ثم نزعت الزهرة الأرجوانية المصنوعة من الشرائط والمُثبتة على كتفي من فستان المناسَبات الخاصة ووضعتها جانب شطيرة الهامبرجر، على ثقة بأن أبي سيتفهَّم تصرفي. وباستثناء القلم الفضي، كانت الزهرة كلَّ ما يُمكنني هِبَته وفِعله كي أعرِّف الرجل أنني قد رأيته. وأنني سمعت نداءَه.

كان الجميع في طريقهم إلى الحافلة، لاهثين مُضطربين من الحادثة داخل المطعم، وحده وِيل مَن انتبه لعطائي البسيط، ونظر إليَّ نظرةً دافئة عطوفة، وهو يَنتظرني كي ألحقَ بهم.

بعد أن ابتعدتُ عن الأصوات الكثيرة داخل المطعم وصوت الرجل المشرد، شَعرت بالإحباط — لا الاندهاش — من عودة أصوات ملاك بوبي وروندا وكارلين إلى رأسي، بكامل حدَّتها وصخبها، كأنها صاحِبة المكان دون سواها.

«لقد ورَّط ليستر نفسه في مشكلة كبيرة ...»

«لا بدَّ أن الرجل بارع في هذا الأمر.»

سعى ليستر إلى فتح باب الحافلة، وهو يَحرص ألا تسقط الفطيرة المسروقة من يده في الوقت نفسه، وأثناء ذلك أسندنا ظهورنا إلى جانب الحافلة كي نَلتقط أنفاسنا. ورغم كلِّ ما حدث، ظلَّت بوبي تحدِّق إليَّ شبهَ هادئة، عاقدة ذراعيها أمام صدرها، بنظرة مُتسائلة وفي الوقت نفسه حَذِرة. ووقَف ويل الابن وراءها، وقد ارتسم على وجهِه تعبيرٌ مُبهم.

غنَّى الملاك الصغير على ظهر بوبي في رأسي: «حدِّثيني عمَّا أفكِّر فيه. هل تدرين بمَ أفكِّر؟» ذهبت أصوات روندا وكارلين وراء الستار، خلف صوت ملاك بوبي، وبدت انتقاداتهما المستمرة لليستر مثل مقاطعَ غنائيةٍ ارتجالية لأغنية بوبي الجديدة.

«حدِّثيني عما أُفكِّر فيه. هل تَدرين بمَ أُفكِّر؟» هاجمتني بوبي بأفكارها، بصوتٍ أخذ يعلو أكثرَ فأكثر.

«حدثيني عما أفكِّر فيه. هل تَدرين بمَ أفكر؟»

«حدثيني عما أفكِّر فيه. هل تدرين بمَ أفكر؟»

كادت تقودُني إلى حافة الجنون. تمكَّن ليستر من فتح الباب في نهاية المطاف، ووضعت يديَّ في أُذني وبدأت أدندن النشيد الوطني الأمريكي بأعلى صوت مُمكن للدندنة. لكن فيش أدارني لمواجَهته، وأخرج إصبعي من أذني اليمنى، هامسًا بجِدية: «ماذا تسمعين يا ميبس؟»

همست: «بوبي لديها وشمٌ على ظهرها، وهو لا يتوقَّف عن الحديث بصوتٍ عالٍ. لقد كشفت هِبَتي الخارقة، يا فيش، أم أنك نسيت؟»

نظر فيش إلى بوبي نظرة سريعة. كانت الفتاة تستند إلى جانب الحافلة، وترقُبني بعينَيها كقطة تترصَّد فأرًا؛ قطة تحب أن تلعب بفريستها قبل أن تلتهمها. أما ويل الابن

فإنه وقف خلف شقيقته نوعًا ما، وقد علا الاضطراب وجهه، لا يدري هل فهِم المغزى من الدعابة أم لا. لم تُعِر بوبي اهتمامها لفيش؛ كانت منشغلة باختراقي بنظراتها الحارقة.

«حدثيني عمَّا أفكر فيه. هل تدرين بمَ أفكر؟»

«حدِّثيني عما أُفكر فيه. هل تَدرين بمَ أفكر؟»

قال فيش: «توقَّفي يا بوبي»، وقد رفع يده محكِمًا قبضته، بينما صعد ليستر ولِيل على متن الحافلة مع سامسون.

قالت بوبي بنَبرة تتقطَّر عُذوبة بريئة مزيفة: «أتوقَّف عن ماذا؟»

ردَّ فيش بغضب وهو يُلقي شطيرة الهامبرجر خاصته على الأرض: «أنتِ تعلَمين ماذا أقصد.» طيَّرت زوبعة من الرياح شَعر بوبي حول رأسِها في فوضى، وأحالت الهواء رطبًا ساخنًا. لم تعُدْ بوبي تستند إلى جانب الحافلة واعتدلت في وِقفتها. وضيَّقت عينَيها في ظل إنارة الشارع الخافتة صوب فيش، وراحت تَبصُق خصلات الشعر التي التصقت بعلكتها، قبل أن تُلقي بشطيرتها هي أيضًا كأنها تَقبل تحدِّي فيش للقتال.

قالت: «أنا أُفكِّر فحسب. هل تُريد مني أن أتوقَّف عن التفكير؟»

كانت زوبعة فيش التالية أشدَّ قوة، فطيَّرت شَعر بوبي للخلف وألصقت ثيابها بجسدها، كأنها تَنظُر إلى العاصفة مباشرة. تراجع ويل الابن للخلف، وأعطى ظهره للعاصفة، كي يَحمي عينَيه وشطيرة الهامبرجر؛ إذ ارتفَع الوسخ والحصى من الرصيف المتداعي بفعل عاصفة فيش، وانجرف ناحيته وبوبي. تحرَّكت مِزقٌ غير مُتناسِقة من الأكياس البلاستيكية وطقطقت عبْر الزقاق مثل جموع من الأشباح الشاحبة الجامحة. وفجأةً هطلت زخَّات مطر لاسعة، ارتطَمت بجانب الحافلة، كارتطام مياه رشاشٍ بسياج من الأسلاك.

شكَّل فيش أمامي درعًا يَفصِل بيني وبين ويل وبوبي ميكس. ووقف بقدمين راسختين على الأرض، وعلَّق ذراعَيه على خَصره، متَّخذًا وضعية الأولاد الخارقين في الكتب الهزلية، ورفرف شعره للأعلى بجنون، بينما راح يُولد عواصفَ قوية من الرياح والأمطار، رجَّت الحافلة وقذفت ببوبي إلى الوراء فاصطدمت بأخيها.

أخرج ليستر رأسه من الحافلة، فرفرفت خصلات شعره المُمشَّطة بجنون، كأنها كيس بقالة مُعلَّق على سياج من الأسلاك الشائكة. وكان كلُّ ما رآه هو هرج ومرج أهوج لعاصِفة مُتصاعِدة. لكن لم يَلحظ ليستر أن هذا الاضطراب مَنشؤه فيش، وأنني أقف خلفَه دون أن

تتحرَّك خُصلة من خصلات شعري أو تتزحزح تنُّورتي من مكانها؛ بدا الأمر كأنَّني أقف في بؤرة إعصار هادئة ساكنة.

لكن شاهدَ ويل الابن وبوبي ما حدث وفهِما الأمر تمامًا. الآن تأكَّدت شكوكهما تمامًا.

لم يَعُد لدى ويل وبوبي أدنى شكٍّ في اختلاف صغار بومونت عن غيرهم. وأنهم غير طبيعيِّين على نحوٍ مخيف واستثنائي. لكن بعد كلِّ ما قيل، عندما صارت الأمور على المحك، أدرك ويل وبوبي أننا مُدهشون للغاية.

الفصل الحادي والعشرون

قالت أمي لفيش وروكيت، عندما جعلتهما يَرسمان صورًا معها، ذات صباح شتوي قبل موسم الأعياد: «إنَّ تخفيف وقْع الهِبَة الخارقة يُشبه دهن طبقة خفيفة من الطلاء على جسدك.» آنذاك، كنتُ أمكث بالمنزل ولم أذهب إلى المدرسة بسبب اعتلال صحتي، واستمتَعت بالاستلقاء على الأريكة، ومُشاهَدة شقيقيَّ يَرسُمان أمواج المحيط الهائجة من الذاكرة. أرهفت السمع عندما بدأت أمي تتحدَّث عن كيفية تخفيف وقْع الهِبَة الخارقة وأوليت كلامها اهتمامًا شديدًا.

تابعت أمي: «إذا لم تَستخدِم طلاءً كافيًا، فستَنبعِث هِبَتك الخارقة بقوة شديدة، وتتسبَّب في مشكلات كبيرة لك ولبقية العالم.» ضحكتْ أمي؛ إذ عبس فيش وروكيت لأنهما كانا يعرفان تمام المعرفة تلك المشكلات المُشار إليها بالذكر.

أضافت أمي: «وعلى النقيض من ذلك، إن استخدمت الكثيرَ من الطلاء، فلن تحجُب هِبَتك الخارقة فحسب، بل سيَصير كلُّ ما في الحياة باهتًا ومُملًّا بالنِّسبة إليك أيضًا. فلا يُمكنك التخلُّص من الشيء الذي يُميِّزك عن غيرك وتُواصل العيش بسعادة.»

التقطت أمي فرشاةَ الرسم وغمسَتها في لونٍ أفتح كثيرًا من لون لوحتها. وطلَت اللونَ الداكن بلونٍ فاتح، حتى غطَّتْه تمامًا. لكن اللون الفاتح لم يَحجُب اللون الداكن كليةً. بدلًا من ذلك، كان للون الباهت لمسةٌ مُتناغمة ناعمة نسَّقت الدرجة الداكنة مع بقية الرسمة.

قالت أمي مُحاضِرة: «وهكذا فإنَّ هِبَة خارقة جيِّدة التخفيف تمنحك وضوحًا في الرؤية وشعورًا بالسيطرة. لا بدَّ أن تدَعَ خبرتك الخاصة ولونك الفريد يَظهران بوضوح كنوع من التفرد الذي لا يستطيع الآخرون سبْر غوره.»

جعلت أمي الأمر يبدو في غاية السهولة. لكنَّ إحراز مثل هذا النجاح مع هِبَة خارقة ليس مهمَّة سهلة، بل هو أقرب إلى المشي على الحبل. وبناءً على الشخص ونوعية الهِبَة الخارقة، قد يَستغرق الأمر سنوات وسنوات لإحكام السيطرة بما يَكفي للاختلاط مع بقية العالم، كما لا تقدِّم مرحلة النضج أيَّ ضمانات لحدوث مثل هذا التوافُق بصورة سهلة. ولهذا كان التعليم المنزلي في كنساسكا-نبرانساس أوسعَ بكثير جدًّا من مجرَّد القراءة والكتابة والحساب.

عتَت رياح فيش عبْر الزقاق المُظلم أكثرَ فأكثر. لا أذكر أن فيش حرَّك الرياح بهذه القوة، منذ ذلك الإعصار الذي دفَعنا لحَزم حقائبِنا. بعد أن بلغ فيش الثالثة عشرة، لم ينفكَّ عن الكدح ليدع لونه الفريد يُزهر عبْر سُحُبه العاصفة السوداء. فهِبَة خارِقة قوية، كتلك التي يمتلكها، كانت تُشبه الاستيقاظَ بمزاج وحشي؛ لذا كانت تتطلَّب جهدًا مُضاعفًا وصبرًا للسيطرة عليها.

هناك في إميرالد، بعيدًا عن البيت، مع تَحريك فيش للرياح وإذلال أوزي القوي العظيم داخل المطعم، بدأت أشعر بالكآبة وشكَكتُ في قُدراتي العقلية وشجاعتي. لم نَعُد أنا وفيش في كنساسكا-نبرانساس، وليس لدينا أي طوب أصفر يُرشدنا إلى الطريق، بل مجرَّد حافلة وردية كبيرة وخطوط صفراء في الطريق السريع فحسب.

صرخت عندما رأيت لافتةً رباعيةَ الأسهم مُدوَّنًا فيها «ممنوع الوقوف في أي وقت» تَنقلِع من مكانها وتدور في الهواء وسط الرياح الحلزونية.

طارت اللافتة ناحيةَ بوبي وويل، فصرخت: «انتبه!»

انتبه أخي للافتة التي تَسقط بسرعة شديدة ودار على عقبَيه. وفي غمضة عين غيَّر مسار اللافتة المُندفِعة برياحٍ مُتغيِّرة الاتجاه مُحكَمة السيطرة.

مُحكَمة السيطرة. لقد سيطر فيش على رياحه، بل تمكَّن من توجيهها كما يريد. سقطت اللافتة من الهواء على الأرض، مُحدِثةً قعقعة، مثلما تهبط طائرة ورقية على الأرض بسرعة شديدة فور أن تسكن الرياح. تراجع فيش للخلف مُندهشًا، وتوقَّفت عاصفته بوتيرةٍ أسرعَ مما بدأت. ونظر إلى يديه. وبدا أنه عثر على اللون المناسب لطلاء هِبَته الخارقة بحيث تبدو زاهيةَ اللون.

قال فيش بأنفاسٍ متقطِّعة: «رائع.» ثم استدار صوْب صندوق من الكرتون يستقر على الأرض على بُعد عشرة أقدام. نظر إلى الصندوق، وضيَّق عينَيه، حتى انعقد حاجباه

فوق أنفه من شدة تركيزه. وبعد لحظة، ارتفع الصندوق قليلًا، ثمَّ سقط في الزقاق، بعد أن حملته زوبعةٌ مُوجَّهة. ابتسم فيش، ثم التفت إلى بوبي وويل، وقد بان القلق على وجهه بعدما ذهب الغضب أدراجَ الرياح.

سأل فيش وهو يخطو نحوهما بتردُّد: «هل أنتما بخير؟» ولأول مرةٍ انعقد لسان بوبي؛ حتى إنَّ ملاكها الصغير لم يكن لديه ما يقولُه. وخلفها، كان ويل الابن يَبتسِم لنا ابتسامةً عريضة، كأنه فهِم الدُّعابة أخيرًا.

قال ويل بضحكة راضية: «ممتاز.»

كان ليستر سوان لا يزال مُتدليًا من الحافلة يتطلع في القمر العالي والسماء الهادئة الصافية. وتمتم: «بلد الأعاصير»، غير مُنتبهٍ لحقيقة الطقس الفوضوية. وقال: «هيَّا يا أطفال. ليصعدِ الجميع إلى الحافلة. حان وقت مواصلة الرحلة.»

صعدنا على متن الحافلة، وجلس ويل بجواري، بابتسامةٍ لا تزال مُرتسمة على شفتَيه، وقد لصق ساقه اليسرى بساقي اليُمنى. أما بوبي فإنها جلست بجوار فيش، ما أصابني — بل أصاب الجميع — بالدَّهشة. التقط ويل الحصى من البطاطس المَقلية في سلة الهامبرجر قبل أن يقدِّمها للجميع. فباستثناء سامسون، الذي كان يَجلس بسعادة، يَغمس إصبعه في منتصف الفطيرة المسروقة القابعة على ركبتي لِيل، كان ويل هو الشخص الوحيد الذي يمتلك وجبةَ عشاء؛ إذ تناثرت بقية الوجبات على طول الطريق الفاصل بين المطعم والحافلة.

أشارت لِيل وهي تتطلع من النافذة بقلق: «يُستحسَن أن نبتعد عن إيمرالد يا ليستر.»

أومأ ليستر برأسه، وأدار المحرِّك؛ وبدا أنه مُتعبٌ من بطولاته الاستثنائية، وسعيدٌ بوجود شخص آخر يخبره بما يفعله.

قال ليستر، وهو يَنظُر إلى الوراء ليُخرِج الحافلةَ من الزقاق القابع خلف المطعم: «إلى أين تُريدين الذهاب يا لِيل؟»

ردَّت لِيل: «حسنًا، لا أظنُّ أنني سأرغب في العودة إلى البيت الآن. فأوزي يعرف أين أعيش، وبعد ما فعلناه به ...» وتوقَّفت عن الكلام وسرَت قشعريرة في جسدها قبل أن تتابع: «كنتَ في طريقك إلى سالَينا، بصحبة أولئك الأطفال، يا ليستر. ربما ينبغي أن نذهب إلى هناك. أنتم لا تُمانعون أن أذهب معكم، أليس كذلك؟»

نظرت لِيل إلى كل واحدٍ منَّا على حِدة. هززنا جميعًا رءوسنا والتزمنا الصمت. لم يَجرُؤ أحد على رفض ذهابها معنا. وهذا لأنَّنا أنفسنا لم نحصل على الإذن قبل صعودنا إلى تلك الحافلة.

سألت لِيل: «وأنت يا ليستر؟»

لم يكن ليستر بحاجة إلى إجابة المرأة الضَّخمة. لقد كان في غاية السعادة أنها تريد السفر معنا حتى إن عينيه اغرورَقتا بالدموع.

أجاب ليستر: «سأُوصلك أينما تُريدين يا لِيل كايتلي.»

قفز قلبي عندما فكَّرت في أننا سنَذهب إلى سالَينا، وسنرى أبي أخيرًا. كنتُ أعلم، بعدما رأيت النشرة الإخبارية على التلفاز في المَطعم، ما قد تَعني الأضرار الكهربائية التي أحدثها روكيت لأبي؛ لذا لا بدَّ أن أخي في غاية القلق من تسبُّبه في هذه الفوضى الهائلة. ولو لم أقدِر على فعلِ أي شيء لمساعَدة أبي، فأنا أريد أن أمسك يده، وأُقبِّل وجنته، وأدعه يعلم أنني هناك وأنَّني أُحبه.

قاد ليستر الحافلة، وبدأت كتفاه تَنتفضان بشدة أكثرَ من ذي قبل، وتلوَّى بجسدِه النحيل في مقعده مثل طفل صغير.

لاحظت لِيل توتُّره، فسألته قائلة: «ما الأمر يا ليستر؟»

قال بتردُّد وجبن: «حسنًا، يجب أن أُوصل طلبية إلى وايمور، في الصباح، وسيغضب ر... رئيسي كثيرًا إن فوَّتها.» وأضاف مُكشرًا: «لقد أفسدت بالفعل بقيةَ طلبيات اليوم، وإذا أ... أخفقت في واحدة أخرى ... حسنًا، قد أخسر وظيفتي. ربما أخسر حافلتي.»

ضحكت كارلين باستهزاء: «أوه، يا لكَ مِن مسكين يا ليستر. ليستر الغبي المسكين. كيف سيَتدبَّر أمره دون حافلته الثمينة؟»

قالت روندا باستهزاء: «سيبيع القهوة في محطة الحافلات، هذا ما سيفعله.»

أنشأنا نعترض: «لكن ...!»

توسلتُ إلى ليستر: «يجب أن نذهب إلى مَشفى «هوب» في سالَينا يا سيد سوان! لا بد من بُلوغنا هذا المكان!» لكن ليستر كان قد عقَدَ عزْمه على الذهاب، حتى إنه رفض أن ينظر إلينا.

طفق ليستر يردِّد بهدوء لكن بحزم، كأن كل تروسه تعشَّقت في مكانها: «لا أطيق خسارة حـ... حافلتي.»

بدت لِيل مُرتبكة.

قالت لِيل، وهي تتنهَّد وتتأمَّل زيَّ النادلات الأخضر بحزن: «من المؤسف أن تخسر وظيفتك أنتَ أيضًا. لكن ماذا عن الصغار يا ليستر؟ ماذا عنهم؟ ماذا عن سالَينا وأبيهم؟ لا بدَّ أن عائلات أولئك الأطفال بانتظارهم هناك، أليس كذلك؟»

لم يُجبها أحد. انتفَضَ ليستر. وشعر بقيَّتُنا بالقلق والتوتر. ضيَّقت لِيل عينَيها وهي تنظر إلينا جميعًا داخل الحافِلة الخافتة الإضاءة. تظاهرَت بوبي بالانشغال بفردِ آخِر قطعة من العلكة. وراح فيش يُصفِّر بهدوء. واكتفى ويل الابن بالتحديق إلى ركبتَيه والعبث في شَعره المجعَّد بيده، أما أنا فأخذت أشدُّ قطعةً مُتدلية من شريط الزخرفة الأبيض على كُم فستاني. وحدَه سامسون مَن حاول ألا يبدو مذنبًا بوضوح، وهو يجلس بجوار لِيل يتناول شطيرةَ الهامبرجر والفطيرة بالتناوب، يَقتطِع قطعةً من هُنا وأخرى من هناك.

تجمَّدت لِيل في مكانها وعقدت ذراعَيها أمام صدرها. وسألت: «حسنًا، ماذا يَجري هُنا؟» ربما كنتُ موهوبة في التأخُّر على مواعيدي، لكنني في العادة لا أتأخر كثيرًا في استيعابِ ما يجري حولي. على أحدٍ أن يشرح لي ما أقحمت نفسي فيه تحديدًا. وليبدأ بفعل ذلك في الحال.»

الفصل الثاني والعشرون

أخبرنا لِيل بفعلتنا ونحن في غاية الخِزي. اتَّجه ليستر إلى الشرق، كي يَرحل عن إيمرالد، وأخذ يشق الظلام بحافلته، بينما قصصنا على لِيل بالتناوب كيف تسلَّلنا إلى حافلة ليستر، على اعتقاد أنه سيعود إلى سالَينا. أخبَرناها كيف اتَّجه ليستر إلى اليسار بدلًا من اليمين، وللشمال بدلًا من الجنوب، وكيف وجدنا أنفسنا نَبتعِد عن سالَينا والمشفى وأبينا.

لم تتغيَّر تعابيرُ وجه لِيل، ونحن نقصُّ عليها ما حدث، ولا بعدما انتهَينا من حديثنا، لعدة دقائق، وغرقت الحافلة في صمتٍ مشحون. واستمر الصمت لا يَخترقه سوى الطَّرقات والأزيز المُنبعث من المحرِّك والأصوات التي في رأسي.

كرَّر وشم بوبي مثل دقات قلب مُتوتِّرة: «لقد انتهى أمرنا، لقد انتهى أمرنا.»

جلست لِيل بلا حَراك لمدة طويلة للغاية. كان سامسون قد انتهى من تناول شطيرة الهامبرجر خاصته، وحفر حفرة كبيرة في الفطيرة، والآن يُحاول مدَّ يده لسرقة بعض البطاطس المقلية من سلَّة ويل. أما نحن فلم نلمس محتوى هذه السلة. فقد فقدنا شهيتنا جميعًا.

وفي نهاية المطاف، تنهَّدت المرأة الضخمة تَنهيدةً بطيئة طويلة، بصَوت يُشبهُ صوت نزول ملاك من سحابة لأخرى.

قالت لِيل، موجِّهة حديثَها إلى نفسها لا إلينا على الأغلب: «أرى أنَّني خبيرة بلا شك بإقحام نفسي في المُشكلات. فاليوم خسرت سيارتي ووظيفتي. والآن يبدو أنني فقدت عقلي أيضًا.»

واصلنا مراقبةَ لِيل، يحدونا أملٌ حذر ألا تقوم بتسليمنا.

رفعت لِيل صوتها الرفيع فوق صوت المحرِّك الصاخب: «أنصِتوا إليَّ جميعًا. سأخبركم بما سنفعله.» ابتسم ليستر. بدا أنه مُغرم بالنساء اللواتي يخبرنه بما يجب أن يفعله، لكن

على الأقل لم يكن هناك ثمَّة تشابُه بينها وبين كارلين أو روندا. وضعت لِيل الناموس الذي سنَسير عليه. ونصَّت خطَّتها على مُواصَلة السير شرقًا باتجاه لينكون للعثور على نُزلٍ، ما يُبعدنا عن إيمرالد، لكنه في الوقت نفسِه يُخرجنا من الطريق السريع بشكلٍ عاجل. كانت لِيل لا تُحبِّذ القيادة على الطريق السريع أثناء الليل، كما أرادت أن نتَّصل بآبائنا كي نُبلغهم أننا في صحة وعافية، وسنتَّجه إلى سالَينا في الصباح. وفيما يتَّضح لي فإن لِيل كانت تجتهد لمعرفة الصواب الذي يَجب أن نفعله، لا تَدري مدى الفوضى التي قد تحدُث في اليوم.

فكَّرت في ذلك لحظةً من الزمن. كان آخر ما أُريده هو أن يُواجه ليستر ولِيل موقفًا عصيبًا بسبب الفِكرة الغبية التي وردَتني، وهي أنني أستطيع شقَّ طريقي إلى سالَينا. أدركت أن مهمَّتي هي العناية بهذين الشخصَين البالغَين الآن. لا بدَّ أن أحافظ على سلامتهم وأُبعدَهم عن المشكلات، ولو تطلَّب ذلك الانتظار إلى الصباح حتى أصلَ إلى أبي، فلا أمانع بسير الأمور على هذا النحو، مهما كان شاقًّا على النفس.

لم تَمضِ سوى ساعات قليلة منذ أن صعدنا على متن تلك الحافلة حتى صِرنا جماعة غريبة الأطوار مِن المنشقِّين. وعَدنا لِيل أننا سنتَّصل بعائلتَينا بمُجرَّد أن نصل إلى النُّزل، لكنني رجوت الله في قرارة نفسي أن يغفر لي هذا الكذب. كان واضحًا للعِيان أن ليستر يشعر براحة البال لوجود شخصٍ آخر يتولى عنه مسئولية أخذ القرارات؛ وبدا أنه استنفَدَ آخر قطرة من مَخزونه الضئيل من أعصابه لتُتابع الحافلة مسارها الأصلي لتوصيل طلبياته.

لم تَعُد لِيل تتحدَّث عن خسارة وظيفتها ولم يأتِ أحدٌ على ذكر هذا الموضوع. أحصت النقود التي دفَعَها لها أوزي القوي العظيم، وضيَّقت عينَيها بينما تفعل ذلك على ضوء الحافلة الخافت.

أعلنت لِيل بفتور: «حسنًا، يا صغار، أظن أنه لديَّ ما يكفي من المال كي أحجز غرفتين في نُزُل. هل يُمكنكَ العثور على مكان بعيدًا عن الطريق السريع يا ليستر؟»

أجاب ليستر: «كما تُريدين يا لِيل.»

شاهدتُ لِيل تُحدِّق في ليستر بحبٍّ. وأستطيع القول من الطريقة التي نظرت بها إليه إنها رأت فيه شيئًا تحبُّه. ربما كان ذلك لأن ليستر أوقف الحافلة لإنقاذها عندما تعطَّلت سيارتها، أو لأنه ساعدها في جمْع مالها مِن فوق الأرض، أو لأنه سرق الفطيرة من المطعم دون تفكير. قد لا يبدو ليستر بطلًا من الوهلة الأولى، لكن أظنُّ أن المرء يحتاج إلى بعض الوقت ليكتشف نُبل الرجل.

قاد ليستر الحافلة لبعض الوقت قبل أن يَعثر على النُّزل المناسِب. احتوى نزل «لينكون سليبي ١٠» على القليل من السيارات في ساحة انتظار السيارات الخاصة به، وطَنَّت لافتة الغرف الشاغِرة وومضت مثل مصباح صعْق الحشرات.

قبع «لينكون سليبي ١٠» في أقصى المدينة، أمام متجر «ميجا ميجا مارت»، وعدد من مطاعم الوجبات السريعة الصفراء والحمراء الصاخبة المُتراصة. مَكثنا جميعًا في الحافلة التي أوقفها ليستر بعيدًا عن النُّزل بمسافة مناسبة، وحجز غرفتين باستخدام نقود لِيل. بعدما رأيت وجهي على التلفاز في مطعم موقف شاحنات إيمرالد، لم أتلهَّف لجلب نظر العامة إليَّ، ما دامت الحاجة لا تستدعي ذلك؛ لذا انتظرت بسرور مع البقية على متن الحافلة.

أخبرت لِيل ليستر أن يحجز غرفتَين، رغم أنه أصرَّ على النوم في حافلته كي «ي... يحمي بضائعه.» كنتُ آمُل أن يكون النُّزل مُزوَّدًا بقِطَع صابون بيضاء رقيقة ملفوفة في ورق، وقنانٍ صغيرة من الشامبو، ومناشفَ بيضاءَ منعشةٍ مطوية بعناية في الحمام؛ إذ من شأنها أن تجعلني في قمة السعادة.

قال ليستر وهو يُناول لِيل مفتاحَي الغرفتَين ويُراقب نزولنا من الحافلة: «ستجدون غرفتَيكم في الطابق الثاني.» كان مُتوترًا عصبيَّ المزاج كعادته، وبدا حزينًا لأنَّنا تركناه هناك. ولوهلة، خطر لي أنه قد يُصاب بالهلع ويلوذ بالفِرار وسط الليل؛ وتصوَّرت أن هذا الأمر ليس بعيدًا عن الأبطال الأكثر قوة. لكن الطريقة التي نظر بها ليستر إلى لِيل جعلَتْني أشكُّ في ذلك.

ناديت على ليستر قبل أن يُغلق باب الحافلة: «أتعدُني أنك ستكون هُنا في الصباح يا سيد ليستر؟» أمال ليستر رأسَه مثل كلبٍ يُرهف السمعَ ونظر إليَّ باستغراب.

وسأل: «أين عسايَ أذهب؟» وكانت هذه هي الإجابة التي احتَجتها.

رافقتنا لِيل إلى الدَّرج الذي يقود إلى غرفتَينا. تشمَّم فيش الهواء أثناء مرورنا أمام باب مُوصد في الطابق الأول ذي نافذة واحدة. أعلنت اللافتة بجوار الباب «مسبح — للنزلاء فقط».

قال فيش ببساطة: «ماء.»

قبع المسبح فارغًا وساكنًا، وانعكس ضوءُه الأخضر المُتراقص على الجدران وسقف الغرفة الصغيرة. لو كُنا في وقتٍ آخر، لكان الاقتراب من هذه الكمية الكبيرة من الماء

سيُصيب فيش بالعصبية والاضطراب، لكنَّني عندما استرقت النظر إليه وجدته في غاية الهدوء.

لم يَفُت لِيل الطريقةُ التي نظرنا بها جميعًا إلى ذلك المسبح، عبْر نافذة الباب، لكنَّها أمرتنا أن نصعد الدَّرج أمامها، كأنها رقيب تدريب في لباس تَمويه أبيض وأخضر. عندما وصلنا إلى الطابق الثاني، تولَّت لِيل القيادة، مُمسكة بسامسون بإحدى يدَيها، أثناء بحثِها عن غرفتَينا، وعابثة بمفاتيح الغرفتَين باليد الأخرى.

وتخلف عنها بقيتُنا.

همستُ لويل: «لا يُمكننا الاتصال بمنازلنا.» نقَل ويل بصره مِن لِيل إليَّ وتعابيرُ الاستفهام على وجهِه. كانت لِيل قد تَقدَّمت عنَّا كثيرًا واجتازت مسافةً طويلة من الممر الطويل. مددت يدي، وشددت ظهر قميص بوبي، فلاحظتُ هيئةَ جلوس الملاك في الوشم الموجود على ظهرها، مستندًا على مرفقه، طاويًا جناحيه، ومنهمكًا في تنظيف أسنانه بطرف ذيله المستدق بلا مبالاة.

قلتُ لها: «لا يُمكننا الاتصال بالمنزل يا بوبي.»

أجابت: «حقًّا!» وأدارت عينيها في مَحجِرَيهما.

قال الملاك: «إنها تعرف ذلك بلا شك.» لكنَّني تجاهلته.

سألت: «فيش؟»

ردَّ هامسًا: «أعرف، أعرف. لا يمكننا الاتصال بالبيت. لكن كيف تظنين أننا سنخرج من هذه الأزمة؟»

قلتُ: «لديَّ خطة.»

قالت بوبي: «يا إلهي، لديها خطة.»

الفصل الثالث والعشرون

ستدور الخدعة حول التوقيت. كان إقناع ليستر صباح اليوم مهمةً سهلة على نحو مُدهش، لكنَّني كنتُ أعلم أن خداع لِيل سيكون أصعبَ من ذلك بكثير؛ يجب أن تصدِّق، بلا أدنى شك، أننا اتَّصلنا بمَنازلنا وإلا لن تشعر بالرضا.

تذكَّرت بوبي عندما قلَّدت أمها أثناء تناول رغيف اللحم على مائدة العشاء في الليلة السابقة، وكيف تحدثت حينها كالسيدة روزماري تمامًا. تذكرت أيضًا كيف هدَّد ويل الابن أخته بإخبار والدَيهما عن اتصالها بالمدرسة، وتقليدها لصوت أمها، ليسمحوا بغيابها عندما تتغيب عن دروسها.

ومع وجود الغرفتين بمحاذاة بعضهما بعضًا، تصورت إمكانية تنفيذ خطتي بنجاح.

رحت أكرِّر لنفسي أن هذه الخطة لمصلحة لِيل لا أكثر. لا بد أن أبعدها وليستر عن المشكلات. لو اتَّصلنا بالمنزل الآن، مَن يدري ما قد يحدث. لكننا إذا ابتعدنا عن الأنظار، حتى نصل إلى مشفى «هوب» في سالَينا غدًا، فربما يُواصل ليستر وليل طريقهما دون أن يعلم أحد بمُساعدتهما لنا أو يلومهما ظلمًا على نقلنا بالحافلة.

تفحصت لِيل الغرفتَين قبل أن تُخصِّص غرفة للأولاد والأخرى لنا. مكثت وبوبي في الغرفة رقم ٢١٤، مع لِيل، وأقام الأولاد الثلاثة في الغرفة رقم ٢١٥.

همست لأخي قبل أن نَنفصل: «أجب الهاتف عندما يرنُّ الجرس يا فيش. التَقطِ السماعة ولا تَقل شيئًا. ابقَ على الهاتف، ودعْ بوبي تدخل الغرفة عندما تطرُق الباب. علينا أن نعتمد على بوبي الآن.» أومأ فيش برأسه علامة الموافَقة، وهو يختلس النظر إلى بوبي بارتياب، ثم تبِع سامسون وويل الابنَ إلى الغرفة ٢١٥.

فور أن دخلنا الغرفة المقابلة للمَمر، أشارت لِيل إلى الهاتف، قائلة: «اتَّصلي بوالدَيك يا بوبي رجاءً وأخبريهما بمكانك. لا بدَّ أن هذين المسكينَين في غاية القلق.»

نظرت إليَّ بوبي نظرةً ملتاعة، كأنها تسألني «ماذا عساي أفعل الآن؟» ومشت إلى الهاتف ببطء. التقطَت بوبي السماعة، ببطء شديد كأنها تَسبح في الماء، وراقبت لِيل وهي تخلع سُترتَها وتُعلِّقها على مقبض خزانة الملابس. كنت سأقفز من الفرح عندما أشعلت لِيل مصباح الحمَّام وأوصدت الباب خلفها.

ربما لا تَمتلك بوبي هِبَة خارقة من ذلك النوع الذي تمتلكُه عائلة بومونت، لكن آنَ أوان أن تستغلَّ مهارتها الفريدة. قبل أن تعود لِيل، هُرعت إلى جانب بوبي، وأخبرتها بما يجب أن تفعله تحديدًا. ونظرت إليَّ كأنني فقدت صوابي.

غنَّى الملاك في رأسي: «إنها تظنُّ أنكِ مجنونة.»

همست بوبي بحدة: «لا يُشبه هذا الأمر الاتصال بالمدرسة لخداع السكرتيرة يا ميبس. ماذا لو فشلت هذه الخطة؟»

لكنَّنا كنا نسمع لِيل تغسل يديها في الحمَّام، ولم يكن هناك متَّسع من الوقت للجدال. قلت وأنا أشير إلى الرقم المطبوع على هاتف النُّزل: «افعلي ما قلت فحسب.»

طلبت بوبي الرقم، وهي تَختلِس النظر إلى باب الحمَّام من وراء ظهرها، بينما تعقد اتصالًا بين الغرفتين. فتحت ليل باب الحمَّام، ودلفت إلى الغرفة، وهي تُعدِّل تنورتها وتفرك بقايا الفطيرة الجافة من مقدمتها. وتطلَّعت إلى بوبي التي بدأت تتحدَّث عبْر الهاتف.

قالت بوبي: «مرحبًا يا أمي، معكِ بوبي.» وكانت بوبي تنظر إليَّ بغضب أثناء تظاهرها بالحديث إلى أمِّها، وعلى الطرف الآخر من الخط بقيَ فيش صامتًا في الغرفة المقابلة عبْر الممر. لكن بوبي كانت مُمثلة بارعة؛ حتى إنني أثناء محادثتها القصيرة الأحادية الجانب، كنتُ أنسى أحيانًا أنها مزيفة، بينما انهمكت هي في الشرح للفراغ الصامت عن مكاننا، وكيف وصلنا إليه، وكيف سنذهب إلى مشفى سالَينا في اليوم التالي.

قالت بوبي بإلحاح: «لا، يا أمي، نحن بأمانٍ تمامًا. أَعِدك! أجل، يا أمي، يمكنك التحدث إلى ميبس. إنها هنا ...»

أدارت بوبي عينيها وأرخت كتفَيها بصورة درامية بينما تُناولني سماعة الهاتف. نظرتُ إلى لِيل بوداعة وتناولتُ السماعة من بوبي، على أملِ أن أبلغ نصف براعة بوبي في التظاهر. ألصقت السماعة بصدري لحظة، كأنَّني أبحث عن الشجاعة لأرفعها إلى أذني.

قالت بوبي، وهي تَلتقط مفتاح الغرفة، وتنهض لمغادرة الغرفة: «سأذهب لأتفقد الفتيان. تريد أمي التحدُّث إليك، يا لِيل، بعد ميبس»، ثم فتحت الباب وصفعته خلفَها. شحب وجهُ لِيل. وراحت تَقضم ظفر خنصرها وهي تتنفَّس نفسًا عميقًا. لم يُساورني

شكٌّ في أنها لم تتطلع إلى الحديث مع زوجة القس، وغشاني شعورٌ بالخزي والأسف لأنني خدعتُها. رُحت أذكِّر نفسي بأنني أفعل ما أفعل لأجل مصلحتها، ثم رفعت سماعةَ الهاتف إلى أذني، في اللحظة التي سمعت فيها بوبي تطرُق الباب في الطرف المقابل للممر.

أنشأت أقول: «السيدة روزماري؟ إنه أنا، ميبس. أنا آسفة ...» أخذت أحصي سكتاتي، بينما تحدَّثت بتردُّد في الهاتف، أُحاول أن أجعل الأمر يبدو كأنني أتلقَّى التوبيخ من السيدة روزماري.

كانت هناك جلبة في الطرف الآخر من الخط.

قالت بوبي: «ستَذهبين إلى الجحيم مباشرة يا ميسيسبي بومونت»، بصوتٍ يشبه صوتَ السيدة روزماري كثيرًا حتى كدتُ أُسقِط سماعةَ الهاتف من يدي من هول الصدمة. وضحكَت ضحكة مَكبوتة. ثم قالت: «أعطني تلك النادلة. وتضرَّعي.» كانت بوبي في غاية البراعة في هذا الأمر. رجوتُ في نفسي أن تتساهل مع لِيل المسكينة.

مددت سماعة الهاتف للِيل وابتعلتُ ريقي بصعوبة.

قلتُ: «إنها تريد التحدُّث إليك.»

حبست أنفاسي طيلة الوقت الذي تحدَّثت فيه لِيل على الهاتف مع بوبي/السيدة روزماري. لم أكن واثقة تمامًا مما قالتْه بوبي؛ لكنني التقطت كلمة أو كلمتين من كلام بوبي عندما كان صوتها يزداد حدَّة وعلوًّا ويتسرَّب من السماعة. لكن لِيل بذلت غاية جهدها في التأكيد على أن جميعنا في صحة جيدة وعافية وبين أيادٍ أمينة معها وليستر. وأعطَتْها اسم النُّزُل ورقم الهاتف.

قالت لِيل بتوتُّر: «من دواعي سرورنا أن نُعيد الصغار إلى منازلهم أو إلى مشفى سالَينا، يا سيدة ميكس، إلا إذا كنتِ تُريدين الحضور وأخذهم مباشرة.»

شعرتُ أن رئتيَّ على وشْك الانفجار. وددتُ لو يُمكنني سماعُ إجابة بوبي؛ فهذه الفتاة سريعة البديهة عندما يأتي الأمر إلى الخداع، وتردَّدتُ هل أُعجَب بها أم أشعرُ بالأسف نحوها لامتلاكها مثل هذه الهِبَة.

وأخيرًا، أشرَفَت المحادثة على نهايتها. قالت لِيل: «لا بأس يا سيدتي. إذن نلقاكم في سالَينا غدًا.

أجل، سيدتي ...

شكرًا لكِ يا سيدتي ...

ليباركك الرب أيضًا يا سيدتي.»

تصوَّرت بوبي في الغرفة المقابلة للممر، وهي تقول «ليباركك الرب» لِلِيل، بصوت السيدة روزماري الحازم. هززتُ رأسي، أدعو ألا تَتمادى بوبي في الأمر، وتمنَّيتُ أن تغلق الهاتف في الحال.

وضعت لِيل سماعةَ الهاتف أخيرًا، وبدأ اللون يعود إلى وجنتَيها الشاحبتَين.

قالت لِيل بابتسامة صغيرة: «لقد مضَت المحادثة على نحوٍ أفضلَ مما توقعت. تبدو السيدة روزماري تلك امرأة قوية صالحة. ستتصل بعائلتك وتُخبرهم أنكِ وأشقاءَكِ بخير يا ميبس.»

قلتُ بلا حماسة: «عظيم»، وأنا أشعر بدناءة شديدة من احتيالنا المزدوج.

سمعت المفتاح يدور في الباب وانفتح الباب. مشى بوبي وويل وفيش إلى الغُرفة بتُؤَدة، كمجموعة من القطط انتهت للتوِّ من الْتهامِ سربٍ كامل من عصافير الكناري. ولحسن الحظ، كانت لِيل تشعر بالراحة لأنها أغلقَت الهاتف، فلم تلحظْ ذلك.

الفصل الرابع والعشرون

قالت لِيل: «إن كنتُ سأتولَّى مسئوليتكم أيها الصغار إلى الغد، فيُستحسَن أن أشتري لنا بعض المُؤَن.» كانت لِيل في غاية الفرحة، على اعتقاد أنها حسَمَت الأمور ورتَّبتها مع عائلاتنا، حتى إنها بدَت أصغرَ من عمرها الحقيقي بخمس سنين وأكثر طولًا بثلاث بوصات. وسألتنا: «أيودُّ أحدُكم عبورَ الطريق معي؟ لقد رأيتُ متجر «ميجا ميجا مارت» بينما تتَّجه الحافلة إلى النُّزل ولديَّ بعض النقود المتبقية.»

هززنا رءوسنا علامة الرفض دون أن نقول شيئًا. وفكرتُ أنه من الأفضل أن نبقى بمنأى عن الأنظار. فرغم كل شيء، لا يزال الآخرون يبحثون عنَّا.

قالت ليل بصوتِها الرفيع: «لا أحد؟ حسنًا، لا بأس. لمَ لا تَجلسون في أماكنكم وتُشاهدون التلفاز إلى أن أعود.» وتحرَّكت لِيل لالتقاط جهاز التحكم عن بُعد، من فوق المكتب بجوار الهاتف، لكن فيش قفَز من مكانه، وانتزعه قبل أن تتمكَّن من الوصول إليه. لم يأمر البالغون الصغارَ بالذهاب لمشاهدة التلفاز دائمًا كما لو أننا لا نَملك شيئًا أفضل نفعله؟

قال فيش: «أمسكت به»، وهو يرفع جهاز التحكم عن بُعد في يده، ويبتسم ابتسامةَ فيش الجانبية الفريدة. نظرت لِيل إلينا، نحن الأربعة، ونحن منتشرون على الفُرُش والمقاعد في الغرفة.

وسألت: «أين ...؟»

قال فيش متوقعًا سؤالها: «سامسون بخير. إنه في الغرفة الأخرى. نحن بخير. يمكنك الذهاب للتسوق؛ وسنكون على ما يرام.» وابتسم ابتسامته الفريدة مرة أخرى.

قالت لِيل مرتبكة قليلًا: «حسنًا، لا بأس.» ونظرت نظرةً أخيرة إلينا قبل أن تغادر الغرفة كأن شيئًا مريبًا لا يزال يَستنفِر حواسَّها. وأضافت: «سأعود في لمح البصر؛ لن يستغرق الأمر أكثرَ من ٢٠ أو ٣٠ دقيقة.»

فورَ خروج لِيل من الغرفة، التقَطنا أنفاسنا، كما لو أننا كنَّا نَحبس أنفاسنا منذ أن بلغنا النُّزل.

قالت بوبي: «لا أصدِّق أنَّ خدْعتَنا نجَحَت.»

قال ويل: «ذكِّريني ألا أفشيَ سرَّك لأمي.»

قال فيش: «لدينا مشكلة أكبر»، وأفسد شعورنا الضئيل بالانتصار، عبْر تشغيل التلفاز والانتقال إلى قناة الأخبار المحلية. استغرق الأمر أقلَّ من دقيقة قبل أن تظهر صورنا على الشاشة بسرعة مُلحَقة بكلمات «تنبيه!» «مفقودون!» «تنبيه!» في الشريط السفلي من الشاشة، كما رأينا على شاشة التلفاز الصغير في مطعم إيمرالد.

تأوَّهَت بوبي التي لم تكن قد رأت نشرة الأخبار في المطعم مثلها مثل وِيل: «لا بد أنكم تمزحون!»

حدَّق ويل وشقيقتُه في الشاشة بفمٍ فاغر. أخذ فيش يرمي جهاز التحكم عن بُعد بيدٍ ويلتقطه باليد الأخرى، في استِسلام وتعاسة، كأنه يمسك بثمرة بطاطس ساخنة بيديه العاريتين.

قال ويل، وهو يهزُّ رأسه بعبوس، بينما تُعرض صورته على الشاشة: «يا إلهي نحن في ورطة. ربما كان يجدر بنا أن نتَّصل بالمنزل فعلًا.»

قالت بوبي: «من الحكمة أننا لم نفعل ذلك. هل تريد حقًّا أن تجتاح قوات الشرطة النُّزل الليلة؟ تعلمُ أننا لو اتصلنا بالمنزل، لاتصلت أمي بأخينا الأكبر، ولأتى إلى هنا في غمضة عين؛ كان سيأتي هو وجميع أفرادِ الشرطة المتمركزين ابتداءً من هُنا إلى توبيكا. ماذا سيحدث لليستر ولِيل حينها في اعتقادك؟ سيقعون في مشكلة كبيرة.»

أدار ويل رأسه بحدة وفجأة.

تابعت بوبي: «إن بِيل شخص مُفرط في الحماية نوعًا ما.»

قال ويل: «سيجنُّ جنونه»، وللمرة الأولى منذ أن بدأنا رحلتنا، بدا ويل تعيسًا حزينًا متألمًا.

أسكت فيش الجميع بزوبعة جيدة التصويب عنيفة، وبدا فَرِحًا بنفسه لوهلة، وقال: «صه!» ثم رفع صوت التلفاز.

«... وفقًا لمصدر قريب من العائلة فإنَّ والد الأطفال الثلاثة المفقودين هو أحد ضحايا حادث تكدُّس السيارات العشر الأخير على الطريق السريع ٨١ خارج سالَينا بكنساس. وقد أصيب الرجل بجروح بالغة ولا يزال فاقدًا الوعي ويَرقُد في حالة حرجة بمشفى «هوب» في سالَينا.»

ارتمَيت على غطاء السرير الزهري، وغطَّيت وجهي بيديَّ.

قال الصوت الغنائي داخل رأسي: «ستكون الأمور على ما يرام.»

نظرتُ إلى بوبي، ورأيتها تنظر إليَّ باهتمام. أومأت لي بوبي برأسها إيماءة واحدة.

كرَّر صوت الملاك: «ستكون الأمور على ما يرام.» ابتسمَت لي بوبي ابتسامة حنونة صغيرة؛ ظهرت على شفتيها ثم اختفت بسرعة كوميض شرارات روكيت.

نهضت الفتاة الأكبر سنًّا وأغلقت التلفاز. قالت: «يَنبغي أن يظلَّ هذا مُغلقًا» وهي تنقل بصرها مني إلى ويل ثم فيش. أومأنا برءوسنا جميعًا علامة الموافقة، وشاهدناها وهي تنزع القابس من المقبس على سبيل الاحتياط.

وقالت بوبي لنا جميعًا: «ستكون الأمور على ما يرام.»

عادت لِيل بعد مرور ساعة تقريبًا، بابتسامة عريضة تتلاءم مع جسدها، والعديد من أكياس «ميجا ميجا مارت». أفرغت لِيل محتويات الأكياس على أقرب فراش لها.

قالت، ونحن نتفقَّد كومة الأغراض والدهشة تعلو ملامحنا من كثرتها: «اليوم يوم حظكم السعيد يا صغار.» كان هناك جبل من ألواح الشيكولاتة، والتيشرتات، والبطاطس المقلية، ومُلمِّع شفاه باللونين الوردي والأحمر، وحلوى «بوب تارتس»، وأوراق اللعب، والمجلات، وأعواد تنظيف الأذن، وطلاء الأظافر، وأقلام الشمع الملونة، وشريط لاصق مُقوًّى، وحقيبة إسعافات أولية جديدة، وربطة عنق نظيفة جديدة من أجل ليستر، ولعبة الزنبرك، وسبع فُرَش أسنان، وستة أقدام من علكة «سنابي بابل تِيب» بطَعم الفراولة من أجل بوبي، وخمسة أزواج من الشباشب، وأربع عبوات صغيرة من مزيل العَرق، وعلبة أمشاط، والمقرمشات المالحة على هيئة حيوانات، وملابس داخلية، وملابس سباحة.

ضحكت لِيل. وقالت: «لقد واصلتُ التسوق حتى تأكَّدتُ من إنفاق كل الدولارات التي جعلني أوزي ألتقطها من الأرض. كانت هذه النقود بغيضة للغاية، مثل ذلك المطعم، فلم أشأ التعلُّق بها.» ثم قذفت إلى فيش لباس سباحة. وأضافت: «اضطررتُ إلى تخمين المقاسات كلها؛ لذا قد لا تكون المقاسات مناسبة تمامًا.»

سألت، وأنا أمسك لباس سباحة أرجوانيَّ اللون بشرائط صفراء بدا كأنه صُنع خصيصًا لي: «أيمكننا السباحة؟»

قالت لِيل: «الأطفال والمسابح ... حسنًا، مثل الطيور والسماء، أليس كذلك؟ وفوق ذلك، حتى الأطفال الأشقياء من حقهم الاستمتاعُ في بعض الأحيان.»

حدَّقنا جميعًا في لِيل مندهشين.

ضحكت لِيل مرةً أخرى: «حسنًا، هيَّا، توقفوا عن التحديق فيَّ كما لو أنني سقطت من السماء، وغيِّروا ملابسكم. ما فائدة وجود المسبح بلا أطفال داخله؟ سأذهب إلى الحافلة لأتفقد ليستر؛ فلديَّ بعضُ الأفكار التي قد تنفعه بشأن توصيل كل هذه الكتب المقدَّسة الوردية. أظن أنه يحتاج إلى نهجٍ مختلِف. يجب أن يثقَ ليستر بمهاراته الخاصة.» ولوَّحت بالشريط اللاصق في الهواء. ثم عقَّبت: «إنه بحاجة أيضًا إلى بعض المساعدة في تغطية كل النوافذ المكسورة في حافلته.»

وضعت لِيل بَكْرة الشريط اللاصق حول رُسغها مثل سوار فضِّي كبير والتقطت ربطة العنق الجديدة، لكنها لم تكن ورديةً وإنما زرقاء وبها بعض الخطوط الخضراء. ملَّست لِيل على ربطة العنق الحريرية بأناملها، وهي تَبتسِم لنفسها؛ لم يكن ليستر الوحيد الذي يستخدم جاذبيته هُنا. ربما قد تُثمر هذه الفَوضى الكبيرة التي تسبَّبت بها خيرًا على أي حال.

الفصل الخامس والعشرون

عاد الفتيان إلى غُرفتهم في الطرف المقابل عبر الممر، لارتداء ملابس السباحة الزاهية الألوان التي انتقتها لِيل من أجلهم. دخلت بوبي الحمَّام، وهي تحمل بسعادة لباس سباحة، لونه أحمر قانٍ. بدَّلت ملابسي بأقصى سرعة مُمكنة، وارتديت لباس السباحة الأرجواني المكوَّن من قطعة واحدة، وقد تملَّكني الإحباط لأنه كان فضفاضًا للغاية، رغم وجود مختلف الشرائط والأربطة التي بذلت غايةَ ما في وسعي لربطها على النحو السليم.

لم أشعر بالخجل وأنا أرتدي زي سباحة قبل ذلك اليوم، لكن كانت الأشياء تتغيَّر في حياتي بوتيرة سريعة عجزت عن مواكبتها؛ لذا شعرت بالخجل قليلًا من التعرِّي بزي سباحة يلائم فتاة تكبرني سنًّا. شرعت أرتدي تيشرت كبيرَ المقاس عندما ظهرت بوبي من الحمام نحيفةً وجذابة وشابة يانعة في ثوب السباحة الذي يُناسبها تمامًا. لوت بوبي أنفَها عندما نظرت إليَّ.

سألت: «لمَ تَرتدين تيشرت؟»

أجبت: «زي السباحة خاصَّتي فضفاض.»

قالت: «أريني إياه.»

خلعتُ التيشرت وتركتُ بوبي تُصلح الأربطة الصفراء. وعندما انتهت، احتضن زي السِّباحة جسمي على نحوٍ أفضلَ بكثير.

قلت بضعف، ولا يزال بي بعض الخجل من تنحية التيشرت جانبًا: «شكرًا لك.»

هزَّت بوبي كتفَيها. وقالت: «لا بأس.» غادرنا الغرفة، وتأكدنا أنه لم يرَ أحد ذهابنا أو إيابنا، وانضمَمنا إلى الفتيان في المسبح بالأسفل.

بدا جوُّ الغرفة ساخنًا ورطبًا، وغطَّى جدرانَها بلاط أخضر مُصفَرٌّ، وزيَّنتها الأشجار والنباتات الصناعية المغبرة. كان المسبح صغيرًا، على هيئة حبة فاصوليا، لكن ذات حجم

مناسب يسع أربعة أطفال. كان سامسون مختفيًا، لكن لم يَقلق أحدٌ بشأنه؛ لقد اعتاد الجميع اختفاءه بعد كل هذا الوقت.

وجدت وِيل في المسبح، وقد تبلَّل شعره، وراح يتقاطر على عينه المسودَّة. أما فيش فقد وقف على حافة المسبح بذراعَين معقودتين فوق صدره، يُحدِّق في الماء بنظرة عازمة، أضفَتْ لمسةً قاسية على وجهه المخدوش.

سألتُ أخي بحذر: «هل ستَدخل المسبح؟» وراقبت بوبي — حيث ارتعش الملاك على ظهرها وأمسك بذيلِه العابث المستدق بإحدى يدَيه بينما امتدت يده الأخرى للإمساك بهالته — أثناء دخولها إلى الماء أمامي. ضحك فيش ضحكته الجانبية وأومأ برأسه.

قال ببساطة: «أنا بخير.»

أجبت: «رائع.»

«أشعر بالبرد ... بالبرررد.» أحاط الماء بصورة الملاك الصغير أثناء غطس بوبي في المسبح، وازداد صوته الواهن في رأسي خفوتًا وتشوشًا.

انبثق ويل الابن من الماء فجأة، وأمسك برُسغي، وسحبني إلى المسبح بجواره، ناثرًا الرذاذ في الأنحاء. حاولت إعادةَ رأسي إلى السطح، وإبعاد الشَّعر عن عيني، لأجد وجه ويل قريبًا من وجهي، ويده لا تزال تمسك برُسغي بلطف تحت الماء. اقترب مني ويل، ولمس شفتيَّ بشفتَيه لمسةً بنكهة الكلور والملح بسرعة وإحراج، كأنه انزلق وارتطم بهما بسبيل الخطأ. وحدث الأمر بسرعة شديدة، لدرجةِ أني لم أَجد ما يكفي من الوقت للتجاوب، لأجد قُمعًا متراقصًا من الماء يصطدم بقوة بجانب رأس ويل.

أفلت ويل رُسغي من قبضته، وهو يسعل ويبصق الماء، مُحاولًا التعافي من الماء الذي اندفع في أنفه. ثم نظر إلى فيش الذي كان لا يزال واقفًا بملابسه الجافة تمامًا بجوار المسبح، عاقدًا ذراعيه فوق صدره، وقد حُفرَت على وجهه ابتسامةٌ ماكرة مختالة ومغرورة.

قال فيش: «لن يحدث مثل هذا الأمر مع أختي.»

في البداية، ظننتُ ويل سيَنفجر غاضبًا، وهيأت نفسي لشجار آخر. لكنه ابتسم لي ابتسامة شقيَّة، ثم تحرَّك ناحيةَ فيش على نحوٍ مُباغت، وضرب الماء أمامه براحتَي يدَيه بقوة، فنثره على أخي.

سأل ويل: «أَخبِرني فحسب. كيف تفعلها؟»

أخذ فيش نفسًا عميقًا جدًّا، كأنه يزيح عن كاهله عبء سنة كاملة من الخوف، وقفز في الماء مثل قذيفة مدفع رشاش كبيرة، وانخرط الصبيَّان في حرب مائية ودية لكنها قوية

للغاية؛ وكان لفيش فيها اليد العُليا بلا شك. أما أنا، فكنتُ لا أزال أشعر بالدُّوار من قُبلة فيش العذبة-المالحة السريعة، فحُمتُ في الماء مُمسكة بحافة المسبح الأسمنتية، وراقبت الماء حولي يرتفع ويزيد، بينما تكسَّرت الأمواج فوق الفتيَين وتناثرت على جانبي المسبح. أصدرت أوراق الأشجار الصناعية المتراصة في الغرفة حفيفًا نتيجةً لتيارات الهواء، وانقلبت سلال أشجار التين ونخيل الصالون الاصطناعية على أرضية الغرفة المُبتلَّة. لكن سيطر فيش على الوضع جيدًا ولم يتسبَّب في أضرار دائمة.

تصوَّرت كم سيكون أمي وأبي وجَدِّي بومبا فخورِين عندما يجدون فيش قد صارع هِبَته الخارقة وخرَج منتصرًا، وتساءلت ما إذا كان فيش سيَرغب في العودة إلى مدرسة هيبرون الآن؛ لكن ألن يشعر روكيت بالانزعاج والغيرة الشديدة؟ ربما ستَنقطِع الكهرباء في منزلنا لمدة أسبوع بسبب اكتئاب روكيت.

ازدادت حدَّة الحرب المائية، وسحبَتْني بوبي إلى الماء الهادئ عند الطرف الضحل من المسبح، وجلسنا على دَرَج المَسبح، يُغطِّي الماء نصفَنا ويَنحسِر عن نصفنا الآخر، ورحنا نراقب الباب ونُشاهد شقيقَينا يكاد يُغرِق أحدهما الآخر مرةً تلو الأخرى. صار صوت ملاك بوبي في رأسي مكتومًا ومُتقطِّعًا كثيرًا، وخفتت حدَّته شيئًا فشيئًا في غرفة المسبح المدوية الصاخبة. ومِن حين إلى آخر، كان ويل يُرسل لي ابتسامة، لكنَّني تردَّدت بين رغبتي في مبادلته الابتسام والغطس تحت الماء.

قالت بوبي وهي لا تزال تُشاهد الفتيَين: «إن ويل يُحبك كثيرًا. أعتقد أنه وقع في غرامك منذ اليوم الأول الذي حضرتِ فيه إلى الكنيسة.» ورغم معرفتي بهذه المعلومة، فإنَّ وجهي احمرَّ واشتعل خجلًا؛ إذ أربكَني إعلان بوبي هذه الحقيقةَ بصوتٍ عالٍ، وشعرت أني صغيرة جدًّا وكبيرة جدًّا في الوقت نفسه.

تذكَّرت أبي وهو يُهديني فستان المناسبات الخاصة منذ بضعة أيام.

قال: «فكَّرت أن ابنتي الصغيرة تَستحِق فستانًا جميلًا وجديدًا كي ترتديه في عيد ميلادها الخاص.» دائمًا ما يناديني أبي بابنته الصغيرة. لكنني لم أعُد تلك البنت الصغيرة بعد الآن. صرتُ مُوقِنة بذلك الآن.

سألت بوبي: «إذن هل تُحبِّين وِيل؟»

لم يكن عقلي قادرًا على الإجابة بشكل حاسم، واستحالت وجنتي من اللون الوردي إلى اللون الأحمر. هززت كتفيَّ هزَّة تركتهما في وضعية أعلى مِن وضعيتَيهما السابقة بمقدار بوصتين، فاندست رأسي بينهما مثل سلحفاة سامسون غير الميتة، وقلتُ: «لا أدري. ربما.»

نظرت بوبي إليَّ، ومما أثار دَهشتي أنها ابتسمت. لكنَّها لم تَبتسِم تلك الابتسامة الماكرة التي تزحف إلى شفتَيها عادةً أو الابتسامة السرية السريعة التي تركتها تتسلَّل إلى شفتَيها في غرفة النُّزل. لا، كانت هذه الابتسامة بعينها، ابتسامةً فرِحة وطويلة، من ذلك النوع الذي يُعطيه الصديق لصديقه في وقت الشدَّة.

قالت بوبي: «لا بأس. لا تَقلقي. صدِّقيني، خذي ما يكفيك من الوقت.» شعرت أن هذا الكلام مُضحك لأنه صدر مِن بوبي التي بدت، رغم كونها في السادسة عشرة، على أُهبة الاستعداد للجري. وكما لو أنها تُريد أن تُعطي لما قالته مزيدًا من التأكيد، أطلقت تنهيدةً حزينة قصيرة، ونقرت سطح الماء بإصبعها. ثم قالت: «من المؤسف أن روكيت ليس هنا. ففي كل مرة يأتي فيها إلى الكنيسة، تبدو الغرفة وكأنها مشحونة بالكامل. أظنُّ أنه سيكون من الممتع تقبيله.»

نظرتُ إلى حاجبِ بوبي المثقوب ولباسِ السباحة الأحمر القاني ذي القطعتَين وحاولت أن أتخيَّلها وهي تُقبِّل أخي وما سيَحدث مِن شرارات وما شابه.

وسألتها: «علامَ كلُّ هذه العجلة؟»

زمجرت بوبي مزدرية. وأجابت: «يُمكنك قراءةُ العقول. لذا جاوبيني أنتِ.»

صببتُ تركيزي على بوبي، وحاولت الإنصات إلى أفكارها. حاولت الاستماعَ إلى ما تُفكِّر به، حاولت إصاخةَ السمع لوشمها الملائكي داخل رأسي، لكنه كان صامتًا … مُختفيًا تمامًا. كل ما استطعت سماعَه هو صوت التناثُر الصاخب للماء وأصداء ضحكات الفتيين تتردَّد بين الجدران.

قلت بعد هُنيهة: «لا أستطيع. ولا… لا أدري السبب.» ثم تذكَّرت أول كلام قاله لي الصوت الموسيقي. لقد مرَّت بضع ساعات فحسب على هذه الحادثة — في مطبخ الكنيسة في هيبرون — لكنها بدت مثل عُمرٍ بأكمله.

«إنها تشعر بوحدة شديدة حقًّا، كما تعلمين …»

سألتُ بعد تفكير: «هل من الصعب أن تكون ابنة واعظ؟»

نظرت بوبي إليَّ بحدة. وسألت: «ماذا تعنين؟»

قلتُ وأنا أفكِّر في أمي وهِبَتِها الخارقة: «أتصوَّر أنه قد ينتظر الآخرون منكِ التصرُّف بمثالية طيلة الوقت، حتى وإن كنتِ تُريدين التمتُّع بحرية الخطأ، مثلكِ في هذا مثل غيرك. وأتوقَّع أنكِ ربما تشعرين بالوحدة أحيانًا.» لم تَقُل بوبي أيَّ شيء؛ لذا واصلتُ الكلام بجرأة أكبر، واسترخَت كتفي مِقدار بوصة، فبرز رأسي كما يخرج رأس السلحفاة من صدفتها.

وأضفتُ: «قد يُفسر هذا رغبتَك في المضي قُدُمًا بسرعة وإبعاد الآخرين عنكِ. ربما لا تُريدين الاضطرارَ إلى ضرب مثال الواعظ الذي لا تشوبه شائبة.»

قالت بوبي، وهي تُقرِّب ركبتَيها إلى صدرها على دَرَج المسبح، وتحتضنهما بذراعَيها بقوة: «ظننتُ أنكِ قلتِ للتوِّ إنك لا تستطيعين قراءة عقلي.»

أجبت: «حسنًا، هذا مجرَّد تخمين. فملاكك الصغير لا يتحدَّث كثيرًا في اللحظة الراهنة. ربما كان ذلك بسبب الماء.»

نظرت بوبي إليَّ بتساؤل وقالت: «ملاكي؟»

قلتُ: «الوشم. أقصدُ وشمَ الملاك ذي الذيل العابث. ذلك الوشم الذي رسمتِه على ظهرك. هذه هي الطريقة التي أسمع بها الأصوات — لا بدَّ أن يكون هناك وشمٌ أو حبر مرسوم.»

ردَّت: «أتعنين أنك تستطيعين قراءةَ عقلي لأنَّني حصلت على وشمٍ مؤقت هذا الصباح؟»

كررت: «مؤقت؟»

نهضت بوبي، واستدارت في محاولةٍ غير مجدية لرؤية الوشم، وقالت: «حسنًا … أجل. هل ظننتِ هذا الوشم حقيقيًّا؟» عندما نظرت، اندهشتُ إذ وجدت بضع لطخات من الألوان على بشَرتها كأنها نَمش، مكان الملاك، بينما انمحَت بقية صورته تمامًا، بواسطة الماء والمواد الكيميائية في المسبح. ولوهلة شعرت بالحزن قليلًا؛ إذ أدركت أن صوته قد ذهب للأبد. لكن غشاني شعور بالراحة عمومًا. وتنفَّست الصُّعداء لأنه يمكنني التعرُّف على بوبي الآن بالطريقة الطبيعية، أو لا أتعرَّف عليها على الإطلاق، إنَّ قرَّرنا ذلك.

تنهَّدت بوبي، وهي تَجلِس بجواري على دَرَج المسبح. وسألت: «ميبس، هل خطر ببالك من قبل أن حياتك مجرَّد حُلم غريب ستستيقظين منه يومًا ما وتجدين نفسك شخصًا آخر تمامًا؟» ثم نزلت درجة حتى غطَّى ماء المسبح فمَها وكاد أن يبلغ أنفَها. وصنعت فقاعات من الهواء صغيرة أمامها وأغلقت عينَيها. اهتززنا وتمايلنا في الماء المُضطرِب بسبب معركة الفتيَين المائية.

فكَّرت في سؤالها مدةً طويلة. شعرت أن شَعري بدأ يجف، وأطراف أصابعي وقدمي تتغضَّن وتتجعَّد. لو قال لي أحدٌ الكلمات نفسَها بالأمس، لربما لم أُلقِ لها بالًا. لكن الكثير من الأمور تتغيَّر في غضون يوم.

الكثير حقًّا.

الفصل السادس والعشرون

عُدنا إلى غرفنا، ووجدنا سامسون مُتكوِّرًا في استكانة كحشرة، تحت الطاولة في غرفة الفتيان، غاطًّا في النوم ولاصقًا لعبة الزنبرك من «ميجا ميجا مارت» بوجهه، على نحوٍ سيترك أثرًا مُضحكًا على وجهه في الصباح بلا شك. كان سامسون قد انتزع أحدَ أغطيةِ السرير الزهرية الخاصة بالنُّزل، وأسدلها فوق المائدة مثل الخيمة، تاركًا السريرَين لويل وفيش، لكنه أخذ الوسائد كلها. أما في غرفة الفتيات، فقد استأثرَت بوبي بسريرٍ لنفسها، وتقاسمتُ أنا السرير الآخر مع لِيل وقدمَيها الملائكيتَين الكبيرتَين وشخيرها المُدوِّي.

قبل أن تغطَّ لِيل في النوم، تنهَّدت. وقالت بهدوء: «لا يستطيع المرء الجزمَ متى تتحول الابتلاءات إلى ألطاف»، وفي البداية، لم أَعرِف هل كانت تخاطب نفسها أم تخاطبني.

لم أستطِع النوم بسهولة في تلك الليلة. كانت حشيَّة السرير غليظة، ومَلمس الأغطية خشنًا على وجنتيَّ. طاردَتني كلمات لِيل، وجعلَت عقلي يركض، كفأر في عجلة دوَّارة. فكَّرت في الفتيان في الجهة المقابلة عبْر الممر، وفي قُبلة ويل في المسبح. فكَّرت في ليستر على سريره النقَّال في الحافلة، وفي لِيل التي تنام بجواري حالِمة به. فكَّرت في بوبي وكيف أنها بدت أشبه بصديقة إلى حدٍّ كبير. ثم انتقلت أفكاري إلى الرجل المشرَّد خلف المطعم وأبي القابع في سريره في مَشفى «هوب» بسالَينا، وتساءلت هل سيجد أيٌّ منهما اللطفَ في هذه الابتلاءات التي حلَّت بهما.

قبل حادثة أبي، كانت أكبر نازلة نزلت بي في حياتي هي وفاة جَدَّتي دالاب. تذكَّرتُ كيف وقفتُ بجوار أبي في جنازة جَدَّتي عندما كنت في العاشرة من عمري. لم يَترك أبي يدي طيلةَ الوقت حينها. وفي المقبرة، دُفنت جَدَّتي في مَثواها الأخير، مُحاطة بالزهور والأقارب. وتكدَّست أوعية أغانيها الإذاعية المفضَّلة على نعشها وحوله وداخله، كما لو كانت جَدَّتي من فراعنة مصر، وتأخُذ كنوزها معها.

كانت هناك الخالة دينا وخالي أوتري بصُحبة عائلتَيهما، بالإضافة إلى عدد من خالات أمي وأعمامها المُتبقين على قيد الحياة، وأبناء العمومة من الدرجة الثانية الذين تمكَّنوا من القدوم إلى الجنوب. كما حضرت شقيقةُ جَدَّتي ذاتُ اليد الخفيفة، جوبلي، لكن حرصت أمي على إخفاء كل مجوهراتها ومراقبة الفضيات عند قدومها إلى منزلنا من أجل العزاء.

لم يكن هناك مثيل لجنازة جَدَّتي. جلست أمي وخالتي دينا، جانبَي جَدِّي، مثلما يحيط الغلاف القوي بكتاب، وعانق ذراعاهما ذراعيه، كي تمُدَّاه بالدعم أثناء إلقاء الواعظ لخطابه وتلاوة صلواته.

لكن عندما بلغ الواعظ كلمة «آمين» الأخيرة، أطلق الحزن والأسى عِنان هِبَات الصغار والكبار على حدٍّ سواء. فضربَ برقٌ شجرةً مُجاورةً. واحتشدت اليعاسيب والنحل الطنَّان في الهواء المتاخم للنعش، مُتمايلًا ومندفعًا مثل مصفوفة من الألعاب النارية الحيَّة. واشتدَّ العشب على سُوقه تحت أقدامنا ونما، وتفتَّحت الأزهار في براعمها وراحت تملأ الجو بعبَقِها المُسْكر. وانطلقت الرشاشات تحت الأرض مثل نوافير المياه المُتراقصة، وأحاطتنا جميعًا بعرض كبير من فوَّهات المياه المتراصَّة، ومع ذلك لم تسقط قطرةُ ماء واحدة على المعزِّين.

في النهاية، عندما انهمرت دموع جَدِّي بومبا على وجنتَيه، بدأت الأرض تتزلزل. اهتزَّت شواهد القبور والمقاعد القابلة للطي وارتجَّت للأمام والخلف مع الجالسين فوقها الذين راحوا يتشبَّثون بها بإحكام. وارتجَّت الأرض بعنف، وبدأت أوعية جَدَّتي الزجاجية تَنقلِب رأسًا على عقب وتتهشَّم، فامتلأت الأجواء بأصوات صاخبة. تسرَّبت إلى الجو موسيقى الأرجن وجوقات الإنجيل والأغاني الشعبية الغربية الريفية وإيقاعات البولكا مثل نِثار الحفلات الزاهي الألوان. وحطَّت الأصوات العظيمة على النسيم بكلمات عَذبة وحادة، وخطابات مؤثرة وقوية. كانت هناك كلمات مثل «الحُلم» و«الحريَّة» علِقت بالهواء عبْر أصوات النساء والرجال والأطفال.

أحاطني أبي بذراعَيه، وأغلقنا أعينَنا، وأنصَتنا معًا إلى عرض الأصوات، وموكب النغمات، وموجات الراديو المُتبدِّدة من هِبَة جَدَّتي دالاب الخارقة.

هذه الذكريات وغيرها تدفَّقَت في عقلي، وأنا أتقلَّب في سرير النُّزل، خارج لينكون. رُحت أُذكِّر نفسي أن هذا الهرب والصخب والعناء من أجل أبي. كل ما حدَث هو مِن أجل أبي فحسب.

لكنْ ثمَّة شيء ما، بخصوص هذه الفِكرة، أزعجني؛ ثمَّة شيء ما أربكني في أعماق أعماق مَعِدتي وأصابني بالتشنُّج والاضطراب.

لقد هربت من أجل أبي ... أليس كذلك؟

لقد فررتُ من كنيسة هيبرون، وأنا أعتقد أنني مُضطرة إلى هذا الأمر؛ كنتُ على ثقة من قدرتي على إيقاظ أبي وإعادة الأمور إلى نِصابها. لكنَّني الآن، وأنا مُستلقية في غرفة النُّزل «سليبي لينكون ١٠»، بتيشرت «ميجا ميجا مارت» الذي لا تزال رُقعة السعر ملتصقة به وتحُكُّ بعنقي، خطر ببالي أنه ربما لا يكون أبي السببَ الوحيد وراء هربي من الكنيسة. أن تهرُب يعني أنك تفرُّ من شيءٍ ما. عندما خرجتُ من كنيسة هيبرون، كنتُ أهرب لأبي، لكن ربما — ربما — كنتُ أهرب من شيء آخر. ربما كنت أهرب من هِبَتي الخارقة التي لم أتمنَّها وأتَتني على حين غِرَّة. ربما كنتُ أهرب من حقيقة أنني أكبر في العمر وأن حياتي تتغيَّر بسرعة وحتمية وإثارة ورُعب مثل شرارات روكيت أو أعاصير فيش أو حتى قُبلتي الأولى. وهكذا سلبت هذه الأفكار النومَ من عيني حتى وقتٍ متأخِّر من الليل.

دخل الفتيان إلى غرفتنا، بعدما دقَّت الساعة التاسعة في صباح اليوم التالي، وهم يُحاولون ألا تسقط من أيديهم صحون الفلين الأبيض التي تحتوي على حلوى الوافل المقرمشة الثخينة وأكواب عصير البرتقال البلاستيكية التي أحضروها من مائدة الإفطار بالطابق السفلي. كان ويل الابن يرتدي تيشرتًا طويلًا أسودَ اللون من «ميجا ميجا مارت» وشعره أشعثَ متشابكًا. منذ هروبنا من هيبرون، أهمل ويل تمامًا ذلك المظهر الجاد جدًّا الذي كنتُ أراه به دائمًا.

قالت لِيل، وهي تَفتح الستائر، حتى كادت تُصيبني بالعمى بأشعة الشمس الصباحية: «لقد تأخَّر الوقت. لقد تركتكما تنامان فترة طويلة.»

قال ويل دافعًا بحلوى الوافل اللزجة المحُلاة بالشراب نحوي: «حان وقت الاستيقاظ أيتها الجميلة النائمة.»

همستُ بحرص حتى لا تسمعني لِيل: «هل نزلت إلى الطابق السفلي؟ هل رآك أحد؟»

انحنى ويل بالقُرب من أذني، وهمس: «لم يرَنا أحد يا ميبس»، قبل أن يَجلس على حافة السرير بجوار فيش الذي شرَع في تناول وجبة إفطاره.

كانت بوبي في الحمَّام، وقد مكثت وقتًا طويلًا للغاية تتجهَّز للرحيل، بينما تجادلت لِيل مع سامسون وعبثَت، تُحاول أن تمشط شعرَه الداكن الكثيف بالمشط قبل أن يُفلت من قبضتها ليختبئ في تجاويف خزانة النُّزل الفارغة. وفي الطرف المقابل لي، جشَّأ فيش تجشئةً مدعاة للفخر، وأطلَقَ ويل الابن تَجشئةً تُطابقها في الطول والحدَّة، كأنه يحاول تحطيم الرقم القياسي العالمي.

نظرت إليهما بازدراء بينما انشغلت بتقطيع حلوى الوافل. قلتُ بنبرة توبيخية، أُحاول ألا أكشف أنني لا أزال مُضطربة من قبلتِه في المسبح: «ظننتك تُريد أن تُصبح مثل أبيك يا ويل الابن عندما تكبر.» لكنه ابتسمَ لي وغمز بعينِه.

وقال: «هذا ما أريده.»

أطلق فيش شخيرًا هازئًا، ونكز ويل في أضلاعه بمرفقِه، وتقاطر الشراب المُحلَّى مِن شوكتِه على الأرض. ثم قال بفم مَلِيء بالوافل: «لا تَقُل لي إن القس ميكس يستطيع التجشُّؤ على هذا النحو.»

أجاب ويل بابتسامة عريضة عديمة الحياء: «لا يَستطيع القس ميكس فِعل ذلك.»

اختارت لِيل هذه اللحظة بعينِها لمُحاوَلة تشغيل التلفاز وتفقُّد حالة الطقس. فاستدرنا إليها جميعًا صارخين: «توقفي!» حتى كادت المرأة المسكينة تبسط أجنحتها وتطير من فرط رعبها. وقَف فيش بسُرعة بالغة، فسقط صحن الوافل الخاص به على الأرض. وارتطم بويل، الذي دفَع بمرفقه كوب عصير البرتقال البلاستيكي القابع على طاولة السرير بجواره، فانسكب وسال داخل الدُّرج بما احتوى عليه من كتاب مقدَّس ودليل الهاتف وقسائم خصم توصيل البيتزا. فتحت بوبي باب الحمام ودلفت إلى الغرفة في الوقت المناسب كي نتسارع للحصول على المناشف والماء.

طرق ليستر الباب عندما بدأت الأمور تعود إلى نصابها. كان يَلبس ربطة العنق الجديدة التي اشترتها له لِيل، مع قميص نظيف وبدلة عمل جديدة.

قال ليستر بابتسامة عريضة خصَّ بها لِيل وحدها: «حان وقت الذهاب.» عدَّلت لِيل عقدة ربطة عنقه، وبادلته الابتسام، ومسحت بيدِها على صدره برفق.

قالت لِيل بابتسامة مُشرِقة: «تبدو جذابًا يا ليستر.»

كان البقية على استعداد للرحيل؛ لذا ارتديت ملابسي بأقصى سرعة في الحمام. فرَّشت أسناني ومشَّطتُ شعري. ووضعت ملمعَ شفاه أحمر به بعض اللمعة، كانت بوبي قد تركته على المنضدة، قبل أن أعدل عن الأمر وأمسحه بمنديل ورقي. قبل أن أُغادر الحمام، دسست بابتهاج قِطعة صابون مُغلفة بالورق في جيب فستاني الذي كان لا يزال يَحمِل القلم الذي أعطاه ويل لي في عيد ميلادي. ثم انضممتُ إلى الآخرين، واجتَزنا جميعًا الممر بنعال «ميجا ميجا مارت» الجديدة، تحت قيادة لِيل وليستر، باتجاه الطابق السُّفلي، ناحية حافلة شركة «هارت لاند» لتوريد الكتب المقدَّسة، مثل سرب من فراخ الإوز المسطَّحة الأقدام، ورُحنا نراقب الأجواء كي نتأكَّد من عدم وجود عيون مُتطفِّلة.

كانت لِيل تسير أمامي مُعلَّقة يدها الضخمة بذراع ليستر، وحاولت ألا أصيخ السمع إلى ثرثرة كارلين وروندا المُسهبة بشأن حبيبة ليستر الجديدة؛ وإن بدَت أصواتهما اليوم أقل صخبًا وبذاءة من عادتها.

قالت روندا: «اعتقدتُ أن بُنيَّ لن يجد لنفسِه امرأة لائقة أبدًا. أظن أنه سيفسد الأمر.»

«امرأة لائقة؟ وماذا عني أنا؛ ألا أليق به؟ ليس خطئي أن ليستر لا يرى الخير ولو كان نصب عينيه.»

أجابت روندا غاضبة: «لطالما رأى ليستر الخير في كل شيء. ولكنك يا كارلين لست سوى عجوز عجفاء لا خير فيها.»

فكَّرت في السيدتَين وتذمُّرهما وشكواهما، وتزاحمت برأسي الأسئلة. إذا كنت أستطيع أن أستنتج أفكار ليستر ومشاعره من خلال الاستماع إلى تلك الأصوات في رأسي، فلماذا تتحدث هاتان المرأتان دائمًا عنه كأنه ليس موجودًا؟ ولماذا تَجرحان مشاعره بصفة مستمرة؟ لا بد أن لهاتين السيدتين تأثيرًا قويًّا عليه؛ لذا فإنه لا يسمع إلا أصواتهما بصوتٍ عالٍ للغاية. هل استمد ليستر تعريفه لنفسه من ثرثرتهما البغيضة؟ لا ريب أن الرجل يتلعثم ويَرتعش.

وفكَّرت أنه ربما كانت هذه حالة الجميع. ربما تَسري أصوات الآخرين في رءوسنا طيلة الوقت على نحوٍ فوضوي. تذكَّرت كيف كنتُ أسمع صوت أبي وأمي في رأسي، في كثير من الأحيان، وهما يُساعدانني في تمييز الصواب من الخطأ. تذكَّرت كيف كانت أصوات أشلي بينج وإيما فلينت تَسري تحت جلدي، لتُضايقني وتُشعرني بالإحباط، حتى وإن لم يكونا في الجوار. وبدأت أدرك صعوبةَ عزل كل هذه الأصوات لسماع الصوت القوي الوحيد القادم من داخلي.

صعدتُ حافلة «هارت لاند» لتوريد الكتب المقدَّسة الوردية الكبيرة، في صباحٍ دفيءٍ مشرق، وحاولت تجاهل أصوات كارلين وروندا؛ وأرهفت السمع لعلَّني أجد بقية من صوت ليستر نفسه داخله. وكلما شاهدته واستمعت إليه، اتضح لي بجلاء أنه ما إن تَبتسِم لِيل له أو تتحدَّث إليه أثناء سفرنا عبْر الطريق السريع، تَفقد أصوات كارلين وروندا سيطرتها ونفوذها. أنارت لِيل حياة ليستر مثل الشمس. وعلى ذراعيه، حيث رفع كمَّيه، تبدَّد وجها المرأتين العابستَين واستحالا خطوطًا سوداء رفيعة في وشوم هامدة.

راوَدَني شعور أنه ربما كانت لِيل ملاكًا؛ ربما كانت ملاكًا أُرسل إلى ليستر من السماء لإزالة الأصوات من رأسه.

أشحتُ بنظري عن لِيل وليستر، واخترت مقعدًا عند إحدى النوافذ القليلة التي سلِمت من الشروخ أو الورق المقوَّى أو الشريط الفضي اللاصق. تطلَّعت من النافذة، والحافلة ترتجُّ وتشقُّ طريقها نحو وايمور ونقطة توصيل ليستر التالية، ورحت أتأمَّل المساحات اللامتناهية من حقول الذُّرة الشهباء. كانت الأرض تَتثاءب، وتتمدَّد، وتسلَّل اللون الأخضر إلى نهاية القصبات المكسورة والبُنية لحصاد السنة الماضية. كان الربيع قد حلَّ وبدأ العالم بأسرِه يعود إلى الحياة. تمنَّيت لو أن أبي يعود إلى الحياة هو أيضًا.

الفصل السابع والعشرون

وصَلنا إلى وايمور وقد شارفت الخدمة الثانية على الانتهاء، في الكنيسة القُرميدية الكبيرة، البعيدة عن شارع عشرة. أوقف ليستر الحافلة أمام الكنيسة، وانتظر حتى عدَّلت لِيل ربطة عنقِه مرة أخرى، وأزالت فُتات الطعام من قميصِه. تهلَّلت أسارير الرجل لاهتمام لِيل المُبالغ فيه بأمور النظافة، ولم تَرتفِع كتفاه أو تَنتفِض.

تابعت لِيل بنَبرة تشجيعية: «لا تنسَ حديثَنا. تأكَّد من توصيل هذه الكتب المقدَّسة إلى زوجة القسِّ مباشرةً. فالغالب أن تنظر المرأة بعين الرضا إلى أيِّ شيء وردي اللون.»

أومأ ليستر لِلِيل، ووقف بثِقَة، بينما تُقبِّله على وجنته.

قالت لِيل: «أتمنَّى أن تجلِب هذه القُبلة الحظَّ لك»، فتَضرَّج وجه ليستر خجلًا. وأضافت: «ستبلي بلاءً حسنًا.»

تحرَّك فمُ ليستر كأنه يَمضغ قطعة كبيرة من علكة «بابل» الخاصة ببوبي؛ وبدا كأنه يُريد قول شيء لِلِيل لكنه لا يستطيع تحريك شفتَيه بالشكل الصحيح. وبعد لحظة، مدَّ يدَه وصافح يد لِيل بارتباك، كأنهما عقدا صفقةً للتو. خطا ليستر خارج الحافلة، يتأبَّط كتابًا مُقدَّسًا ورديًّا كبيرًا، ويتلبَّس ثِقَة جذابة تُلائمه مثل حذاء جديد. ومشى بتحفظ لكن بفَخر يفوق قدرته حسبما اعتقدت.

قضمت لِيل أظفرها بينما تُراقب ليستر من النافذة. منذ أن تركنا لينكون، انهمكت لِيل في تعليم ليستر وإعطائه نَصائح حول كيفية التحدُّث إلى الآخرين، وتقديم نفسه على أنه رجلُ أعمال بدلًا من عامل توصيل يَسهُل التنمُّر عليه وإراقة ماء وجهه. والآن حان دورها كي تشعر بالقلق والتوتُّر.

تبادل فيش ويل إلقاءَ الكرات الملفوفة من الورق الممزَّق من كومة مجلات ليستر، وتحركتُ وبوبي كي نَجلِس بجانب لِيل. لم أكن بحاجة إلى رسم وشمٍ على بشرة لِيل،

بقَلمي الفضي اللامع، كي أعرف أنها واقعة في الحب. لم أفهم الأمر أنا نفسي، لكن أظن أن النهايات السعيدة تأتي بكل الأشكال والأحجام.

في غضون فترة وجيزة، عاد ليستر إلى الحافلة بابتسامة، كادَت تَشطر وجهَه إلى نصفين. وبينما يَصعد درجات الحافلة الثلاث، أطلق صرخةَ فرحٍ وصاح. ثم انحنى، راقصًا على عقبَيه، واحتضنَ وجهَ لِيل بين يدَيه، وقبَّلها قبلة حارَّةً طويلة على شفتَيها. ألقت لِيل ذراعَيها حول عنقه وقبَّلته على الفور بنَشوة وحماسة، دفعَتْنا إلى النظر بعيدًا، والتركيز على أي شيء آخر، مهما كان.

أخرجت بوبي لسانها، وانتابتْها قشعريرة ساخرة، والتفتَت بعيدًا عن الثنائي السعيد، وجلست في مقعد عبر الممر، ومع ذلك لاحظتُ ابتسامتها التي ظهرت واختفت في لمح البصر مثل صدع عاطفي في درع مُراهقَتِها.

بعد أن انتهى ليستر من تَقبيل لِيل، شدَّ قامته وأعلن: «لقد تسلَّم القسُّ هذه الطلبية، وفوق ذلك تَرغب نقابة نساء وايمور في شراء ثلاثة صناديق إضافية من كتب «هارت لاند» المقدسة.»

صفَّقت لِيل بيدَيها، مثل شقيقتي جيبسي، بفرح وحماسة.

قال ليستر بارتياح، وهو يُربِّت على ظهر مقعد السائق، كأن حافلته نجت ونجا هو معها: «هذا يعوِّض طلبيات الـ... الكتب المقدسة التي لم أوصلها أمس.»

استعان ليستر بفيش وويل لمساعدته في حمْل الصناديق من الحافلة إلى الكنيسة. خفض الفَتيان رأسَيهما، ورفعا الصناديق عاليًا، كي يُخفيا وجهَيهما قدْر المستطاع، حتى لا يتعرَّف عليهما أحد من النشرات الإخبارية «تنبيه! مفقودون! تنبيه!»

وعندما عادوا، كان ليستر يَحمل النقود، أما فيش وويل فقد حملا ملء كفَّيهما كعكات مُحلاة بمسحوق السكر مقطَّعة إلى أرباع. نفضَ ويل السُّكَّر الأبيض عن قميصه الأسود، وهو يناولني قطعة من الكعكة، ولعِق بقايا السُّكر على أصابعه، بينما جلس ملاصقًا لي تقريبًا. ورغم الكعكات، كان وجه فيش مُكفهرًّا مثل سحابة عاصفة، وهو يَجلس في مقعده عبر الممر، بينما غطَّت سحابةٌ صفحةَ الشمس. نقل ويل بصره من فيش إلى ليستر ثم إليَّ وبدت على وجهِه أمارات القلق.

أنشأ ويل: «يقول ليستر إن أمامنا محطة أخيرة قبل ذهابنا إلى سالَينا يا ميبس. أظن أن عليه إعطاء جزء من أموال بيع هذه الكتب المقدسة إلى سيدةٍ ما، وهذه المحطة في

طريقنا. لكنه وعد أن يُوصلنا إلى المشفى قريبًا؛ أعني في غضون بضع ساعات لا أكثر.»
كان ويل يحاول بثَّ الطمأنينة في قلبي. فهو يَعلم حاجتنا الماسة، أنا وفيش وسامسون، للذهاب إلى أبي، ولم يكن واثقًا البتَّة مما قد يحدث إن ازداد استياؤنا ونفَد صبرنا.

أمسكتُ حصتي من الكعكة بين إصبعيَّ بحرص ورحت أراقب مسحوقَ السُّكر يتساقط في حجري، بينما قرقعَ محرك الحافلة وهدر عائدًا إلى الحياة. سيَستغرِق الأمر وقتًا طويلًا قبل أن نصل إلى أبي؛ فلا ريب أن بضع ساعات من هذا الغموض والرهبة تبدو مثل أيام أو شهور أو سنوات من الهموم اليومية العادية مثل كيفية التصرُّف مع الفتى المجعَّد الشعر.

أنهى ويل كعكته، وعَبَس وجهه، وبدا مُنزعجًا متوترًا. مدَّ يده تحت فخذِه، وأخرج كرة ملفوفة من ورق مجلة كان يَجلس فوقها. ثمَّة شيءٌ ما بالكرة الورقية اللامعة لفَتَ انتباهي. دسست قطعة الكعكة في فمي، وتناولت الكتلة الورقية من ويل، بعد أن أصابني استِنشاق مسحوق السكَّر بسُعال خفيف. ألنتُ تجاعيد الكرة وسويَّتُها على حِجري، مُتجاهلة أن ركبتَي ويل واصلتا الارتطام بركبتي. كانت الصورة مأخوذة من غلاف مجلة، وهي لقلبٍ بشري بدا مثل كرة طرية كبيرة من البطيخ تتشعَّب فيها عروقٌ باهتة دقيقة لا أكثر. عندما رأيت هذه الصورة للمرة الأولى، راوَدَني شعور أنها صوَّرت قلب المرء مثل شيء هش للغاية، على عكسِ ما درست من أن القلب البَشري عبارة عن عضَلة قوية. والآن أدركت أن القلب هشٌّ وقويٌّ في آنٍ واحد.

وبناءً على ذلك، استدرتُ لمواجهة وِيل، وقلبي يَخفق بقوة بين أضلعي. أردت أن يعيرني كامل انتباهه. ابتعدت عنه قليلًا، واضعةً الصورةَ المجعَّدة بينَنا، ثم مددت يديَّ واحتضنت وجهه بنفسِ الطريقة التي احتضنَ بها ليستر وجه لِيل. كان الإمساك برأسِ شخصٍ مثل كرة سلة لا يبدو محرجًا مثلما توقَّعت، على الرغم من شعوري بالخجل عندما شاهدت لِيستر يُعانق لِيل بنفس الطريقة. لكن، على عكسِ ما حدث بينَهما، لن يكون هناك تقبيلٌ هذه المرة.

بدلًا من ذلك، نظرت إلى عيني ويل مُباشرة، مُتجاهلة تحديقَ فيش بنا من فوق المقعد المقابل عبْر الممر. نظر ويل إليَّ مندهشًا، لكني قوَّيتُ قلبي، شاعرة بشيءٍ ما يهتزُّ بداخلي، مثل بُرعُم زهرة أخضر فاتح يتفتَّح لتوِّه لحلول موسم الربيع. ولكن بصرف النظر عن ماهية هذا الشيء، كان في مراحله الأولى وغير مُستعدٍّ للتفتح بعد؛ كان بحاجة إلى وقتٍ

ليتجذر في الأرض. في المستقبل القريب، سأتفتَّح بلا قيود، وسيكون لديَّ ما أحتاجه لأقف بشموخ.

قلتُ: «أنا أحبُّك يا ويل. وربما أحبُّك مثلما تُحبُّني. لكني لستُ مُستعدَّة لتبادل القُبلات بعدُ، حسنًا؟» كان قلبي يدقُّ بقوة، بسبب التوتُّر المحموم الناجم عن هذا الاعتراف، حتى شعرت أنه قد يَنفجِر في أيِّ لحظة. كنتُ على ثِقة أن قلب ويل يتمتَّع بالقوة الكافية؛ لذا ظننتُ أنه لن يَستحيل إلى كرة بطِّيخ طرية لأنني لستُ مُستعدَّة لتقبيله. لكننا أصدقاء الآن ولم أشأ أن أُفسد ذلك.

أخليتُ سبيلَ وجه ويل، وتوقَّف هو عن خبطِ ركبته في ركبتي. مالتِ ابتسامتُه إلى الجانب، وأضْفَت عينه المسودَّة لمسةً مُشاكسة عنيدة على وجهه لم أفهمها البتَّة.

قال: «حسنًا يا ميبس. فقط أعطِني القلم الذي أهديتُه لكِ.»

سألتُ بدهشة وتماسُك أقل قليلًا: «أتقصدُ هديةَ عيد ميلادي؟» رفع ويل حاجبَيه على نحوٍ ذي مَغزًى ومدَّ يده إليَّ. اضطربت مَعِدتي وبدأت شفتِي السفلية تَرتعِش. شعرت أنني أصغر سنًّا بكثير مما أنا عليه، وأن كل النمو والنضج الذي حقَّقتُه للتو بدأ يضيع، بينما دسست يدي في جيب فستان المناسبات الخاصة. تجاوزَتْ أصابعي قطعةَ الصابون المغلَّفة بالورق التي خبَّأتُها بسعادة ذاك الصباح في جيبي، لكن للأسف وجدتها منقسمة إلى نصفين. مددتُ يدي أكثر والتفَّت أصابعي حول القلم الفاخر الأنيق هديةِ عيد ميلادي السعيد بمَسْكتِه الفضية وغطائه المدوَّر اللامع.

لم أستطِع النظر إلى ويل وأنا أمدُّ يدي بالقلم إليه. تطلَّعت خارج النافذة بدلًا من ذلك، متجاهلةً النظرة الراضية التي ارتسمَت على وجه فيش وهو يجلس في الطرف المقابل عبر الممر، أُحاول أن أمنع شفتَيَّ من الارتجاف، وأُذكِّر نفسي أنني مُتردِّدة سخيفة لشعوري بالهجر رغم أنني مَن بدأتُه. شاهدت التلال المتماوجة، تختفي خلفنا وتنحدر مثل أمواج من المروج، خارج نوافذ الحافلة. شعرت بويل يَلتقِط القلم من يدي، وسمِعته يُزيل غطاءه بطقطقة معدنية سريعة.

في اللحظة التالية، ملأ صوتٌ يُشبه صوتَ جرس رخيم رأسي، أخذ يتردَّد ويُدوي في أذنيَّ.

يمكنني الانتظار.

يمكنني الانتظار.

يمكنني الانتظار.

التفتُّ ناحيةَ وِيل الذي جلس رافعًا يده اليمنى ناحيتي كأنه يَقطع عهدًا أو يطلب الإذن؛ ورأيت شمسًا زرقاء اللون تَبتسِم إليَّ من فوق راحة يده.

قال بصوتٍ عالٍ: «لا تَقلقي يا ميبس.»

الفصل الثامن والعشرون

بعد أن انتهينا من وايمور، اتجهنا جنوبًا، تاركين نبراسكا خلفنا، لنجد أنفسنا في الطرف الأقصى من كِنساس، لكن لا تزال هناك أميالٌ كثيرة تفصل بينَنا وبين سالَينا. ورغم توسلات صغار بومونت للاتجاه إلى مَشفى «هوب» في سالَينا مباشرة، تشبَّث ليستر بخططه وخرج عن المسار للمرة الأخيرة. لذا تَناولنا حلوى «بوب تارتس» والبطاطس المَقلية وألواح الشيكولاتة من «ميجا ميجا مارت»، وشاهدنا المنظر الطبيعي يمر وراءنا خارج الحافلة، نحاول ألا نفكر في أبينا الراقد محطَّمًا في المشفى، نحاول ألا نتخيل الأسوأ.

كنَّا في شمال مانهاتن، عندما انطلقت صَفَّارة إنذار، وومضت المصابيح خلفنا. تحفَّزنا جميعًا مثل زنبرك الساعة المشدود، وتكوَّرنا في مقاعدنا، خافضين رءوسنا، بينما حرَّك ليستر الحافلة إلى جانب الطريق السريع، مع بقية السيارات التي تَسير بسرعة منخفضة في يوم العطلة. وبارتياح كبير شاهدنا سيارةَ الشرطة الزرقاء والبيضاء، وهي تجتازنا بسرعة إلى مكانٍ آخر، وأدركنا أنها ليست في أعقابنا. لكن لم يُلاحظ ليستر ولِيل شيئًا تقريبًا؛ إذ كان كلٌّ منهما منشغلٌ بالآخر.

في غضون فترة وجيزة، بينَما اتخذ ليستر منعطفًا طويلًا في الطريق السريع، نَهَض فيش على قدميه، وتحرَّك نحو مقدمة الحافلة، ووقف على بُعد مسافة قصيرة من الخط الأصفر المَدهون على الأرضية. أمعن فيش النظر في الطريق السريع أمامه، وابيضَّت براجمُه من شدَّة تشبُّثه بظهر مقعد ليستر. نهضت من مكاني بجوار ويل، واجتزته بصعوبة، كي أذهب إلى فيش. لا بدَّ أن هناك خطْبًا ما.

سألت فيش بصوتٍ عالٍ كي يُغطِّي على ضجيج الحافلة: «ماذا يَجري يا فيش؟» نظر الآخَرون إلينا بفضول.

قال فيش: «أشمُّ رائحة الماء. بل أشمُّ رائحة الكثير منه.» ألقيتُ نظرةً سريعة إلى لِيل التي كانت تجلس بجوارنا وتنظر إلينا بتساؤل. كما أدار ليستر رأسه أيضًا.

قال ليستر لفيش: «لديك حاسة شم ق... قوية. نحن على مَقرُبة من بحيرة «تاتل كريك». وهي بحيرة كبيرة في الحقيقة.»

وضعت يدي على كتفِ فيش. ورحتُ أذكرُه بهُدوء: «أنت تُبلي بلاءً حسنًا يا فيش. ليس هناك داعٍ للقلق ... أليس كذلك؟ أنت تُسيطِر على الأمور بشكل جيد. تستطيع التحكُّم في هِبَتك الخارِقة.»

أومأ فيش برأسه بعد كل عبارة أقولها، بعزمٍ وعُجالة، كأنه يُؤكِّد على ما أقوله.

قلتُ له: «أنت بخير. لقد أخبرتَني ذلك بنفسك عندما كنَّا في مسبح النُّزل، ألا تذكر؟ إنها مجرد كتلة مائية.»

أومأ فيش مرة أخرى.

وافقني فيش، في نهاية المطاف، قائلًا: «أنا بخير»، وارتخت قبضة يده على مقعد ليستر. كنت أعلم أنه بالرغم من الثِّقَة التي عثر عليها حديثًا، فإن ذكريات إعصار عيد ميلاده الثالث عشر الذي بلغ ذروته ستُطارده لفترة طويلة جدًّا. كانت ذكرى يصعب على المرء نسيانها في الحقيقة.

قال ليستر: «أوشكنا على الوصول. تعيش كارلين في هذا المكان أمامنا مُباشَرة. فور أن أ... أدفع لها أموالها، يُمكنُنا التوجُّه إلى سالَينا. سـ... ستعودون إلى عائلاتكم قريبًا.»

هتفتُ بصوتٍ عالٍ قبل أن أتمكَّن من إيقاف نفسي: «كارلين؟ لا، ليس كارلين!» انحرف ليستر بالحافلة باتجاه السيارات القادِمة، من فرط دهشتِه، ونجح في تفادي الشاحنة ببُوقها المُدوِّي بشِق الأنفس، قبل أن يَستدير لينظر إليَّ باستغراب. وسأل باندهاش: «ماذا تَعرفين عن كارلين يا آنسة؟ لا أ... أظن أنني أتيت على ذكر اسمها من قبل. إنه ابن عمِّها، لاري، صاحب شركة «هارت لاند» لتوريد الكتب المُقدَّسة. لقد ساعدتني في الحصول على هذه الوظيفة.»

قلتُ بسرعة وأنا أُحاول التستُّر على خطئي الفادح: «أنا ... أنا ... أليس هناك وشم لكارلين على ذراعك؟» نكزتُ فيش في صدره بمِرفقي. وفتح أخي عينيه على اتساعهما عندما أدرك أنني كنتُ أسمع أشياء عن ليستر لا يَسمعُها غيري وحاوَل التدخل لمساعدتي.

قال فيش: «هذا صحيح. لديكَ وشوم على ذراعَيك، أليس كذلك؟»

تمتم ليستر: «حسنًا، لقد فعلتُ ذلك منذ وقت طويل مضى»، وحاول فردَ كمَّي قميصه وتزريرهما، كي يستر وشمَيه، بينما يُواصِل القيادة. وراحت كتفه اليمنى تَرتفِع وتهبط،

كأنها تحاول منْع طائر لحوح أو نحلة من الحطِّ فوقها. أشاحت لِيل ببصرها عنه، وراحت تتفرَّس تفاصيل حذائها.

عاد صوت روندا يتدفَّق في رأسي مثل الخل: «ماذا يفعل ليستر مع هؤلاء الأطفال البغيضين؟»

تدخَّل صوت كارلين: «ليسَت لدَيه ذرة عقل، هذه هي المشكلة.» شعرت بالإحباط لعودة هاتَين السيدتين. كان عقل ليستر ملآنَ بلِيل، لبعض الوقت، فلم يَسمح بدخول صوتَيهما؛ لذا شقَّ على نفسي أن أراه يَستدعيهما من جديد.

«ليستر الغبي.»

«ليستر الأبله.»

«ليستر الأحمق.»

«ليستر ...»

هتفت: «توقف!» فتوجَّهت أنظار الجميع إليَّ. أدركت أنني أضع يديَّ على أذنيَّ، وباستثناء الضوضاء المنبعثة من الحافلة، كانت الأجواء هادئة.

سألت: «لمَ تستمع إليهما يا ليستر؟ لقد تركَتْ كارلين كلبك على قارعة الطريق لأنه مضَغ حذاءها الأحمر المفضَّل!» لم أَستطِع التحمُّل أكثر من ذلك. ضغط ليستر على الفرامل بقوة، موجهًا الحافلةَ مرةً أخرى إلى جانب الطريق قبل أن تَتمايل بسبب وقوفها المفاجئ. لم ينظر إليَّ ولم يتحرَّك. بدلًا من ذلك، جلس هناك، يحدِّق خارج النافذة الأمامية، تاركًا محرك الحافلة دائرًا.

قلتُ: «كارلين هذه امرأة سيئة الطباع»، ثم أغلقتُ شفتيَّ بإحكام، على علمٍ أنَّني قلتُ بما فيه الكفاية.

قالت لِيل بهدوء: «عزيزتي ميبس، ربما يجبُ أن تعُودي وفيش إلى مقعدَيكما.»

قال ليستر: «لا، يا لِيل»، وارتعش فمُه بسبب الغضب أو الأسف أو كلَيهما. وتابع: «الفتاة محقَّة. لا أدري كيف عرفت بالأمر أو لماذا، لكنَّها على صواب.» ثم أخذ نفَسًا سريعًا ومسح أنفه في كمِّه. وأردفَ قائلًا: «كنتُ أعلم طيلة الوقت أن كـ... كارلين تخلَّصت مِن كلبي وكذبت بشأن ذلك. كلُّ ما في الأمر أنَّني ... أنها ... حسنًا، لقد وفَّرت لي هذه الوظيفة على أي حال.» ومسَّد عجلةَ القيادة أمامه بإصبع من أصابعه. ثم أضاف: «لقد أعطتني هذه الحافلة.»

«ليستر البكَّاء.»

«ليستر العاطفي.»

«ليستر ...»

كرَّرت لِيل بلطف: «اذهبي واجلسي يا ميبس.» أمسكني فيش من ذراعي وقادني إلى أحد المقاعد. فرقعت بوبي فقاعة صنعتْها من علكتها ورفعت حاجبَيها نحوي، دون أن تقول شيئًا، لكنها بدتْ مُتعاطِفة مع محنتي. أما ويل فقد جلس على حافة مقعده، وأمسك المقعد أمامه بكلتا يدَيه، وكأنه على استعداد للقفز لمساعدتي.

ترك ليستر مقود الحافلة دائرًا على جانب الطريق لعدة دقائق. بذلتُ غاية جهدي لتجاهُل إهانات كارلين وروندا المُؤلِمة لليستر. شعرت بالغثيان من استعداده للسماح بذلك النوع من الحديث في رأسه، وأقسمتُ ألا أسمح لأشلي بينج أو إيما فلينت أو غيرهما بأن يَحظيا بمثل هذه السيطرة عليَّ. لن أسمح لأصوات المُتنمِّرين أو الحقراء أو الأشخاص الذين لا يَعلمون عني شيئًا تقريبًا بأن تشقَّ طريقها إلى عقلي فلا تغادره أبدًا.

في نهاية المطاف، استدار ليستر للِيل، وبدا رجلًا محطَّمًا يطلب الرحمة. وقال: «يجب أن أُسوِّي الأمورَ معها يا لِيل. أنا بحاجة إلى د... دفع الأموال التي جنَيتُها من الـ... الكتب المقدسة لكارلين، ولن يكون لي تعامُلٌ آخر معها، وسأكُون لكِ — إن كنتِ تريدينَني — هذا كل ما في الأمر.»

ابتسمت لِيل ابتسامةً ضخمة تضاءلت ضخامةُ جسدها أمامها. وقالت: «بالطبع أريدك يا ليستر»، فتغيَّر تعبير وجه ليستر كليًّةً. وبدا كرجل عثر على ملاكه الحارس أخيرًا.

«سأكون رجلًا سعيدًا إذن.» ملأ الصوت رأسي. وكان هذا هو صوت ليستَر نفسه.

الفصل التاسع والعشرون

اتَّضح أن كارلين امرأة كبيرة في جسدٍ ضئيل. كان لديها شَعر كبير، وأسنان كبيرة، وأظفار طويلة كبيرة، ونعلٌ وبَريٌّ كبير، لكن بقيتها كان غائرًا ومُنكمشًا ونحيلًا. بدت كساحرة ترتدي ملابسها كبطلة فيلم يُصور عيد الهلع. عندما قاد ليستر حافلة الكتب المقدسة الوردية الكبيرة إلى داخل منتزه «تاتل تيراس» للمنزل المتحرِّك، كانت كارلين تَجلِس بالخارج في مَقعَدٍ قابل للطيِّ. وكانت مُنهمِكة في قراءة جريدة «سانداي»، لا تَرتدِي شيئًا سوى فستان من الساتان اللامع، وتضع طلاءَ شفاه ورديًا صارخًا، تسرَّب إلى تجاعيدها المُنتشِرة حول شفتَيها، فبدَتا خشنتَين غير مُتناسقتَين. جلست المرأة، وقدماها خارج نعلَيها، فلاحظت أن أظفارَ قدمَيها سميكةٌ وطويلة ومطلية بنفس لون طلاء شفتيها.

عندما رأت الحافلة قادِمة نحوها، طوت الجريدة، وعقدَت ذراعَيها فوق صدرها، دون أن تزعج نفسها بالنهوض من مكانها. لاحظتُ أنها تُضيِّق عينَيها، عبْر ضوء الشمس المنعكس على النوافذ المكسورة، لتنظر إلى بقيتِنا، مُندهشة بوضوح من نقل ليستر للركاب على متن الحافلة.

قال ليستر وهو يتهيأ للنزول من الحافلة: «يـ... يستحسَن أن يبقى الجميع هُنا». لكن قبل أن يفعل ذلك، ظهر سامسون بجواري، وراح يتلوَّى ويهتز ويهمس في أذني. عبستُ لفيش الذي كان ينظر إلينا، ثم نادَيتُ ليستر وهو يفتح باب الحافلة.

قلت: «يريد أخي الذهابَ إلى الحمام يا سيد سوان.» ضرب فيش جبهته براحة يده. وزمجرت بوبي في ازدراء، أما ويل فقد ضحك ضحكةً مكتومة. بدا ليستر مُرتبكًا قلقًا وهو يشاهد سامسون يتمايل بصمت في ممرِّ الحافلة.

قالت لِيل كما لو أنهما زوجان قديمان: «يجب أن تأخُذَه معك يا ليستر.» فازداد ليستر بؤسًا فوق بؤسه.

فاجأت بوبي الجميع قائلة: «سأصحبُه أنا»، ونهضت من مقعدها لتُمسك يد سامسون. وتابعت: «لا بد أن يُنقذ أحدٌ ذلك الفتى من تعاسته.» تناول سامسون يدَ بوبي بلا تردُّد، ومرَّا أمام ليستر، مُتجهَين ناحية باب الحافلة. لم نكن واثقين مما سيَحدُث لاحقًا؛ لذا تحركتُ وفيش وويل لفتح النوافذ المواجهة لمنزل كارلين المتحرِّك بحذر، ليتسنَّى لنا متابعة ما يجري بالخارج على نحوٍ أفضل. قادَت بوبي سامسون عبْر درْج الحافلة وتوقَّفا أمام مقعد كارلين.

سألت بوبي بوضوح: «أتسمَحين لنا باستخدام حمَّام منزلك المتحرِّك يا سيدتي؟»

صاحت كارلين: «ليستر!» في تجاهُل لبوبي الواقفة أمام المقعد، وألقت بالجريدة على الأرض، ودسَّت قدمَيها في نعلها الوبري. ثم هتفت: «ليستر أيها الغبي العديم الإحساس! تعالَ على الفور، وفسِّر لي ما يَحدث هنا! مَن هم هؤلاء الأطفال؟»

كان سامسون يَرقُص في مكانه، ويشدُّ ذراع بوبي بقوة. فألحَّت بوبي: «هلا سمحت لنا بالذهاب يا سيدتي؟»

لوَّحت كارلين إلى بوبي إشارةً لها بالانصراف، كأنها تَصرف ذبابة عن وجهها، واستدارت لتنقضَّ على ليستر وهو يَنزل من الحافلة. فسَّرت بوبي تلك الإشارة على أنها تأذَن لهما بالدخول، سواء أكان ذلك حقيقة أم لا، ودفعت بسامسون على عجالة، كي يَدخل إلى المنزل المتحرك ليبحثا عن الحمام. شعرتُ بتوتُّر شديد وأنا أشاهد سامسون وبوبي يختفيان في المنزل، كأنهما هانسل وجريتل أبطال قصة الأطفال الشهيرة «بيت الحلوى» ويخطوان إلى فرنٍ ضخم دون أن يدركا ذلك. ولا بد أن فيش وويل راودهما نفس الشعور أيضًا؛ إذ نظرنا إلى بعضنا قبل أن نندفع خارج الحافلة بسرعة، مُتجاوزين كارلين وليستر، ولحقنا ببوبي وسامسون داخلَ المنزل المتحرك، تاركين لِيل وحدَها في الحافلة تَنتظر ما ستئول إليه الأمور.

كان منزل كارلين من الداخل مُعتمًا ومعبَّأ بالدخان؛ إذ كافحت أشعةَ شمسٍ ما بعد الظهيرة لتلتمسَ طريقها للداخل عبر الستائر الشاشية الثخينة التي غطَّت جميع النوافذ. ملأت رائحة النفتلين النفَّاذة والشموع العِطرية أنفي وحلقي، وأصابتني بالسعال. كان أثاث كارلين مبهرجًا وقبيحًا، واكتظَّ كلُّ رفٍّ أو زاوية بالحلي والأغراض الرخيصة وغيرها من الأشياء الحقيرة الرديئة. انتهى سامسون من قضاء حاجته، تبِعتْه بوبي ثم أنا على الترتيب.

خرجت من الحمَّام في اللحظة التي رأيت فيها سامسون يَنزلق تحت مفرش طويل يكاد يبلغ الأرضية ويَنسدِل على طاولة صغيرة، أمام حاجز لوحي يفصل بين غرفة المعيشة والمطبخ. كان يفعل ذلك، محاولًا التسلل للاختباء في مخبئه الجديد كعادته، لكنَّني أمسكت به من كاحله وسحبته إلى الخلف من تحت المائدة.

قلتُ: «ليس الآن يا سامسون. ليس هذا هو المكان المناسب. ابقَ تحت أنظارنا، حسنًا؟» نظر سامسون إليَّ، بوجه مُتحجِّر جامد كعادته، لكنني لاحظت رغم ذلك كيف تهدَّلت كتفيه قليلًا.

كنتُ سأطمئنه أننا سنُغادر قريبًا، وسنبلغ أمنا وروكيت في سالَينا في القريب العاجل، وسنَلتقي بأبينا، لكن في تلك اللحظة، اقتحمت كارلين المنزل المتحرِّك وليستر في أعقابها.

كانت كارلين تَصيح وتُغطِّي أذنَيها بيديها. أما ليستر فكان يُحاول تسليمها رِزمة من النقود مشبوكةً بمشبك، لكنها لم تُعِره انتباهها. وراحت تتذمَّر عن افتقاره إلى الذكاء وحمقِه بصفة عامة، بينما أبعدت فيش عن رفٍّ مليء بتماثيلَ صغيرةٍ للحيوانات مصنوعةٍ من خليط من المعكرونة الجافة، وانتزعت من بين يدي ويل الابن كرةً ثلجية لمدينة «ميامي» المُشمِسة نصف فارغة ويتقاطر منها سائلها.

صرخت كارلين وهي ترمق بارتياب بوبي التي كانت تَقف عند الأريكة ببساطة: «لن آخذ ذلك المال يا ليستر. لن آخذه لأنه ليس كافيًا بالمرة. عُد إلى هُنا عندما تَجني ضِعفه.» توقَّفَت كارلين عن الكلام فترة طويلة، لتجول ببصرها في أنحاء الغرفة وتنظر إلينا جميعًا، ووجهها مُلتوٍ ومنقبض، كأنها تحاول تذكُّر شيءٍ ما، ربما ذكَّرناها به.

قال ليستر: «حسنًا يا ك… كارلين. لا تأخُذي المال. لـ… لكن اعلمي أنني لن أ… أعود إلى هُنا، سواء أخذتِ هذا المال أم لا. سأمضي في طريقي.»

صاحت كارلين وهي تُشيح ببصرها عنَّا وتَخطِف رِزمة المال من يد ليستر بجشع: «كيف تجرؤ على التحدُّث إليَّ بهذه الطريقة!» استشاطت المرأة غضبًا، وألقت بالكرة الثلجية المتقاطرة على رأس ليستر مباشرة. لكنه خفَّض رأسه، وانثنى في مكانه، ليتفادى الأغراض التي قذفتها كارلين نحوه؛ راحت التماثيل والصحون العتيقة تطير عبْر الغرفة، لترتطم بالحائط أو المصباح أو المائدة، بينما يُحاول ليستر تجنُّبها.

كانت كارلين الواقفة أمامي بشَحمِها ولحمِها وكارلين التي في رأسي تَصرُخان وتصيحان بصوتٍ عالٍ حتى إن روندا عجزت عن التحدُّث جانبهما إلا بصعوبة.

وبَّخته روندا: «ظننتُ أنني أحسنتُ تربيتَك أيها الفتى الغبي. ما لكَ وللشجار مع النساء!»

زمجرت كارلين بينما طارت كلاب البودل المصنوعة من المعكرونة في الهواء: «يا لكَ مِن فاشل يا ليستر! كم أنتَ عديم النفع تمامًا!»

«ليستر الأبله ...»

«ليستر ...»

«اخرسي!» حان دور ليستر ليُغطِّي أذنَيه ويَصرُخ، ويأمُر كل الأصوات بالتزام الصمت. وزأر بشجاعة داخل مقطورة كارلين قائلًا: «هذا يكفي! لقد سئمتُ منكِ يا كارلين. لا أبالي إن حرمتِني من وظيفتي؛ فسوف أجدُ طريقةً لأحافظ بها على حافلتي. لا أ... أكترث بابن عمِّك لاري، ولا أبالي بكِ!»

ساد صمتٌ مُطبِق الغرفةَ. ولوهلة لم يتحرَّك أحدٌ من مكانه. وكبَح الجميع أنفاسَهم. ولم يتحدَّث أحد، بل لم يُفكِّر أحد.

أنشأت روندا تقول: «حسنًا، لن ...» ثمَّ خبا صوتُها بسرعة.

ألقى صوت كارلين إهانتَه الأخيرة: «الأحمق ...» في رأس ليستر قبل أن يخبو هو الآخر مثل ألسنة لهب مُحتضرة.

أما كارلين الحقيقية، فتوقَّفت عن قذف أغراض الغرفة، وحملقَت إلى ليستر، عاجِزة عن الكلام للمرة الأولى، لكنها تذكَّرت فجأةً أن هناك جمهورًا يشاهدها، فتحركتُ أنا وبوبي وفيش وويل في أماكننا في توتُّر.

انتابني شعور سيئ في أعماقي، وسرى وخزٌ في شعري الصغير خلف عنقي. نقلَت كارلين بصرها بيننا عدة مرات، ولاحظتُ أنها بدأت تتعرَّف علينا ببطء. لقد آن أوان الذهاب.

قالت كارلين بخفوت وببطء مثل ثعبانٍ سامٍّ يُصدِر فحيحَه التحذيري: «يا ... إلهي. هؤلاء هم الأطفال على التلفاز يا ليستر.» نقل ليستر بصَرَه من كارلين إلى بقيتِنا في ارتباكٍ واضح.

كرَّر: «عن أيِّ تلفاز تتحدثين؟»

تابعت كارلين وهي تتنحَّى جانبًا دون أن تُبعِد ناظرَيها عنَّا: «قصدت التنبيه على التلفاز ... تنبيه الأطفال المفقودين. بحقِّ السماء يا ليستر! هل ساعدت أولئك الأطفال على الهرب؟»

تلعثم ليستر: «مـ... ماذا؟ لـ... لا، أعني نعم. أقصد أنني ساعدتهم دون تعمُّد يا كارلين. د... دعيني أشرح لك!»

لكن كانت كارلين تُحاوِل الوصولَ إلى الهاتف. وقالت: «يُمكنك شرْح الموقف للشرطة أيها الأبله المُختل.» وضغطت على أزرار الهاتف بأحد أظفارها الحادة الطويلة.

«الـ... الشرطة؟»

صحتُ وأنا أركض من مكاني بزاوية الغرفة: «لا نُريد الشرطة يا ليستر!» قبضت على ذراع ليستر وحاولت دفعه ناحية الباب. قلتُ: «يجب أن نذهبَ إلى سالَينا يا ليستر! سيكون كل شيء على ما يُرام عندما نبلغ سالَينا، لكن يجب أن نتحرَّك الآن!» انضمَّ إليَّ بوبي وفيش وويل في إخراج ليستر من المنزل المُتحرِّك ودفعه صوب الحافلة.

صرخنا ونحن نحثُّه على الجلوس في مقعد القيادة: «يجب أن نُغادر يا ليستر!» بينما سَحب ويل ذراع التحكم ليغلق بابَ الحافلة خلفنا. تحرَّك ليستر ببطء، كأنه في غيبوبة، وشغَّل مقود الحافلة وهيَّأها للتشغيل بلا وعي تقريبًا. كان عقله لا يزال يستوعب ما حدث، ويحاول الحكمَ على إن كان ما يفعله صوابًا أو خطئًا.

سألت لِيل مُستفسِرة: «ماذا يجري؟» وكانت قد مكثت في الحافلة كي تفسح لليستر المجال لخوض معاركه الخاصة. لكنَّنا لم نهدِر الوقت في شرح الأمر لها.

صاحت بوبي: «هيَّا!» في الوقت الذي خرجت فيه كارلين من الحافلة، وهي تلصق هاتفها اللاسلكي بأذنها، وتلوِّح بيدها وتُشير، كأن الشرطي في الطرف الآخر من الخط يستطيع رؤيتنا أثناء فرارنا.

عُدنا إلى الطريق السريع، وليستر يتصبَّب عرقًا، ولِيل مُنقبِضة مُحتارة قلقة. جلسنا متأهبين، نراقب الطريق من النوافذ، تحسبًا أن يكون هناك أيُّ وميض تحذيري أو صفارة إنذار في أعقابنا. تذكَّرت مرةً أخرى أن ما حدث هو خطئي وحدي، وأنَّنا ما كنَّا لنُصبحَ هُنا لولا ما فعلتُه، ولولا هِبَتي الخارقة التي جاءت وألقت بي في اليمِّ مباشرة.

تأزَّم الموقف أكثرَ، عندما توقَّف عقلي عن التفكير في مدى تعاستي وبؤسي، وأدركت شيئًا أكثر إثارة للرعب وللألم المفاجئ كأنني أُصبتُ بشلل في الدماغ. نهضت على قدمي، وبحثت حولي، وقلبي ينبض بسرعة.

سألتُ: «أين سامسون؟»

الفصل الثلاثون

كرَّرتُ سؤالي في هلع: «أين سامسون؟» تعثرتُ، وأنا أتَّجه إلى مؤخِّرة الحافلة، وقلبت سرير ليستر النقَّال رأسًا على عقب. انضم الآخرون إليَّ، فأفرغنا الصناديق الكبيرة، وتفقَّدنا أسفل المقاعد كلها. لكن ذهبت جهودنا سدًى. لم يكن سامسون مُختبئًا بأي مكان. ببساطة لم يكن على متن الحافلة.

شرعنا نَصيح: «يجب أن نُغيِّر مسارنا! لا بدَّ أن نعود!» لكن كانت أصابع ليستر مُلتصقة بعجلة القيادة بينما نظر إلى الطريق السريع أمامه نظرةَ رجل يتقبَّل حقيقةَ انتهاء حياته وأنه ربما سيقضي ليلته في السجن لمحاولة فعل الشيء الصحيح بالطريقة الخطأ. أحسستُ بالذنب، وأنا أتذكَّر العهد الذي قطعته على نفسي، بالحفاظ على سلامة لِيل وليستر وإبعادهما عن المشكلات. لكن لا يمكنني التضحية بأخي من أجلهما؛ لا مفرَّ من الرجوع، ولو كانت الشرطة في طريقها إلى هُناك.

نهضت لِيل من مقعدها، ووقفتْ بشموخ بيننا وبين ليستر، الذي واصل القيادة بعيدًا عن منتزه «تاتل تيراس» للمنزل المتحرك.

سألت لِيل مُستفسِرة، بنبرة هادئة لكنها صارمة كنَبرة أي أمٍّ: «ماذا يجري هُنا يا صغار؟»

هتف فيش: «سامسون غير موجود في الحافلة!» وهبَّت زوبعةٌ طيَّرت شَعر لِيل عن وجهها وتسبَّبت في ارتفاع الحرارة والرطوبة داخل الحافلة على نحو ملموس. كزَّ أخي على أسنانه، وكوَّر قبضتَيه، وهو يُحاول مُصارعة هِبَته الخارقة قبل أن يُواصل الكلام. وقال: «لا بدَّ أن سامسون في مقطورة كارلين. يجب أن نعود!»

اتَّسعت عينا لِيل ونظرت إلينا في صَدمة. وسألت: «هل تركنا الطفل خلفنا؟» أومأنا لها في صمت. فدارت على عقبَيها واتَّجهت ناحية ليستر.

وقالت: «عُد بالحافلة يا ليستر!»

تلعثم ليستر: «لـ... لكن ... لقد اتَّصلت كارلين بالشرطة.»

وضعت لِيل يدَها على كتِفِه المُرتجفة المتشنجة لتبث الطمأنينة في قلبه قائلة: «لا يهمُّ يا ليستر. يجب أن نعود.»

واصل ليستر تقدُّمه للأمام ربع ميلٍ قبل أن يعلن استسلامه. ثم انعطف بحدَّة وسرعة شديدة لا تليق بحافلة مدرسية قديمة، ولوهلة ظننت أن الحافلة الوردية الكبيرة ستنقلب لا مفر. لذا تشبثنا بما وجدناه، حتى نتجنَّب السقوط، بينما تدحرجت صناديق الكتب المقدَّسة وانزلقت.

لمَّا دنونا من منتزه المنزل المُتحرِّك سمعنا صوت صَفَّارة إنذار قادمًا من بعيد. شحَب وجه ليستر — وهو يُمسك بعجلة القيادة — مثل أشباح جيبسي الخيالية. كانت الشمس وقت العصر قد انزلقت خلف السُّحُب الداكنة الكثيفة المتصاعدة في الأفق، وبدأت السماء تصطبغ بلون أخضر رمادي غريب. تذكَّرت كم كنا قريبين من الكتلة المائية الكبيرة، بحيرة «تاتل كريك»، ونظرت إلى فيش نظرة تحذيرية.

صاح فيش وهو يكزُّ على أسنانه: «أنا بخير.» لكنني ظللتُ أراقب هذه السُّحب. وشعرت أن ثمة أزمة تلوح في الأفق.

وفي تجاهلٍ لصفَّارات الإنذار انعطف ليستر إلى المنتزه. ولم يكد يفتح باب الحافلة، حتى اندفعنا جميعًا، ومعنا لِيل، خارج الحافلة كما لو كنا نركب رياح فيش. تبعنا ليستر، وهو يتفقَّد تغيُّر الطقس، كانحناء الأشجار وتمايلها، وقرقعة مقعَد كارلين في الشارع مع النُّفايات الأخرى التي حملتها العاصفة الوشيكة.

كانت كارلين واقفة في مدخل منزلها المُتحرِّك. وصاحت بصوتٍ عالٍ فوق هدير الرياح بينما ركضنا نحوها وسط بشائر المطر الأولى: «الشرطة في طريقها إلى هُنا يا ليستر.»

سألتُ عندما بلغت مكان المرأة: «أين سامسون؟» كنت ألتقط أنفاسي بصعوبة من شدة الهلع. كرَّرت سؤالي: «أين أخي؟»

لا بدَّ أن سامسون بالداخل. فلا يذكر أحدٌ رؤيته يُغادر المقطورة. تحرَّكت بوبي ولِيل صوب الباب، لكن كارلين أعاقت تقدُّمهما بذراعيها النحيلتين المفرودتين.

قالت كارلين، وقد التصق أحمر الشفاه الوردي بأسنانها عندما رفعت شفتها العليا في استهزاء: «هذا منزلي، وأنتم الآن تقتحمونه.» كانت صفَّارات الإنذار تقترب من المكان. فابتسمت كارلين. ثم أضافت: «هل تركتُم أحدًا وراءكم؟ حسنًا، الطفل بخير وسلامة، وهو مُحتجَز حتى تصل الشرطة إلى هُنا.»

سألت لِيل بصوت مدوٍّ كالسماء الراعدة فوق رءوسنا: «محتجز؟ أتقولين إنه محتجز؟ إنه مجرد طفل!»

سأل ليستر دون تلعثُم أو تأتأة: «أين هو يا امرأة؟» أظلمت السماء أكثرَ فأكثر، وتحرَّكت الرياح في كل اتجاه، تَحمِل أصوات صفَّارات الإنذار القادمة في ذهابها وإيابها. لكن كارلين اكتفت بالنظر إلينا، بغرور وعناد، والسخرية منَّا بعينيها.

قالت: «لن تجدوه أبدًا. فهذا الطفل بارع في الاختفاء حسبما أرى.»

قال ليستر: «أنتِ تعرفين مكانه، أليس كذلك؟» بنَبرة مَن ينصُّ على الحقائق لا مَن ينتظر الإجابة. فهزَّت كارلين كتفَيها بلا مبالاة. وشدَّت لِيل قامتها متوعدة، وحلَّقت فوق المرأة الصغيرة مثل مُنتقِم سماوي؛ كانت نظرة عينيها قاسية مثل العاصفة المتصاعدة من البحيرة التي يبذل فيش غايةَ وسعه حتى لا تَندلِع بكامل قوَّتها.

لكن كان الأمر يفوق قُدرة أخي. تمكَّن منه غضبُه وقلقه، فأطلق جِماح هِبَته الخارقة، وصوَّب زوبعةً ناحية كارلين، قذفت بها إلى الجدار البعيد في المدخل. تَدحرجنا داخل المنزل المُهتز، وقفزنا أمام كارلين، لنبحث عن سامسون في كل مكان. كان أول مكان فكَّرت في البحث فيه هو أسفل فراش المائدة الطويل عند حاجز المطبخ. لكن لم يكن سامسون هناك.

انتشرنا في كل مكان وبحثنا تحت السرير وخلف الأثاث. تفقَّدنا خِزانات الثياب والصحون. وأفرغنا سلة الغسيل، ونظرنا خلف الستائر وستارة الحمَّام. كما ذهب بي الأمر إلى تفقُّد الموقد تحسبًا لاختبائه هناك. وأثناء ذلك الوقت، ثارت رياح فيش الغاضبة داخل وخارج المنزل المتحرِّك، فتمايلت الستائر ورفرفت، وتطايرت جميع الأوراق غير المثبتة وذرات الغبار الرمادية في الهواء، بل كاد سقف المنزل القديم ينخلع من مكانه.

انهمكتُ في تفتيش الخزانة القابعة عند المدخل عندما اخترقت أول عربية شرطة ستار المطر لتتوقف وراء حافلة الكتب المقدسة الوردية في ضجة فوضوية متعدِّدة الألوان. حينها خطرت لي فكرة. وعلمتُ كيف أُجبر كارلين على إخباري بمكان سامسون.

كان كلُّ ما أحتاج إليه هو قلمي.

الفصل الحادي والثلاثون

مددتُ يدي أسفلَ جيب تنُّورتي، أبحث عن هدية عيد ميلادي السعيد الفضية الفاخرة، لكنني وجدت قطعة صابونة مغلفة مكسورة عديمة الفائدة. وتذكَّرت أن ويل الابن استعاد القلم سابقًا.

كان ويل لا يزال يبحث في غرفة النوم في مؤخرة المنزل، وأدركت أن كارلين بصحبتِه؛ إذ سمعت صوت صراخها كي يتوقَّف عن نزع الأغطية عن سريرها.

راقبت المشهد بالخارج، عبْر نافذة رفيعة مُثبتة في الباب الأمامي، ورأيت شرطيين يخرجان من سيارة الدورية ويندفعان، عبْر المطر، تجاه المقطورة. أغلقت مزلاج الباب بسرعة، ووضعت مقعدًا ثقيلًا أمامه كي يُعطيَنا مزيدًا من الوقت، على أملِ أن نجد مخرجًا من ذلك المأزِق. ركضت في الممر الضيق، قاصدة غرفة النوم، ومررت بالآخرين في طريقي إلى هُناك. كان ليستر ولِيل في المطبخ يفتِّشان خِزانات الصحون مرةً أخرى. وانهمكت بوبي في تفقُّد الغسالة والمجفِّف. أما فيش فقد كان يجلس على أرضية الحمَّام واضعًا رأسه بين يدَيه ومُغلقًا عينيه بإحكام. كان يناضل للسيطرة على العاصفة بالخارج.

هتفتُ، وأنا أمرُّ بجانب أخي، كي أبثَّ الطمأنينة في صدره: «ستكون الأمور على ما يرام يا فيش! أعلم ما يجب أن أفعله!» هبَّ فيش واقفًا، ولحِق بي إلى غرفة نوم كارلين، تلاحقه بوبي.

صحتُ: «ويل! أريد قلمي!»

أوقف ويل لعبةَ شدِّ الحبل العنيفة التي كان يلعبها مع كارلين بغطاء السرير، وفجأة ترك طرف الغطاء الذي كان يمسك به، فسقطت المرأة العجفاء على ظهرها وانطرحت في سلة الغسيل الفارغة الآن، وتخبَّطت ذراعاها وساقاها وتصارعت، وانخلع أحد نعليها

الوبريَّين وحلَّق الآخر في الهواء ليرتطم بالسقف فوق رأس بوبي مباشرة، لكنها خفَّضت رأسها في اللحظة المناسبة فتفادت الضربة. كان الوقت قد نفد منَّا تقريبًا. وسمعت صوت طرقات الشرطة على الباب الأمامي.

مددت يدي، مثل جرَّاح يَطلب مِشرطًا من مساعده، وهتفت: «ويل! القلم!» دسَّ ويل يده في أعماق جيبه، وأخرج القلم الفضِّي ووضعه في يدي بسرعة؛ إذ كان يعلم ما الذي أنوي فِعله تحديدًا. انقضَضنا على السرير، مُتجمهرين حول المرأة في السلة، نُحاول أن نبقيَها في مكانها. أنشأت كارلين تصرخ صراخًا مزبدًا حادًّا صاخبًا، كأنَّنا نحاول الإمساكَ بقطة برية. طرقت الشرطة البابَ مرةً أخرى وأدركت أنه لم يَعُد لديَّ وقت.

صرخت كارلين: «ساعدوني! أنقذوني!» فضربها فيش بسوطٍ آخر من الرياح، فانتفضت وأمالت رأسها إلى الجانب، لكن هذا لم يُوقفها عن المواء.

«ساعدوني! هناك مَن يهاجمني!»

أخرجت بوبي لفافة «بابل تيب» من جيب بنطالها الجينز، من أجل إسكات المرأة، وسحبت مقدار ذراع وقطعته. لفَّت بوبي الشريط الطويل على هيئة كتلة مُحكمة في يدها، ثم انحنت للأمام ودسَّت تلك الكتلة الكبيرة داخل فم كارلين الصاخب المفتوح، فكتمَت صرخاتها ولو لفترة قصيرة.

نزعتُ غطاء القلم وأمسكت بإحدى قدمي كارلين التي تركل الهواء؛ إذ كانت الجزء الوحيد من جسدها الذي يمكنني الاقتراب منه.

قالت المرأة: «اتركيني!» بصوتٍ مكتوم، لامتلاء فِمها الضخم بعلكة «بابل تيب» ذات العُصارة الكثيرة اللزجة، وحاولتْ بصْق العلكة، لكنَّها عجزت عن اقتلاعها من أسنانها. ركلتني مرةً أخرى، محرِّرة قدَمها من قبضتي، وانتشر شَعرها الكبير حول رأسها مثل لُبدة، كأنَّ القطة الغاضبة بدأت تتحوَّل إلى أسدٍ.

صرختُ: «حاوِلوا تثبيتَها، لا أحتاج سوى ثانية واحدة!» حاول فيش وبوبي تثبيتَ ذراعَي كارلين، أما ويل فقد أمسك بقدمَيها. ركلت كارلين ويل في صدره بقوة، فألقتْه إلى الوراء وارتطم بالسرير، لكنه نهض بسرعة وأمسك قدمَيها بإحكامٍ أكبر.

استغرق الأمر أقلَّ من ثانية لوضعِ نقطة ونقطة أخرى ثم خطٍّ طويل بما يَكفي لرسم وجهٍ بسيط أسفلَ قدمِ كارلين اليُسرى الخشِنة المتشقِّقة.

سألت: «أين أخي؟» وأنا أحاول إسكات جميع الأصوات الأخرى داخل رأسي عدا صوت كارلين، لكن وجدت صعوبةً في تجاهُل صوتِ الطَّرقات على الباب الأمامي الذي أخذ يعلو

أكثرَ فأكثر، ونقرات قطرات المطر على هيكل المنزل المتحرِّك الخارجي المعدني. كرَّرت سؤالي: «أين هو؟» صارخة في كارلين، ثم توقَّفتُ كي أُنصت إلى صوت أفكارها الوحيد.

أجاب صوتُ كارلين في رأسي: «لقد دخل إلى هُناك بنفسه ذلك الجرو المتطفِّل القذر»، بينما طرَفَت النقطتان اللتان تمثِّلان عينَي الوجه المرسوم على قدمِها. أضاف الصوت: «كلُّ ما فعلته هو أنني أغلقت اللوح حتى لا يتمكَّن من الخروج.»

سألت: «عن أي لوح تتحدَّثين؟ أين هو؟» ولوهلة توقَّفت كارلين عن المقاومة، ونظرتْ إليَّ في اندهاش. كرَّرتُ سؤالي: «إلى أين دخل سامسون بنفسه؟»

في نهاية المطاف، بصقت كارلين العلكة اللزجة الثخينة من فمها وألقت بها، فهبطت على السجادة قريبًا من فيش كأنها قطعة لحم ممضوغة. لكنها لم تتفوَّه بكلمة واحدة. بل نظرت إليَّ بمكرٍ وفضول.

سأل الوجه المرسوم على قدم كارلين في رأسي: «كيف علمت الفتاةُ بشأن اللوح؟» وضاقت عيناها وهي تَفحصُني بإمعان. أصابتْني المرأة بالقشعريرة. بدا الأمر كأنها تقرأ عقلي تقريبًا، فساوَرَني الخوف لحظة. ماذا لو اكتشفَ شخص سيئ مثل كارلين سرَّ عائلة بومونت والأشياء التي تدعهم هِبَاتهم الخارقة يفعلونها؟

لكن قبل أن أقلق بشأن ذلك، جذب انتباهي صوتٌ جديد تمامًا داخل رأسي بدا مكتومًا وبعيدًا مثل جرسٍ مخفيٍّ لا يدقُّ إلا نادرًا. ذكرني ذلك الصوت بـ...

«سامسون!»

قال الصوت في رأسي: «أنا في الحائط.» ثم تضاعف الصوت. «أنا في الحائط ... أنا في الحائط.» أرهفت السمع، ومرَّت الثواني وأنا لا أزال أتجاهل صوتَ كارلين والآخرين، وتضاعف صوت سامسون مرةً تلو الأخرى، حتى تداخل مع نظرائه الكثير من المرات، وتحوَّلت الكلمات إلى ثرثرة مشوشة رنَّانة.

أنا في الحائط.
أنا في الحائط ... أنا في الحائط.
أنا في الحائط ... أنا في الحائط ... أنا في الحائط. أنا
في الحائط ... أنا في الحائط ... أنا في الحائط. أنا في
الحائط ... أنا في الحائط.
أنا في الحائط ... أنا في الحائط.
أنا في الحائط.

رفعتُ يدي كأنني أحاول إسكاتَ بعض الأصوات، على وعي أن الآخَرين، بما فيهم كارلين، يُراقبونني بفضول شديد.

قلتُ: «إنه سامسون. يُمكنني سماعه. يقول إنه موجود في الحائط. ماذا يعني ذلك؟»

نقل الجميع أنظارهم منِّي إلى كارلين في صدمة وحيرة.

صاح فيش في كارلين، فطيَّر لُبدتها الكثَّة الشقراء للوراء، وجعلها تضيِّق عينيها أمام زوبعته العاصفة. وهتف: «أخبرينا بمكانه!»

لم أنتظر إجابة كارلين. ألقيت بقلمي وقدمِ كارلين القبيحة في الأرض، وقفزت واقفة في مكاني ثم اندفعت خارج غرفة النوم بسرعة البرق، ألاحق صوتَ سامسون كأنني ألعب معه لعبة التخمين، حتى وجدتُ نفسي أقف مرةً أخرى أمام الطاولة التي حاول سامسون الاختباء تحتها في وقت سابق. ففي ذلك المكان علا صوته لأقصى درجة، لكنَّني تفقدت هذا المكان بالفعل ...

أنا في الحائط.
أنا في الحائط ... أنا في الحائط.
أنا في الحائط ... أنا في الحائط ... أنا في الحائط. أنا
في الحائط ... أنا في الحائط ... أنا في الحائط. أنا في
الحائط ... أنا في الحائط.
أنا في الحائط ... أنا في الحائط.
أنا في الحائط.

نظرت إلى الحاجز اللوحي خلف الطاولة مُباشرة ولاحظت أن ألواحه غير مُستوية ومتراكبة أحدها فوق الآخر مثل أبواب خزانة ملابس صغيرة جرَّارة. لم يَخطر ببالي من قبلُ أنه يُمكن فتْح هذه الألواح.

تبعني الآخرون إلى غرفة المعيشة وراقبوني أركع على الأرض عند الحاجز وأطرق على الألواح، وأنا أنادي سامسون بينما أبحث عن طريقة لأفتح بها الألواح. لم يَستغرِق الأمر مني سوى ثانية للعثور على المزلاج وفتح اللوح الأول.

هتفت: «إنه هُنا! إنه هُنا!»

كان سامسون جالسًا بالداخل مُتكوِّرًا — ملصقًا ركبتَيه بصدره — وسط تشكيلة من النُّفايات والحُطام. وقد تكدَّست حولَه ملفاتٌ قديمة وصناديقُ أحذية مغبَّرة داخل منطقة

التخزين المَخفية، بالإضافة إلى أكياس من الملابس القديمة وبضع مَقَالٍ وأوعيةٍ مكسورة المقابض.

طرَف سامسون بعينَيه إلينا من مُحتجَزه المخفي كأنه لم يحدُث شيء خارج عن المألوف. وكانت يده قابضة على قلم حبر بلاستيك أسود، لا بد أنه وجده في وحدة التخزين واستخدمه كي يرسم على جميع أنحاء جسده. كانت هناك خربشات ورسومات عابثة تهتز أعلى ذراعيه وأسفلها، وزيَّنت بشَرتَه وجوهٌ سعيدة ونجوم وسفن صاروخية وروبوتات وحشرات، راحت تنتقل وتتحرَّك وتُثرثر في جوقة مجلجلة فوضوية داخل رأسي.

أخرجت سامسون من الجدار، وحضنتُه بشدة، وحاولت الإنصات إلى أفكاره. بعد أن سُمح لي بالدخول إلى عالَمه الداخلي، تمنَّيت لو أنه لم يملأ جسدَه بكلِّ هذه الرسومات؛ لأنَّني لا أستطيع فهْم كل هذه الضوضاء. لكنَّني كنتُ سعيدة برؤيته؛ لذا لم أكترث بالبقية. وبدا مزيج أصوات سامسون داخل رأسي مثل موسيقى جميلة.

فور العثور على سامسون، احتشد الجميع حولنا فجأة ...

ظهرت لِيل وليستر من المطبخ وعلى وجهَيهما أمارات الارتياح ...

خرجت كارلين من غرفة النوم، تلوِّح بمِقشَّة ناحيتنا كأنها تُخطِّط لكَنسنا جميعًا خارج بيتها، أو ربما تُفكِّر في اعتلاء المِقشَّة واقتحام العاصفة ...

وفوق ذلك، اختارت الشرطة هذه الدقيقة تحديدًا لتحطيم الباب.

الفصل الثاني والثلاثون

كانت الساعة التالية عبارة عن فوضى تامَّة. وصلَت سيارات شرطة إضافية إلى مسرح الأحداث، في غضون ثوانٍ من وصول الأولى، واقتحم أفراد الشرطة بملابسهم المبتلة التي تقطُر ماءً منزلَ كارلين. وتدفَّق المُحقِّقون إلى المنزل وحافلة «هارت لاند» لتوريد الكتب المقدسة. ونظرًا لتوقُّف الأمطار وصفاء السماء، تناثَر الجيران الصاخبون في الشارع، فَرِحين بالحصول على بعض الترفيه الحقيقي في هذا الوقت الهادئ من يوم الأحد، كي يُشاهدوا انتهاء العاصفة وما ستئول إليه الأحداث الدرامية. أخذ شخصٌ ما المِقشَّة من يد كارلين، واصطُحب الراشدون الثلاثة — ليستر ولِيل وكارلين — إلى الخارج للتحدُّث مع الشرطة. أشرفت على رعايتنا وحمايتنا اختصاصية اجتماعية من هيئة رعاية الأطفال، وكانت امرأةً في مُنتصَف عمرها ترتدي سروالًا رسميًّا رماديًّا وحذاءً بلا كعب. تكلَّم الحاضرون حولنا، لكن كانت أصواتهم خارج رأسي؛ لذا كان يمكنني تجاهلها؛ كنت أستطيع إسكاتها والتركيز على سامسون.

كان بوبي ويل وفيش يجلسون جنبًا إلى جنب على أريكة كارلين. استلقَت بوبي على الوسائد، في تظاهُر مثالي بملل المُراهِقين، تَنفخ قطعة علكة جديدة وتُفرقعها، ما أثار استياء الاختصاصية الاجتماعية بوضوح، بينما راقب ويل الضباط القادمين والذاهبين بانتباه. أما فيش فقد شحَب وجهه؛ بعد أن هدأت عاصفته بمُجرَّد العثور على سامسون، لكن محاولات السيطرة على العاصفة، تركته تعبًا منهكًا.

جلستُ وسامسون على الأرض أمام الآخرين، وأسندنا ظهرَينا إلى مقدمة الأريكة. قبعت يد سامسون المليئة بالرسومات في يدي؛ وكان لا يزال قابضًا على قلم الحبر بإحكام. ومن حين إلى آخر، كنتُ أفهم كلمة أو عبارة من خليط أفكاره، ورغم عدم منطقية هذه الأصوات وعذوبتها إلا أنها سرعان ما آلَت إلى لحن هادئ في الخلفية.

بعد فترة وجيزة، انضم المسعِفون إلى الحشد، وقدَّموا لنا أغطية وماءً، واطمأنُّوا على كل واحد منَّا على حدة؛ وطرحوا علينا الكثير من الأسئلة، والتقطوا صورًا لعين ويل المسودَّة ووجه فيش المليء بالخدوش.

حاولنا أن نَشرح لهم ما حدث مرارًا وتكرارًا، وانهمك المسئولون في تدوين الملاحظات في أوراقهم. حاولت أن أخبر الضباط والاختصاصية الاجتماعية والمُسعفين أن ما حدث هو خطئي وحدي. حاولت أن أحدِّثهم عن أهمية ذهابنا إلى أبي في القريب العاجل! فكلُّ هذه الدقائق الثمينة التي تمرُّ كان من الأولى بنا أن نقضيَها معه.

كرَّرت في انفعال: «أنا المسئولة! والذهاب إلى سالَينا هو فكرتي أنا. أنا مَن خطر له التسلُّل إلى الحافلة. وأنا مَن وردتني فكرةُ خِداع لِيل حتى تظنَّ أننا اتصلنا بالمنزل.» أنصت إليَّ الراشدون بطريقتهم الخاصة، وأَوْمَئوا برءوسهم. لكنَّني شككتُ أن يكون أحدٌ صدَّق كلامي ... رغم أنني لم أتعرَّض في الحديث إلى هِبَتي الخارقة.

شعرت أن وضع ليستر ولِيل يتأزَّم بسرعة، وقلقت كثيرًا بشأنهما، وغشاني شعور بالخِزي من أكاذيبنا والخدع التي مارسناها عليهما. لم أعتنِ بهما كما يجب.

لم يكن مُستقبل كارلين مبشرًا أيضًا؛ لأنها احتجزت سامسون في مخزنها وما شابه. لكنني لم أكترث لأمرها كثيرًا. فهي امرأة فاسِدة بغيضة.

سألتُ الاختصاصية الاجتماعية التي كانت ترتدي سروالًا رسميًّا رماديًّا، على أمل أن يكون وردها أيُّ معلومات: «أسمعتِ شيئًا عن حالة أبي؟ هل سنَذهب إليه قريبًا؟» لكن كل ما فعلتْه هي أنها ابتسمت ابتسامةً آسِفة كان من الواضح أنها مُتمرِّسة عليها. وكلما سألتُ أحدًا، أجاب: «لا نعلم بعدُ»، أو «جاري حاليًّا تسويةُ الأمر»، أو الأسوأ من ذلك: «اجلسي من فضلك بهدوء ودعي الشرطة تقوم بعملها.»

كانت الجلبة أبعدَ ما تكون عن الانتهاء. فقد بدأ أفراد شرطة كِنساس يتوافدون على المكان، وانضمَّت سيارتان إضافيتان إلى الشارع المُكتظ المُوحل. من مكاني تمكَّنتُ من مُراقبةِ ما يحدُث عبْر الباب المحطَّم. وبدأت أُفكِّر أننا لن نبلغ سالَينا أبدًا. فقد بدا الأمر كأنَّ هناك ترتيباتٍ لانتظارِ وصول القس ميكس والسيدة روزماري، وأخذنا جميعًا من مانهاتن، ثم إعادتنا إلى هيبرون. لن أسمح بحدوث ذلك. لقد قطعنا شوطًا كبيرًا لدرجةِ أننا لا يمكن أن نعود إلى البيت الآن.

خرج أحد ضباط الشرطة من سيارته الفضية اللامعة في عُجالة، حتى إنه لم يعبأ بارتداء قبَّعته المنبعجة المضحكة. وقطع الممشى القصير راكضًا باتجاه المنزل المتحرك. كان

شَعره الداكن قصيرًا، وقد صفَّفه بعناية شديدة، ووجهه الغض مُنقبضًا من التوجُّس. بدا الضابط مألوفًا وأدركت أنه النسخة الكبيرة الحليقة المفتولة العضلات من ويل الابن. لا بدَّ أن هذا الشاب هو بيل أخو ويل وبوبي.

لم أرَ نظرةَ ارتياح من قبلُ كتلك التي رأيتُها على وجه بيل عندما وجدنا جميعًا جالسين في غرفة المعيشة سالمين معافين.

صرختْ بوبي: «بيل!» وقفزت مِن مكانها مع ويل، فور أن رأياه قادمًا نحوهما. اندفعت بوبي لتُحيط صدرَ أخيها الكبير بذراعيها. وتَراجع ويل للخلف محرَجًا نوعًا ما.

سأل بيل: «هل أنتِ بخير يا روبِرتا؟»

أجابت: «نعم، أنا بخير»، وأرْخت ذراعيها وتراجعَت للخلف.

بمجرد أن حرَّر بيل بوبي، جذب ويل في عناق حارٍّ، وبدا كأنه لا يخطِّط لإطلاق سراحه مطلقًا. وواصلا على ذلك الحال.

وسمعتُه وهو يَهمِس لويل بمحبة: «ما الذي كنتَ تُفكِّر به يا صغيري؟ هل تبحث عن المشكلات مثلما فعل أبوك؟ لا تُحاول أن تتصرَّف مثلي يا ويل. أنتَ أذكى من ذلك بكثير.»

استغرق الأمر لحظةً كي أفهمَ ما يجري حولي. بدا أنني كنتُ مُخطئة للغاية عندما ظننت أن ويل الابن أخو بوبي.

كان لدى ويل سرٌّ. والآن عرفت سرَّه.

أدركت أن بيل كان حديث السن عند ولادة ويل بلا شك. وتصوَّرت السيدة روزماري، وميلها لوضع كل الأمور في نصابها والقيام بكل شيء على أكمل وجه، وهي تأخُذ على عاتقها مسئولية تربية حفيدها. هذا يجعل اسم ويل الابن منطقيًّا على أي حال.

أطلق بيل ابنه من بين ذراعَيه، وهو يُكفكف دموعه ويبذل غاية جهده لاستعادة الهدوء اللائق بالشرطي، وحينها رأيتُ أن فرصتي قد حانت أخيرًا لأحكي قصتي لشخصٍ قد يعيرها انتباهًا.

هتفتُ، وأنا ليست لديَّ أدنى فكرة بمَ أنادي هذا الرجل: «أيها الضابط ميكس؟ ... أوه، يا سيد ... بيل ... سيدي؟» لكنه عندما التفتَ إليَّ، رُحت أصارع نفسي؛ إذ كنت أعلم أنه لا بد لي من الدفاع بكل قوَّتي عن لِيل وليستر، حتى أُخرجهما من المأزِق الذي أقحمتُهما فيه. تابعتُ: «يجب أن تصدقني يا سيدي؛ فما حدث هو خطئي وحدي! أردت رؤية أبي فحسب!» ثم انفجرتُ باكيةً.

الفصل الثالث والثلاثون

انفجرتُ باكية، وأنا أجلس على أرضية غرفة المعيشة الخافتة الإضاءة، على بُعْد ستين ميلًا من مشفى «هوب» في سالَينا وأبي وأمي وروكيت، ولم أستطِع التوقُّف. ولم يكن بكائي رقيقًا جميلًا. بل كنتُ أنوح بشدة، ويسيل المخاط من أنفي، وآخذ أنفاسًا مُتحشرجة، وأهذي بكلام غير مفهوم. خطا وِيل مُبتعدًا عن أبيه كي ينحنيَ جانبي ويتناول يدي بيده. مال سامسون عليَّ. وسارت الاختصاصية الاجتماعية إلى الحمَّام وأحضرت علبة مناديل، لكنني كلما أخرجت منديلًا، فاحت منه رائحة النفتلين وكارلين، وبكيت بحرقة أكبر.

قال بيل بلُطف: «لا بد أنكِ مسيسيبي بومونت.»

أتى ويل لنجدتي، وأصرَّ قائلًا: «إنها تحبُّ أن يُناديَها الآخرون «ميبس» يا أبي.»

سحب بيل مقعدًا على مقربةٍ مني وجلس على حافته. وسأل: «هل هذا صحيح يا ميبس؟»

أومأت وسط النشيج، وأنا أحاول أن أستعيد رِباطة جأشي، حتى لا أعطيَ أسوأ انطباع مُمكن في أول لقاء. لاحظت أن بيل يَنظر إلى يد ويل القابعة فوق يدي، ولوهلة، بدا الضابط ميكس في ذروة شبابه.

قال بيل بلُطفٍ، جعَلني أرغب في أن أبكيَ أكثر: «لقد عانَيت الكثيرَ في الأيام الأخيرة. أَعلم أن أباك في مَشفى سالَينا، وأعلم أنكِ كنتِ ترغبين في الذهاب إليه، أليس كذلك؟»

أومأتُ باكيةً مرة أخرى.

قال بيل: «إذن أعتقد أننا ينبغي أن نُحقِّق لكِ ما تُريدينه.»

نظَر الجميع إلى بيل ميكس كأنَّهم يشكُّون في صحَّة ما سمعُوه. كما تطلَّعت إليه الاختصاصية الاجتماعية بدَهشة.

أنشأت الاختصاصية تقول: «لا يُمكنك أيها الضابط ...» لكنها توقَّفت عندما نظر إليها بصرامة.

طلب بيل من الاختصاصية أن تَمنحنا بعضَ الخصوصية كي نتجاذبَ أطراف الحديث. أراد بيل أن يُنصت إلى قصتنا من بدايتها إلى نهايتها بنفسه. تشاركنا جميعًا في حكاية القصة بينما تراجعت الاختصاصية إلى مقعدٍ عند الجدار. استمع إلينا بيل باهتمام، ودون أن يقاطعنا، وكان من حين لآخر يُمرِّر يده في شَعره القصير المُهذَّب بآلة الحلاقة.

عندما انتهَينا من حكايتنا، جلس بيل هُنيهة، دون أن يَنبس ببنت شفة.

سأل صوتٌ صغير، كان مثل سقوط حصاة صغيرة في مياه عميقة، فقطَع الصمت ونشَر التوتُّر في الجو: «هل أبي على ما يرام؟» ومع التدفُّق الفوضوي لأفكار سامسون المُختلطة في عقلي، مكثتُ لحظة حتى أدركت أنه كان يتحدَّث بصوتٍ عالٍ. حاولت أن أَبلع ريقي، لكنَّني وجدت حلقي جافًّا ومُنقبضًا بشدة، بينما ترقَّبت إجابة بيل.

هزَّ الضابط ميكس رأسه. وقال: «لم أَسمع آخرَ التطورات عن حالة أبيك، لكني سأرى ما يمكنني فعله كي أحصل على المعلومات. يجب أن أتحدث إلى المسئولين هُنا وأُفكِّر في الخطوة التالية. انتظروني هُنا يا صغار. وسأعود في غضون دقائق.» وابتعد ليتحدَّث إلى الضباط في الخارج. تابعته بعيني أثناء ذهابه، وتساءلت هل صار شَعره مُموَّجًا مثل ابنه أو لا، وسقطت آخرُ قطرة مِن دموعي أسفل ذقني، وخلَّفت وراءها احتقانًا في العين وألمًا في الرأس. رأيت بيل يتحدَّث إلى ليستر، ثم إلى لِيل، وفي النهاية انتقل إلى الحديث مع كارلين. سمعت ساعةً تدقُّ ببطء في مكانٍ ما بالمطبخ، كأنَّ بطاريتها قاربت على النفاد أو أنها تَحبِس أنفاسها هي أيضًا، في ترقُّبٍ لما ستئول إليه الأمور.

بعد أن أنهى بيل حديثَه مع كارلين، وتحدَّث إلى ضباط آخرين عدَّة، قضى وقتًا طويلًا للغاية في مكالَمة هاتفية، قبل أن يعود إلى المقطورة بملامحَ قاسية صارمة. لم يعُد إلى المقعد، لكنه حامَ فوق رءوسنا بدلًا من ذلك، وبدا رزينًا نزيهًا، بزيِّه الرسمي المُهندَم وشارته وبُندقيته ونظراته الشرطيَّة. تحدَّث إليَّ أولًا، ثم إلى فيش، وإلى سامسون، بنَبرة عمَلية رسمية، لكنَّها كانت تتقاطَر شفقة وعطفًا.

قال: «آسفٌ أن أُخبركم أن حالة أبيكم لم تتحسَّن. إنه — حسنًا — يحتاج إلى وجود عائلته بجواره الآن. يجب أن نُوصِّلَكم إلى سالَينا في أسرعِ وقت.»

انزلق فيش من مكانه على الأريكة، ليَجلس على الأرضية، على الناحية الأخرى من سامسون. وقال وهو يَضع ذراعه حول أخينا الصغير ويشدُّ على كتفي أثناء ذلك: «يَجب أن نكون أقوياء من أجل أبي.» كان أخي يشعر بالإنهاك الشديد؛ لذا هبَّ نسيم خفيف عبْر الغرفة، لم يَلحظه أحد لتحطُّم باب المقطورة. اكتفى سامسون بالإيماء في صمت، لكن صار صوته المُتداخِل في رأسي محمومًا وأقل عُذوبة، مثل سربٍ مِن الإوَز المتوتِّر. كانت أفكار أخي الأصغر مُختلطة بشدة، رغم أن أفكاره كانت مسموعة بالنِّسبة إليَّ؛ ولذا عجزتُ عن سَبر أغوار عقلِه، بل عجزت هِبَتي الخارقة نفسها.

توقَّف بيل ميكس قليلًا قبل أن يُواصل الحديث. وعندما تحدَّث مرةً أخرى، وجَّه كلامه إلينا نحن الخمسة. قال: «لقد تسبَّبتم بمُشكلة كبيرة في آخر أربع وعشرين ساعة أيها الأطفال. وقضى الكثيرون وقتًا كبيرًا وجهدًا مُضنيًا للبحث عن مكانكم، كما أصبتُم عائلاتكم بالذُّعر الشديد.» نظر بيل إلينا نظرةً طويلة صارمة، جعلتنا على استعداد للزحف تحت المنزل المتنقِّل والبقاء هناك. ثم أخذ نفسًا عميقًا عبْر أنفِه وابتسم إلينا بشفقة، وألقى ناحية ويل غمزة مُتآمِرة سريعة، قبل أن يُواصِل كلامه بنَبرة مُنخفِضة، وهو يَختلِس النظر إلى الاختصاصية الاجتماعية الجالسة عند الجدار.

قال: «أعلم سهولة اتخاذ قرارات خاطئة والوقوع في مَواقف صعبة، لكن لا تأخُذ الأمور مُنحنًى سيئًا بصفة مستمرَّة. سيكون هناك نتائجُ لما حدث، بالتأكيد، لكن لم يتعرَّض أحد للأذى ولم يُضمِر أحدٌ نيةَ سوء. لذا، حسبما أعلم، لن يُوجه أحدٌ تُهمًا ضد هذَين الشخصَين. ربما اتخذ السيد سوان والآنسة كايتلي بعض القرارات غير السديدة، لكنَّهما أحسنا العناية بكم، وحافَظا على سلامتِكم جميعًا.»

قلتُ وأنا أنظر إلى والد ويل: «ألن يَذهب ليستر ولِيل إلى السِّجن؟»

أجاب بيل: «كلا يا ميبس، لن يَذهبا إلى السِّجن.» واتَّسعت ابتسامته. وأضاف: «في الحقيقة، أنا بحاجة إلى مساعدتهما الآن نوعًا ما.»

سألت بوبي: «حقًّا؟»

أجاب بيل: «حسنًا، أنا بحاجة إلى مَن يَصحبُكم جميعًا إلى سالَينا، أليس كذلك؟ كما أن سيارة الشرطة لن تسعَ كلَّ هذا العدد، ويبدو أن ليستر ولِيل يَرغبان حقًّا في توصيلِكم إلى هناك.»

غشاني شعور بالراحة حتى كدتُ أبكي مرةً أخرى. سيكون ليستر ولِيل بأمان وسألتقي بعائلتي قريبًا. أردتُ أن أشكر بيل ميكس من أعماق قلبي القوي الرقيق، لكنني

حرتُ في الكلمات المناسبة. ولأول مرة، تمنَّيت لو أن هِبَتي الخارقة تعمل على نحوٍ معكوس. وددتُ لو أمكنني رسمُ وجه مُبتسم على أيِّ مكانٍ بجسدي، حتى يعلم الآخرون كيف أشعر دون أن أُضطرَّ إلى قول كلمة واحدة. لكن مِن الطريقة التي نظر بها بيل إليَّ، شعرت أنه يعلم ما أريد قوله على أي حال.

لم تكن الاختصاصية الاجتماعية واثقة تمام الثقة أن خطة بيل آمنة؛ لذا أصرَّت على ركوب حافلة الكتب المقدَّسة الوردية معنا، وطلبت أن يَصحبنا شُرطي مسلح أيضًا. رحَّب ليستر بعودتنا إلى حافلته، بلا ضغينة، لكن أصابتْه فكرة وجود ركاب رسميِّين إضافيِّين على متن حافلته بالتوتر.

حاولَت لِيل تهدئته قائلة: «سيكون الأمر على ما يرام يا ليستر. سأبقى بجوارك في المقعد الأمامي. ويُمكننا أن نتحدَّث عن طلبيتك التالية إذا كنت ترغب في ذلك. بل ربما نتناقش في فكرة إنشاء مشروعك الخاص لبيع الكتب المقدَّسة.»

قال ليستر مُندهِشًا وقد تشتَّت انتباهه بوضوح عن فكرة صعود ضابط شرطة إلى حافلته: «هل قلتِ مشروعي الخاص يا لِيل؟»

قالت: «بالطبع يا ليستر. أعلم أنك تَستطيع فِعلها.»

سأل ليستر مُتنهدًا، وهو يهزُّ رأسه، ويُحملِق إلى قدمَيه: «لماذا تأخَّرتِ في دخول حياتي إلى هذا الحدِّ يا لِيل؟ ليتَني التقيت بكِ منذ سنوات كثيرة.»

ضحكت لِيل: «أنا أتأخَّر دائمًا يا ليستر. إنها مَهارة لا أستطيع الفَكاك منها.»

شاهدتُ لِيل تُهدِّئ مخاوف ليستر، وفكَّرت كم هي امرأة صالحة وحنون، وكيف تسبَّبت لها في كثير من المشكلات. ورغم أن لِيل لم تَحقِد علينا لاحتيالنا عليها في النُّزل، إلا أنها أرادت أن تعرف كيف دبَّرنا هذه المكيدة.

قالت لِيل بعد أن قدَّمنا لها اعتذاراتنا وشرحنا لها كيفية تظاهُرنا بالاتصال بالسيدة روزماري: «أنتم شديدو الذكاء لدرجةٍ قد تُعرِّضكم للخطر يا صغار.» وعانَقَتْنا جميعًا واحدًا تلو الآخر. وأضافت: «يُستحسَن أن يَحذر منكم العالَم. فستُصبِحون مشاكلَ كبيرة في المستقبل.»

كان من المُخطَّط أن يتقدَّم بيل بسيارته حافلة «هارت لاند» لتوريد الكتب المقدَّسة ويُرافقنا إلى سالَينا، وعرض على ويل الركوب معه. تأمَّل ويل المسكين سيارة الشرطة وبدا مُمزقًا تتخطَّفه رغبتان متعارضتان. تصوَّرتُ أنه سيُحبُّ كثيرًا الركوبَ في مقدمة هذه السيارة، مع أبيه، كأنه رجل شرطي. لكنه نظر إليَّ.

قال ويل لأبيه بابتسامة خجول: «أيُمكننا أن نفعلها المرة القادمة؟»

ضحك بيل وقال: «اذهَب مع أصدقائك»، وعبَث بشَعر ويل الابن، قبل أن يَجذبه نحوه في ضمة أخرى، ويُربِّت على ظهره.

قلتُ لويل ونحن نَجلس في مقاعدنا: «أظنُّ أنكَ اشتقك كثيرًا إلى أبيك أيضًا.»

هزَّ ويل كتفَيه واعتصر يديَّ بقوة. وقال: «لا تسير الأمور كما نشتهي دائمًا يا ميبس.» فكَّرت في ذلك، وفي أبي الراقد في المشفى. ونظرتُ إلى هِبَتي الخارقة التي لم تَعمل بالشكل الذي تمنَّيته، وإلى رحلتنا إلى سالَينا بتقلُّباتها وتحوُّلاتها. ثم تذكَّرت ما قالته لِيل قبل أن تغطَّ في النوم في النُّزل في الليلة السابقة. «لا أحد يَدري متى يُثمِر الشر عن خيرٍ.» أدركت أن الخير والشر كانا دائمًا حاضرَين ودائمًا مُختلطَين في تشابك. وإن كنت لا أعرف، في هذه اللحظة، إن كانت هذه الفكرة جعلتْني أشعر بأي تحسُّن أم لا.

الفصل الرابع والثلاثون

كلَّما اقتربنا من سالَينا، ازداد العالم اخضرارًا، وتحوَّلت النِّجاد الجرداء إلى أراضٍ زراعية ريَّانة وافرة. فور أن عَثرنا على سامسون خلف الجدار اللوحي في منزل كارلين المتنقِّل، انقشعَت عاصفة فيش عن بحيرة «تاتل كريك». وأضاءت أشعة الشمس الربيعية المُنعِشة السماء مرة أخرى. لكن رغم أشعة الشمس، والمظهر الطبيعي الأخضر الخلَّاب، كانت أفكاري قاتمة وقاحلة وكئيبة. ولم أستطِع التفكير إلا في أبي.

جلستُ وويل الابن بالقُرب من مقدمة الحافِلة حتى يستطيع ويل مُشاهَدة سيارة أبيه، وجلس فيش وبوبي في الجهة المقابلة عبر الممر، مُتجاهلَين الاختصاصية الاجتماعية التي جلسَت خلفهما مباشرة. انهمَكت بوبي في مضغ علكتها وطلاء أظفارها، بطلاء الأظافر الأحمر من «ميجا ميجا مارت»، وكانت تُطلق السِّباب بهمس، كلَّما ارتجَّت الحافلة في الطريق، أما فيش فقد أسند رأسه إلى النافذة مُغلِقًا عينَيه. كنتُ أعلم أنه ليس نائمًا. وأحسستُ أنه يُفكِّر في أبي مثلَما أُفكِّر. لم أستطِع إخراج كلمات الضابط ميكس من رأسي. ولم أستطِع نسيان ما قاله عن أبي.

«إنه يحتاج إلى وجود عائلته بجواره.» بدَت هذه الكلمات مُفزِعة بالنِّسبة إليَّ. كما بدتْ يائسة.

تكوَّر سامسون في المقعد الأمامي مع لِيل، لعَجزِه عن تخطِّي الضابط المُتمركز في مُؤخِّرة الحافلة، ووضع رأسه في حَجْرها. استخدمت لِيل كل المناديل المُبلَّلة بالكحول من صندوق الإسعافات الأولية الجديد لإزالة الوشوم السوداء مِن فوق ذراعَي سامسون ويدَيه. اضطربت الوشوم وارتعشت أثناء انفكاكِها عن جلده، وخفضت الفَوضى التي في رأسي، مُخلِّفة صوتًا ثاقبًا وحيدًا، اخترق قلبي، قبل تبدُّده.

كُن قويًّا من أجل أبي ...

كُن قويًّا من أجل أبي ...

تبقَّى أمامنا طريق وحيد بين الولايات لاجتيازه، وبدأ العدُّ التنازُلي للأميال والمخارج ببطء، وأمسكت لساني رغمًا عنِّي حتى لا أسأل: «كم تبقَّى؟ كم تبقَّى؟ كم تبقَّى؟»

انقضَت ساعة، بدت كالدهر، قبل أن يتَّبع ليستر سيارة بيل ميكس منحرفًا عن الطريق الواصل بين الولايات، ويأخذ مخرج ٢٥٢، مرورًا بلافتة دُوِّن عليها حرف «إتش» بالإنجليزية بحجم كبير وباللون الأبيض، إشارة إلى أنَّنا نسير في الاتجاه الصحيح ناحية المشفى. سرَت في جسدي قشعريرة وأنا أنظر إلى الحرف الأبيض المُصفَر. فهو يَعني أننا وصلنا إلى وجهتنا تقريبًا، وأننا كِدنا نَبلُغ أبي أخيرًا.

انعطَفنا يَسارًا، أدنى الطريق السريع، باتجاه شارع تسعة، في أعقاب بيل الذي قادَنا إلى داخل مدينة سالَينا. وكلما مررنا بتقاطع طرق، كنا نجد مصابيح إشارات المرور مُهشَّمة، كأنها صفوف رأسية من محاجر عيون فارغة. سارت السيارات ببُطء وزحفت عبْر الشوارع المُزدحِمة، واحتقنت حركة المرور، على الرغم من أننا كنا في وقت العصر من العطلة الأسبوعية. وانتشَرت الفِرَق لمُحاولة استبدال الزجاج المكسور لإشارات المرور بألوانها الحمراء والصفراء والخضراء، وكانت المدينة لا تزال تتعافى من آثار عاصفة روكيت الكهربائية. ابتلعتُ ريقي بصُعوبة؛ إذ لم أرَ روكيت يتسبَّب في مِثل هذه الفَوضى مِن قبْل. وارتجفَ جسدي أكثر. ربما لم تكن فكرة اصطحابِه لأمي إلى سالَينا صائبة على أيِّ حال. تمنَّيت لو أن المشفى لديه مَصابيح احتياطية كثيرة، وأن روكيت لم يكن قريبًا من المعدَّات اللازمة لإنقاذ الحياة.

جلسنا جميعًا مُتأهبين، وذهبت آثار النعاس جميعها، فور أن ابتعدنا عن الطريق السريع بين الولايات. ولولا أنَّنا نسير في أعقاب بيل، لاستغرقنا وقتًا طويلًا للغاية، في شقِّ طريقنا عبْر الشوارع المزدحمة. لكن بيل شغَّل صَفَّارة الإنذار، حتى إنه خرج من سيارته بضع مرات، لتوجيه الحافلة عبْر التقاطعات، عندما لم يسمح السائقون المستاءون لنا بالعبور. كانت السماء قبل الغروب ضاربةً إلى الزُّرقة مثل وردة الذرة قبل وصولنا، لكنها الآن صارت ملبَّدة بالغيوم. وتجمَّعَت قطرات المطر من أنحاء الغلاف الجوي على هيئة سحابة عاصفة داكنة صغيرة فوق الحافلة مباشرة. لكن فيش تحكَّم بهِبَته الخارقة بقوَّة ومهارة، فظلَّت السحابة تُحلِّق فوقنا بإصرار، دون أن تُسفر عن رذاذ أو مطر خفيف.

لا بدَّ أن بيل أبلغ عن وصولنا مقدمًا؛ إذ فور أن تَبِعت حافلة «هارت لاند» لتوريد الكتب المقدَّسة الوردية الكبيرة سيارةَ بيل إلى ساحة انتظار المشفى وتوقَّفت أمام الأبواب الزجاجية المُنزلقة الكبيرة مُباشرة، وجدنا عائلتَينا في انتظارنا.

بدا أن القسَّ ميكس والسيدة روزماري تَتنازعهما مشاعر الارتياح والغضب؛ إذ لانَ وجهاهما ثمَّ تجمَّدا؛ وابتسما ثم انقبضا. كان روكيت وأمي هناك أيضًا، وبدوا مُتعبَين ولم يذُوقا طعم النوم. وللمُفاجأة، كانت أمي تُمسك بجيبسي التي تُحاوِل الإفلات من قبضتِها، وجَدِّي بومبا يستند إلى ذراع روكيت بينما يتشبَّث بأحد أوعية جَدَّتي دالَاب. لا بد أن القس وزوجته أحضرا بقيَّة العائلة وشعرتُ بالامتِنان نحوهما. فمن الجيد أن يجتمع جميع أفراد العائلة مرة أخرى.

فور أن فتح ليستر باب الحافلة، أنزلت أمي جيبسي على الأرض، وأمسكَت يدَها واندفعتا معًا نحو الحافلة، بينما شرعنا نهبط درجات الحافلة الثلاث.

سألت أمي بصوتٍ باكٍ: «أين كنتم بحق السماء؟ فيمَ كنتُم تُفكِّرون؟» وجذبتني وفيش وسامسون، وتشبَّثت بنا بقوة، واحتضنَتْنا مع جيبسي، كأننا باقة أزهار كبيرة، في عِناق مثالي. وعندما أخلَت سبيلنا أخيرًا، قادتنا إلى الداخل، وفحصت كلَّ واحد منَّا على حدة، كأنها تتأكد من عدم وجود أصابع ناقصة في الأيدي أو الأرجل.

قال روكيت: «لم أكن قلِقًا»، وكان وجهه مقطبًا وقاسيًا؛ لذا لم أُصدِّقه. اعتصر روكيت كتفي من الجانب، وسَرَت صعقة كهربائية غير مقصودة في جسدي، جعلتني أنتفِض من مكاني. وتهدَّج صوته وهو يقول: «تُحدِث أعيادُ الميلاد التي تظهر فيها الهِبَات الخارقة جلبةً دائمًا.» ثم لكم فيش في ذراعه، وعبث في شعر سامسون، فانتصب وطقطق بفعل الكهرباء الساكنة. لم يخطر ببالي من قبل أن روكيت كان قلقًا بشأننا؛ إذ خِلته قلِقًا على أبي فحسب. واجتاحني شعور بالذنب، حتى كاد يسحقني تحت وطأتِه، وفهمت لمَ أحدث روكيت كلَّ هذه الأضرار.

وقف جَدِّي بومبا، وتلطَّخ وجهُه المجعَّد بالدموع، وهو ينظر إلينا واحدًا تلو الآخر. كان يمسك بالوعاء الزجاجي ذي اللاصقة الباهتة بين عضدِه وساعده، ولم يكن من الصعب تخمين محتوياته.

ألقيتُ ذراعَيَّ حول جَدِّي العجوز، وعانقتُه بأقصى قوة تَحتملها عظامُه الواهنة. وقلتُ: «لا بأس يا جَدِّي. لقد اجتمعنا مجددًا كما ينبغي أن نكون.»

أطلقت سراح جَدِّي، واستدرتُ إلى أمي. كان سامسون يقف بجانبها، ويشدُّ قميصها بقوة. تجاهلَت أمي محاولةَ جيبسي للإفلات من قبضتِها، وانحنَت كي يهمس سامسون في

أذنها. كانت عينا سامسون متسعتَين وداكنتَين وهما تتطلَّعان في وجه أمي، ورأيت شفتَيه تُشكلان الكلمة التي كانت تدور في أذهاننا جميعًا.

«أين أبي؟»

أطرقت أمي برأسها، واختفَت ابتسامتها الدافئة التي حيَّتنا بها، لمدة نصف ثانية، قبل أن تحلَّ محلَّها ابتسامةٌ من نوع آخر تمامًا، تولَّدت من مشاعر الحب والشفقة والرغبة في حمايتنا جميعًا من أسوأ مخاوفنا.

قالت أمي برقَّة: «من الجيد أنكم هنا الآن. لقد أخطأت عندما لم أُحضِركم معي من البداية.»

قلتُ: «لكنَّك، يا أمي، لا تَقترفين الأخطاء.»

احتقن وجهُ أمي وانقبَض وهي تُحاول أن تحبس دموعها. وقالت وهي تجذبني ناحيتها مرة أخرى: «أوه، يا ميبس، يُمكنني اقترافُ أخطاءٍ مثالية للغاية.»

خفض روكيت رأسَه وحملق إلى الأرض، وقد ابيضَّت مفاصل أصابعه وانطبقت أسنانه بعضها على بعض بقوة، بينما خفتَت مصابيح غرفة الانتظار وتذبذبت لكنها لم تحترق أو تتهشم.

قالت أمي وهي تخلي سبيلي وتمسح دموعها: «سأترككم تُودِّعون رفاقكم. ثم نذهب إلى رؤية أبيكم.»

توسَّل إليها فيش، وهو يحمل جيبسي من فوق الأرض ويجذب ذراعها: «دعينا نذهب الآن.»

لكن تسمَّرت أمي في مكانها بعناد. ومسَّدت شَعر فيش المنكوش دون تركيز قائلة: «لن يتغير شيء في الدقيقتَين التاليتين يا فيش. ودِّع أصدقاءك.»

جذب بكاءٌ كالعويل انتباهي. بجانِبنا، وجدتُ السيدة روزماري واقفة، تُحاول كبْح دموعها المنهمرة. كفكفَت دموعها بمنديل أبيض، وتناوبَت على مُعانقة ويل وبوبي بقوة، بينما أبقى القس ميكس عينَيه مُغلقتَين ويدَيه مُشبكتين، كأنه يشكر الرب بحرارة وصمت.

انضم إلينا بيل في منطقة الانتظار، وتلكأ في الخلف قليلًا حتى لا يقاطع لمَّ الشمل العاطفي، وشاهد باهتمام السيدة روزماري وهي تفحص عينَ ويل المسودَّة بحنان الأم. لكن عندما أنهى القس ميكس ثناءه على الرب وفتح عينَيه، مدَّ يده إلى بيل وصافحه بقوة ثم جذبه إلى الجماعة مربِّتًا على ظهره بكل احتفاء وود.

فصلت بوبي نفسها عن أمِّها، فور أن تمكَّنت من ذلك، وانسلت إلى روكيت بابتسامة على وجهها وتأملت التصاقَ قميصه بجسده بفعل الكهرباء الساكنة. لاحظ روكيت ابتسامةَ

بوبي بسرعة شديدة، وابتسم لها رغم كل شيء ابتسامةً لطيفة بسيطة. تذكَّرت كيف حكت بوبي عن أخي في المسبح وترقَّبت لأرى ما قد تفعله.

قالت بوبي وهي تبعد شَعر ناصيتها عن عينَيها وتَميل على إحدى ساقيها: «مرحبًا يا روكيت.»

أجاب روكيت بإيماءة: «مرحبًا بوبي»، وطقطقت شرارة زرقاء شاردة على أطراف أصابعه.

وحدها بوبي مَن لاحظت هذه الشرارة. واتَّسعت ابتسامتها، ورفعت حاجبيها، قبل أن تخرج العلكة من فمِها وتلصقها بظهرِ أقربِ مقعد لها، دون أن تُبعِد عينيها عن أخي الأكبر، كأنها تتجهز لتقبيلِه على الفور متى سنحت لها الفرصة.

لكن قبل أن تتفوَّه بكلمة أو تفعل شيئًا، جذبتها السيدة روزماري من ذراعها وأبعدتها عن بقيتنا. توقَّفت دموع السيدة روزماري مثل صُنبور ماء يُغلق ووبَّخت ابنتها قائلة: «أنتِ في ورطة كبيرة يا روبرتا بالفعل، فلا تَزيدي الطين بِلَّة.» ثم نظرت إلينا، كأننا ملائكة الشيطان أُرسلنا لإبعاد أطفالها عن الطريق القويم.

كانت الشاحنة الصغيرة الذهبية اللامعة مُتوقِّفة بالخارج، وكل ما أرادت السيدة روزماري فِعله هو وضْع حياتها في نصابها الصحيح، والرحيل إلى هيبرون، بصحبة بوبي وويل.

كان ليستر ولِيل واقفَين في مدخل الحافلة المفتوح، يَسترقان النظر إلى اللقاء العائلي، عبْر أبواب المشفى الزجاجية المنزلقة، وقد ارتسمت على وجهَيهما ابتسامةٌ واسعة. وقف ليستر خلف لِيل واضعًا يدَيه على كتفيها، وعندما نظرتُ إليهما علمتُ أنهما سيكونان على ما يرام. لكنني رجوتُ الله كثيرًا أن أحظى بفرصةِ لقائهما مرةً أخرى في يوم من الأيام. فلن يكون من الصواب ألا أفعل.

وصلتُ إلى سالَينا؛ وبلغتُها أخيرًا. لكنَّني أحسست كأنَّ قلبي ينفطر ويتحوَّل إلى كرة بطيخ كبيرة لا أكثر، قد تستحيل إلى ماء في أي لحظة. شعرت بقلبي ينخلع من مكانه وينقلب رأسًا على عقب لفراق أصدقائي الجُدد دون سابق إنذار. كلُّ ما أمكنني فِعله هو التلويح لبوبي وويل بينما كانت زوجة الواعظ تجرهما خارج المشفى.

قبل أن تنزلق أبواب المشفى لتَنغلِق، علقت عينا ويل بعيني، وغمز لي بسرعة. أدركت أنني سأراه مجددًا يوم الأحد القادم أو هذا ما كنتُ آمُلُه — كنت آمُل ألا أُطرد من الكنيسة بسبب القرارات الخاطئة أو إدراكي أنني ربما كنتُ سأتَّخذ نفس القرارات مرةً أخرى إن

تكرر الأمر. رجوت الله أن يتفهَّمَ أسبابَ قيامي بمثل هذه التصرُّفات على نحوٍ أفضل من السيدة روزماري.

قبل أن يَتبع القس ميكس زوجته خارج المشفى، صافح أمي. كما صافح جَدِّي أيضًا. وقال وهو يومئ لبقيتنا بصرامة: «ستكونون في صلواتنا دائمًا.»

أجابت أمي الواعظ: «شكرًا لك أيها القس ميكس»، وكانت تُحاول منْع ابتسامة حزينة من التسلل إلى شفتَيها؛ إذ امتلأ شَعر الرجل بكهرباء روكيت الساكنة، ووقف مُنتصبًا فوق رأسه.

فور أن تأهَّب الرجل العجوز للرحيل، تقدَّم الضابط بيل ميكس ناحيتنا. وقال: «ابقوا سالمين وابتعدوا عن المشاكل، يا أطفال، حسنًا؟» ثم صافح كلَّ واحد منَّا على حدة، ومعنا جيبسي، قبل رحيله. وعندما وصل إلى الباب، نظر إليَّ مِن وراء ظهره وأومأ ناحيتي مرةً أخرى، قبل أن يتبع الواعظ خارج المشفى. شاهدت بيل، عبْر الأبواب الزجاجية الشفافة، يتوقَّف لفترة وجيزة للحديث مع ليستر ولِيل، قبل أن يخطو خُطوة واسعة لإلقاء تحية الوداع على بوبي وويل، وهما يصعدان إلى الشاحنة الصغيرة. أحببتُ بيل ميكس، وتهلَّلت أساريري لرغبة ويل في أن يُصبح مثل هذا الأب تمامًا.

وعلى متن حافلة «هارت لاند» لتوريد الكتب المقدَّسة، بدأت كتفا ليستر تَنتفضان. لقد حان الوقت ليَمضي في طريقه. أرسلت لِيل لنا قُبلة في الهواء ولوَّحنا، أنا وفيش وسامسون، إليها.

أخيرًا آنَ أوانُ الذهاب للقاء أبي.

الفصل الخامس والثلاثون

داخل المصعد، في طريقنا إلى وحدة العناية المركَّزة في الطابق الرابع من مشفى «هوب» في سالَينا، عانقتْنا أمنا بحرارة مرةً أخرى، وقبَّلت رءوسنا واحدًا تلو الآخر.

كان كلُّ ما قالته أمي وهي تُحاول ألا يتهدَّج صوتها: «لقد قلقنا عليكم للغاية.» وشبَّكت ذراعها بذراع فيش وتناولت يدي بيدها، أما روكيت فقد اعتنى بكلٍّ من جيبسي وجَدِّي بومبا، بينما ضمَّت هي سامسون تحت جناحها، كأنها إذا أبقَتْنا بالقرب منها فلن نختفي من أمامها مرة أخرى.

رمَقني روكيت بنظرة طويلة كأنه يَفحصني بحثًا عن بقعٍ أو خطوط جديدة. ومسَحَني بعينَيه من مقدمة رأسي إلى أخمص قدميَّ مرةً أخرى. ثم سأل في نهاية المطاف: «كيف وجدتِ عيد ميلادك الثالث عشر يا ميبس؟» في الوقت الذي انفتحَت فيه أبواب المصعد في الطابق الرابع. ولوهلة لم يتحرَّك أحد منَّا. كنا نعلم أن روكيت لا يتحدَّث عن كعكة عيد ميلادي، أو الحفل، أو رحلة هروبي عبْر حافلة «هارت لاند».

تطلعت إليَّ أمي في قلقٍ لأنها في خضمِّ مخاوفها الأخرى قد نسيَت كلَّ ما يتعلَّق بهِبَتي الخارقة تقريبًا. بدأ باب المصعد يَنغلِق مرةً أخرى، ونحن لا نزال بالداخل جميعًا، لكنني مددت يدي وأمسكته.

أجبتُ روكيت كأنني لم يمسسني سوء مطلقًا: «كان جيدًا يا روكيت. أرى أنني والعالم سننجو من هِبَتي الخارقة عندما أتكيَّف معها قليلًا، هذا كلُّ ما في الأمر.»

قالت أمي وهي تَختلِس النظرَ إلى استراحة المُمرضات في الطرف المقابل من الرَّدهة: «أريد أن أسمع كل التفاصيل.» وأضافت بهدوء: «أريد أن أعرف كلَّ ما يتعلَّق بهِبَتك

الخارقة يا ميبس. كما أرغب في الاطلاع على ما جرى لكم منذ آخِر لقاء لنا. أنتظر منكِ — بل منكم جميعًا — أن تُخبروني بالقصة كلها، من بدايتها إلى نهايتها.»

همس سامسون وهو يجذب كمَّ أمي مرة أخرى: «هل يُمكننا رؤية أبي أولًا؟»

ارتسمَت على شفتي أمي ابتسامةً حزينة لم أرَها من قبل. كانت ابتسامتها تَفطر القلب على نحوٍ مثالي. لكنها لم تقدر على الإجابة، فاكتفت بإيماءة من رأسها، وفاضت عيناها الزرقاوان بالدموع. ثم خرجَت من المصعد، وقادتنا ناحيةَ استراحة الممرضات. رفعت جميع الممرضات أعينهن عن أكواب القهوة والملفات التي في أيديهن، وابتسمن إلى أمي وجَدِّي وبقيتنا، كأنهن يُعربن عن أسفهن البالغ لإصابة أبي وكسره.

كانت هناك مُمرضة ترتدي ملابسَ جراحة زرقاء زاهية منقوشة بأقواس قُزَح صغيرة، وسألت أمي: «هل هؤلاء بقية أطفالك يا سيدة بومونت؟»

أجابت أمي: «نعم». وأومأت برأسها بسرعة ناحيتي وفيش وسامسون. ثم أضافت: «هؤلاء هم المُشاغِبُون الثلاثة أو المغامرون الشاردون.»

قلتُ بنبرة حزينة: «كنَّا نحاول الوصول إلى هُنا فحسب يا أمي. كان لا بدَّ أن أرى أبي. لا أملك إلا أن أفعل.»

أومأت أمي. وقالت: «أعلم يا ميبس.» ثم التفتت إلى الممرضة وسألتها: «أيُمكنني اصطحاب أطفالي لرؤية أبيهم الآن؟» لأنني لا أستطيع التنبؤ حقًّا بما قد يحدث إن لم يروا أباهم قريبًا.»

أجابت الممرضة بإيماءة حنونة: «أجل يا سيدة بومونت. يُمكنكِ اصطحابهم للداخل.»

قادتنا أمي عبْر الرَّدهة، باتجاه باب مُنفرِج نصف انفراجة، ومرَرنا بعامل صيانة على سُلَّم متحرك يسبُّ بصوت خافت أثناء استبداله مِصباح فلوريسنت طويل في السقف. وقفت أمي، وأصابعها مُلتفة حول مقبض الباب، ونظرت في عين كل واحد منا، كأنها تجذبنا ناحيتها وتحاول ضمَّنا إليها بنظرتها.

قال فيش: «أمي؟ ألم يَستيقِظ أبي بعد؟» وهبَّت ريحٌ خفيفة أبعدت خصلات شَعره عن عينَيه.

أجابت أمي: «ليس بعدُ يا فيش. ليس بعد.» ثم تبادلت نظرةً مقصودة حزينة مع جَدِّي، وأخذت نفسًا عميقًا، قبل أن تواصل كلامها ببطء وتنتقي كلماتها بحرص. وقالت: «لقد قال الأطباء — حسنًا، لقد قالوا إنه قد لا يستيقظ أبدًا.» ثم أضافت على عجل: «ولكنَّنا سنظلُّ نأمُل أن يفعل ونُصلي من أجل ذلك؛ لأن هذا هو ما نستطيع القيام به جميعًا، وليس في أيدينا شيءٌ آخر.»

شعرت كأن الأرض ستنشق وتبلعني داخلها، وتعجَّبت هل اهتزاز الأرض من فِعل جَدِّي أم إن ساقيَّ ترتجفان.

نظرت أمي إلى فيش بسرعة، تُهيئها خبرتها السابقة، لعاصفته. لكن بصرف النظر عن المطر الخفيف المتساقط على النوافذ، وراء استراحة الممرضات، كان فيش يسيطر على هِبَته الخارقة جيدًا. ربما أصابته كلماتُ أمي بالخِدر من فرط صدمتها وثبَّطت هِبَته الخارقة، أو أن هذا ناجم عن إمساكه ليد سامسون، أو ربما تكون هذه هي قوَّته الجديدة، لكنه وقف هناك خارج غرفة أبي، دون أن يتحرك الهواء أدنى حركة.

عندئذٍ نقلَت أمي بصرها إلى روكيت.

طمأنها قائلًا: «سأكون بخير، يُمكنني الدخول هذه المرة. أتسمَحين لي يا أمي، أرجوك؟ سيسوء الأمر إن أجبرتِني على البقاء بالخارج.»

جالت أمي ببصرها من الرجل الواقف على السلَّم الخشبي، إلى قِطع الزجاج المبعثرة التي لم تنجح عمليةُ الكنس الأخيرة للبلاط في تنظيفها، ولم يبدُ أنها اقتنعت بكلامه. لكن نظر روكيت إليها بتوسلٍ، فأذعنت له؛ أدركتُ أنها تريد اجتماع عائلتنا كلها على أي حال.

في نهاية المطاف، وقعت عيناها عليَّ. وسألت: «هل هناك ما تُريدين إخباري به يا ميبس قبل أن نذهب إلى الداخل؟»

هززت رأسي نافية. وهمست: «لا. لا يوجد شيء.» لقد رجوت كثيرًا أن تأتي هذه اللحظة، وأن أجد القوة الكافية لإيقاظ أبي، وإنقاذِه، وإعادته إلى بيتنا في كنساسكا-نبرانساس. لكن لا قول للمرء في نوعية هِبَته الخارقة مثلما لا اختيار له في لون عينيه أو حجم قدميه. وليس بوسعي فِعل أي شيء لأبي، مثلي مثل الآخرين تمامًا.

ألقت أمي على عائلتها الاستثنائية نظرةً أخيرة، ثم دفعت باب غرفة أبي على مِصراعَيه، وتسللنا للداخل في صف بهدوء، لنَجد أبي راقدًا على سريره، بلا ثمَّة تشابه بينه وبين الأميرة النائمة على الإطلاق.

الفصل السادس والثلاثون

في البداية لم نتعرَّف على أبي. كان رأسه ملفوفًا بالضمادات بالكامل. واتصلت بجسده الأسلاك والأنابيب والآلات لتساعده في أداء جميع وظائفه الحيوية، وكان وجهه شاحبًا مُتهدِّلًا. استند كلٌّ منَّا إلى رفيقه أثناء تقدمنا نحو سرير أبي. كانت إحدى ذراعَي أبي موصولة بأنبوب، والأخرى مُلتفة بكفَّة جهاز قياس ضغط الدم. انتشرت الأسلاك وأجهزة الاستشعار على جميع أنحاء جسده، وبدت سبَّابته كأن فوقها مشبك غسيل ضخم؛ وانبسطت راحتا يديه، كأنه يطلب المساعدة.

شعرت كأنني نسيت كيفيةَ التنفُّس. واستحالت الوظيفة البسيطة الطبيعية من ملء الرئتين وإفراغهما إلى مهمَّة شاقة لا فِرار منها. خشيت أن أبلع ريقي، مخافةَ أن أطلق العِنان لفيضان الدموع، التي شعرت بوخزها خلف حدقتَي عيني.

وجد جَدِّي بومبا صعوبةً في فتح الوعاء الذي بين يدَيه العجوزَين، وعجزت أصابعه الهزيلة عن إحكام قبضتها على الغطاء بينما يحاول فتحه. تناول روكيت الوعاءَ من جَدِّه برقَّة، وطرق غطاءه في طاولة السرير مرةً أو مرتين بحذر. ثم فتح الغطاء نصف فتحة، فانسكبت أغنية أمي وأبي الرومانسية الأبدية في الغُرفة بصوتٍ عالٍ. التقطت أمي الوعاء من روكيت، وأغلقت غطاءه قليلًا، كي تخفض الصوت، وتمنع اندفاع الممرضات إلى الغرفة لإسكاتنا. لكن ارتعشت يداها بينما تفعل ذلك.

فركتُ ظهر كفي في ذقن أبي برقَّة، وشعرت بلحيته الخفيفة الخشنة على ذقنه غير الحليق؛ ثم انحدرت يَدي إلى ذراعه. مرَّرت يدي المرتجفة على ذراعه بخفة، وضغطت إصبعي في باطن رُسغه، كأنني أتفقَّد نبضه. حينها، تذكرت رغمًا عني الرجل المشرد، القابع عند حاويات القمامات الموجودة خلف استراحة ومطعم موقف شاحنات إيمرالد. هذا الرجل كان نائمًا أيضًا. كان نائمًا ووحيدًا تمامًا. كما كان يائسًا تمامًا. لم يكن لديه

أحد يُشغِّل الأغاني من أجله، أو يستمع إليه، أو يَكترث بأمره. لكن لدى أبي نحن، ولن نتخلَّى عنه أبدًا.

قال فيش بصوتٍ مُنخفِض ولكنه كافٍ لكي أسمعه: «ميبس». نظرتُ إلى أخي، الذي ربَّت على ساعده على نحوٍ ذي مَغذًى، ثم أشار برأسه إلى أبي. وهمس: «لا تنسَي الآنسة حورية يا ميبس. ماذا عنها؟» عندئذٍ نظر سامسون إليَّ أيضًا، واتسعت عيناه الداكنتان.

لا أُصدِّق أنني نسيت الأمر. كيف نسيت وشم البحرية الباهت على ذراع أبي؟ كيف سقطت الآنسة حورية من عقلي؟

قلبت ذراع أبي برِفق، حتى لا أنزع أيَّ أنابيب أو أسلاك هامة. كانت الآنسة هناك، تلتفُّ حول المرساة، وتغمز بعينِها من تحت الشَّعر الذي يغطي ذراع أبي. لكن وا أسفاه، بدا وشم أبي محطَّمًا وخاليًا من الحياة هو أيضًا، كأنَّ حورية البحر ذات الشعر الطويل قد تفادت الغرق في البحر لينتهي بها الأمر بالغرق على اليابسة.

أرهفت السمع بحثًا عن صوت حورية البحر في رأسي. وتتبَّعت ذيلها الأخضر الطويل برأس إصبعي. ثم أغلقت عيني بإحكام، وحاولت الإنصات إلى أفكار أبي أو مشاعره أو أحلامه أو آماله. وواصلتُ الاستماع بلا توقُّف.

لكن لم يكن هناك أيُّ شيء. لم أسمع أيَّ صوت في رأسي. ليست هناك ثمَّة أثر لأبي. وسمعت صوت احتكاك شيء معدني بزجاج؛ إذ مدَّ فيش يده، بوجه مليء بالدموع، لإغلاق غطاء وعاء جَدَّتي دالَاب، فتوقَّفت الأغنية الرومانسية الأبدية. لا أستطيع الجزْم هل فعلَ فيش ذلك لمساعدتي كي أسمع صوت أبي، أم إنه أراد أن يحمي قلوبنا من التحطُّم. بعد أن توقَّفت الأغنية، ساد صمت ثقيل على الغرفة، وشعرت أنني محطَّمة ومكتئبة كمصابيح روكيت المهشَّمة.

أدركت أن فيش وسامسون لا يزالان ينظران إليَّ، وهما يَحبسان أنفاسهما تقريبًا. كانا يُراقبانني، وأنا أنصت إلى صوت الحورية. كانا يرغبان في معرفةِ ما أسمعه أو ما لدى الآنسة حورية من معلوماتٍ بشأن أبي، ومتى يخطِّط للاستيقاظ من نومه. لم يكن روكيت وأمي يعلمان بعْدُ، بأمري مع الوشوم المرسومة على الجلد، وقدرتي على الاستماع إلى المشاعر والأفكار، وربما لم يكن هذا هو الوقت المناسب لإخبارهما؛ لأن عدم سماعي أيَّ صوت ليس أمرًا سارًّا على الإطلاق. كان فيش وسامسون يعلمان بالأمر. كانا على دراية بموهبتي، وكانا ينظران إليَّ، ليحصلا على ما يمكنهما من معلومات.

هززتُ رأسي ببطء.

استدار فيش، دون أن يحدِث زوبعةَ رياح أو نسيم، وخرج من الغرفة.

سألت أمي بقلق: «فيش؟» وتبِعته إلى الرَّدهة، بصحبة جيبسي، كي تطمئنَّ أنه على ما يرام. حاول روكيت تهدئة سامسون، لكنه وقف عند سرير أبي جامدًا كالتمثال.

كان من المستحيل تصديق أن غرفةً، بكلِّ ما فيها من هِبَات عائلة بومونت الخارقة، تعجز عن مساعدة أبي. كلُّ ما أمكنني فِعله هو أن أنصت بلا جدوى. لكنني لم أتوقَّف عن الإنصات. أنصتُّ حتى طنَّت أذني من الصفير والهمهمة والأزيز الهادئ المنبعث من الآلات المحيطة بأبي. أنصتُّ حتى شعرت بألمٍ في رأسي، ووخزٍ في عينَي بسبب الدموع الكثيرة التي لم أستطِع إطلاقها من فرط شعوري بالخواء.

راقبني روكيت وراقب سامسون بانتباه، نيابةً عن أمي التي كانت في الرَّدهة مع فيش وجيبسي. ارتمى جَدِّي بومبا في مقعدٍ عند نهاية سرير أبي، وبدا يائسًا وأكبرَ سنًّا مما هو عليه في الحقيقة.

انحنيت فوق سرير أبي بعناية بالغة وهمست في أذنه. قلتُ: «أنصِتْ إليَّ الآن يا أبي. آن أوانُ أن تسمع صوتي في رأسك. ربما تظن أنك بلا هِبَة خارقة، يا أبي، لكنك مخطئ في ذلك. أنت لديك هِبَة خارقة. وهذا لا شك فيه.» تأمَّلت كلَّ ما أعرفه عن أبي. تذكَّرت حكايةَ لقائه بأمي ومغازلتها، دون أن يتوقَّف عن المحاولة، حتى وافقت أمي على الزواج منه أخيرًا، حتى بعد أن أمرته خالتي دينا بالانصراف. فكَّرت في أكبرِ أرجوحة شُرفة في العالم، وكيف تعهَّد أبي دائمًا ببناء واحدة خاصة بنا. وتذكَّرت كيف عاد أبي للمنزل من عمله في وقت متأخر من الليل، لأنه عزم على انتقاء أفضل فستان للمناسبات الخاصة يمكنه العثور عليه.

كرَّرت على مسامعه: «لديك هِبَة خارقة يا أبي. أؤكد لك ذلك. أنت لا تيئس أبدًا يا أبي. هذه هي هِبَتك الخارقة. أنت لا تعرف الاستسلام أبدًا.»

أغلقت عيني، وتمنَّيت أمنية عيد ميلادي، وإن كان الوقت قد تأخَّر كثيرًا. تمنَّيت أن يسمعني أبي. وددتُ لو أن أبي ينصت إلى حديثي. ثم انحنيت وقبَّلت جبينه.

سمعت صوتًا شديدَ الخفوت في رأسي يقول: «... تيئس.»

فتحت عينيَّ. كانت يد سامسون قابعة على كتف أبي بخفة.

سمعت الصوت من جديد: «... لا ... تيئس»، لكنه كان عاليًا نسبيًّا هذه المرة.

نظرتُ إلى سامسون. لا أذكر أنني رأيت أخي الصغير يبكي من قبل، فقد كان بارعًا في إخفاء مشاعره وكل شيء، لكنه يَبكي الآن بلا نشيج أو صوت. انسابت دموع سامسون الهادئة الكبيرة على وجنتيه وانهمرت مثل أمطار فيش على صدر أبي.

ربما كانت تلك كلمات سامسون أو كلماتي أو أمنيتي ... أو ربما معجزة. أو ربما جرى مع أبي مثلما جرى مع سلحفاة أخي الأليفة الميتة، ربما تكون الطبيعة قد أخذت مجراها فحسب، وآن أوانُ شفاء أبي واستيقاظه ببساطة. لن نَعلم السببَ حقًّا. فبعض الأمور تبقى غامضة حتى مع وجود هِبَة خارقة.

«... لا تيئس.»

ارتجفت الآنسة حورية، وهزَّت ذيلها قليلًا، كأن ذلك يتطلَّب منها جهدًا كبيرًا.

«لن ... أيئس.» كان الصوت في رأسي أعلى الآن.

صحتُ: «أبي!» بعد أن تأكَّدت أن ما سمعته حقيقةٌ وليس مجرد آمال. كان الصوت آتيًا من أبي والآنسة حورية. قلتُ: «أبي، هذا صحيح! أنت لا تعرف اليأس! هل يمكنك سماعي يا أبي؟ هذه أنا، ميبس!»

وضع روكيت يديه على كتفيَّ، وحاول إسكاتي، لكني تملَّصت منه. نهض جَدِّي من مقعده بملامح صارمة.

هتفتُ مرةً أخرى: «أبي! أيُمكنك سماعي؟ لا تستسلم!»

قال روكيت: «توقَّفي عن الصراخ يا ميبس. نحن في المشفى.»

أجبتُ: «يُمكنه سماعي يا روكيت! أعلم ذلك. كما أنني أسمعه أيضًا.»

رفع روكيت صوته الآن، وقد بدا متعبًا منزعجًا: «أبي غائب عن الوعي يا ميبس.» لكنَّني تجاهلته وواصلت الصراخ في أذن أبي.

صاح روكيت: «ميبس!» وحاول إبعادي عن أبي مرة أخرى.

وفجأة، جنَّ جنون أجهزة المراقبة والآلات، بضجيجها وطنينها وأزيزها. وومضت المصابيح وانطلقت أجهزةُ الإنذار. وتطايَرت شرارات من المعدات وصار خط النبض الصاعد والنازل على شاشة جهاز مراقبة القلب مُستقيمًا، ودوت منه صفَّارة مُرعبة رتيبة.

شحب وجهُ روكيت تمامًا. وانقبضت ملامحه من الارتياع، وبدأ يتقهقر من الغرفة، حتى ارتطم بفيش وأمي اللذَين سمعا كلَّ هذه الجلبة، فقَدِما راكضَين إلى الغرفة. تبِعتهم الممرضة بزي الجراحة المنقوش بأقواس قُزح.

قالت الممرضة: «ليُخلِ الجميع الغرفةَ في الحال.»

صرخت: «لا! إن أبي بحاجة إليَّ! يمكنني سماعه!»

قالت أمي: «أرجوكِ يا ميبس ...»

لم أستطِع السماح لهم بإخراجي من الغرفة. يجب أن أمكث وأنصتَ إلى أبي. يجب أن أُعلِمه أنه حان وقت استيقاظه، وأنه سيجدني هناك ما إن يفعل ذلك. خفضتُ صوتي، وانحنَيت بالقرب من أذن أبي مرة أخرى، متشبِّثة بسريره متجاهلة كل محاولات الآخرين لإبعادي عنه.

قلتُ: «أبي الحنون الطيب، آن أوان استيقاظك وعودتك إلى بيتنا. حان وقت رجوعك إلى منزلنا وبناء أرجوحة الشرفة، حيث يمكننا الجلوس معًا وتأمل السماء ومشاهدة مرور السَّحاب. وعندئذٍ سأحكي لك كلَّ ما حدث أثناء نومك، كلَّ ما يتعلَّق بالحافلات والقُبلات والأصوات وكل شيء. لا تستسلم يا أبي. لا تستسلم!»

تدفَّق المزيد من الممرضات إلى الغرفة، وبذلن محاولاتٍ غير مثمرة في تتابع، لإفلات أصابعي المتشبِّثة بسرير أبي، بينما شقَّ طبيب طريقه عبْر تجمهرنا ليتفقد نبضه.

«ميبس؟»

«أجل! يا أبي! أنا هُنا.» شددتُ على يد أبي. يُمكنه سماعي. أبي يعلم أنني هُنا.

«ميبس؟»

«أنا أسمعك يا أبي. أنا ميبس. ابنتك ...»

أوقفت نفسي قبل أن أقول «ابنتك الصغيرة». لا أشعر أنني صغيرة بعد الآن. لقد كبرت.

«هذه ميبس، يا أبي. أنا هُنا.»

انتفضَت أصابع أبي وارتعش جفناه وانفتحا، فابتسم الطبيب، وبكت أمي. كان روكيت يتنفس بصعوبة وسط دموعه، أما فيش فقد شهق وأطلق صيحةَ فرح. تحسستُ يد سامسون في يدي وأيقنتُ أن كل الأمور ستسير على ما يرام.

الفصل السابع والثلاثون

استغرقَ أبي فترةً طويلة للغاية كي يستردَّ عافيته على نحوٍ كافٍ يُمكِّنه من العودة إلى بيتنا في كنساسكا-نبرانساس. لكن لم تَعُد الأمور كما كانت قبل وقوع الحادثة أبدًا. عندما يقع لك حدثٌ جلل، مثل حادثة أو ظهور هِبَة خارقة أو تبادل أول قبلة، تأخذ الحياة منحنًى جديدًا ولا يمكنك العودة إلى ما مضى. كل ما يُمكنك فِعله هو المُضي قُدمًا وألا تنسى ما اكتسبته من خبرات.

كان عيد ميلادي الرابع عشر ساطعًا ومُشرقًا، بلا أحداث خاصة أو مهمة تميِّزه، بخلاف أنني ازددت عمرًا. وصل موسم الربيع مرةً أخرى، وكانت أمي في المطبخ تُعدُّ كعكةَ عيد ميلادي. كانت نفس الكعكة التي تُقْتُ إلى الحصول عليها السنة الماضية، تعلوها عجينة سكَّر صفراء ووردية، ومزينة بأزهار مثالية من السكَّر، لكنها لم تَعُد ذات أهمية بالغة بالنسبة إليَّ، مقارنةً بغيرها من الأشياء.

جلستُ وأبي في الشرفة، نتأرجح بأرجوحتنا الخاصة، التي شيَّدها لنا الخريف الماضي بمساعدتي وروكيت وفيش وسامسون، لكننا أدَّينا غالبية المهمة؛ إذ كان رأس أبي لا يزال متأثرًا بالحادثة. لكننا لم نستطِع التخلِّي عن حُلُم الحصول على أرجوحةِ شرفةٍ مِلْكنا وحدنا؛ لذا باشرنا تحقيقه بكل سرور.

لم تكن أرجوحتنا أكبرَ أرجوحة في العالم، كالتي في هيبرون، كما لم تكن أجملها. بل لم تقرب لهاتين الصفتين أدنى اقتراب. لكن وأنا أجلس فوقها مع أبي، أفكِّر وأنصت، بينما أراقب معه مرور السِّحاب، أدركت أن أرجوحتنا هي أفضل أرجوحة في العالم. فقد كانت أرجوحتنا حقيقية، مُلحقة بشرفة حقيقية، ومُستندة إلى منزل كامل مليء بالحب.

كان جَدِّي ينام في مقعد كبير من الخوص في الطرف الآخر من الشرفة، يحلُم بالأيام التي كان لا يزال فيها قادرًا على تحريك الجبال، وكان فيش جالسًا على الدَّرج بجوارنا،

يُنصت إلى حديث جيبسي لنفسها، وهي تلتقط زهور سن الأسد في الفناء، بقدمين عاريتين، وثياب ترتديها على نحوٍ معكوس. انهمك فيش في مراقبة أخته الصغيرة عن كثَب وتوبيخها في كل مرة تحاول وضع زهرة سنِّ الأسد في فمها.

قال فيش: «توقفي يا جيبسي»، بينما قرَّبت زهرة صفراء من لسانها في استفزاز. وأضاف متوعدًا: «إذا وضعت عشبة ضارة أخرى في فمك، فسآخذك إلى الداخل.»

قال صوتٌ في رأسي: «دعي فيش يدفع الأرجوحة قليلًا ...» حفَّت الآنسة حورية ذيلها عندما نظرتُ إلى ذراع أبي. رفعت عينَي إلى وجه أبي، ووجدته يفرك ذقنه بظهر كفه مبتسمًا. لقد تعرف عليَّ ذلك اليوم. كان الأمر رائعًا.

عندما عُدنا إلى البيت من مشفى «هوب» في سالَينا، كان أبي لا يستطيع تحديدَ اليوم الذي نحن فيه من الأسبوع، أو تذكُّر ما إذا كان يحب التوت الأزرق في فطائره المحلاة أم لا. كما لم يستطِع تذكُّر هل كنَّا نعيش في نبراسكا أو كِنساس، ولم يفهم مِن أين لنا العيش في هذين المكانين في آنٍ واحد، وكيف حدث هذا بدايةً. وفي أيامه العصيبة كان يعجز عن تذكُّر كلماتٍ مثل «جريدة» أو «قهوة» أو «مربًى» أو «آسف».

لكن، في أيامه الجيدة، أو أفضل أيامه، كذلك اليوم الربيعي الذي جلسنا فيه في الشرفة وتسللت رائحةُ إعداد الكعك إلينا من النافذة، كان أبي ذلك الرجل الذي أَلِفته — بلا شَعر على رأسه ليغطي الندوب الناجمة عن الحادثة — لكنه طيِّب ولطيف كسابق عهدنا به.

هتفت: «يا فيش. بابا وأنا نريدك أن تدفعَ الأرجوحة.» صرف فيش انتباهه عن جيبسي وزهور سن الأسد. وقطَّب جبينه لحظة، ثم أرسل إلينا هِبَةً من الرياح، هزَّت أرجوحة الشرفة بقوة ونحن عليها، حتى كِدنا نسقط من فوقها.

ضحكْتُ: «يا إلهي! ليس بهذه القوة!»

قال فيش بضحكة عابثة: «آسف»، ودفعنا بهِبَة أخرى، لكنها كانت أقلَّ حدَّة هذه المرة.

سمعنا صرير الباب الشبكي قبل أن ينفتح بصوتٍ مدوٍّ، ومنه دلفت أمي إلى الشرفة، بمئزر نظيف تمامًا ووجنتين متوردتَين من الطهي في المطبخ. ونظرت أمي إلينا جميعًا.

«أين ...؟»

أجبتُ: «سامسون في الطابق العلوي. إنه يُساعد روكيت في حزمِ حقائبه.»

تمتم فيش: «وفقًا لمعرفتي بسامسون، لا بد أنه اختبأ في إحدى حقائب روكيت. ولن يُدرك أحدٌ ذلك حتى يصل روكيت إلى مزرعة خالي أوتري.»

روكيت، الذي بلغ من العمر الثامنة عشرة وصار حرًّا ليشق طريقه في الحياة بنفسه، عزم على ركوب الحافلة الذاهبة إلى وايومينج، في صباح اليوم التالي، ليقضي فصل الصيف، وربما فترة أطول من ذلك، مع شقيق أمي وعائلته في مكانٍ أقربَ إلى المجهول من كنساسكا-نبرانساس. في مزرعة الخال أوتري، يستطيع روكيت إطلاقَ العِنان لشراراته الكهربائية، كيفما شاء دون أن يبالي. فليس هناك جيران لعدة أميال؛ لذا لن يهتم أو يكترث أحدٌ بما يحدث.

حاول جَدي وأمي إقناعَ روكيت بأنه يُبلي بلاءً حسنًا، وأنه يمكنه تخفيف وقْع شراراته، مِثله في ذلك مثل أي شابٍّ آخر، وأنه بمزيد من الجهد وعدَّة سنوات أخرى سيعالج هذا الأمر تمامًا. لكنه لم يعُد لحالته القديمة بعد ذلك اليوم في مشفى «هوب» في سالَينا في العام السابق. لقد فقدَ ثقتَه بنفسِه وتباهيه. ومنذ ذلك اليوم لم يَعُد يتفاخر بهِبَته الخارقة أو يزعجني بشأن هِبَتي الخاصة، ولو لمرة واحدة. وشاهد فيش وهو يسيطر على عواصفه، بفخر أخوي وغبطة، لكن وايومينج ستمنحه مساحاتٍ واسعة مفتوحة للعمل بالخارج والنوم تحت النجوم والتخفُّف من أعباء هِبَته الكهربائية.

سألتُ روكيت عندما أعلن عن دعوة الخال أوتري له بالذهاب والإقامة بمزرعته: «كيف سنُشغِّل سيارتنا العائلة في غيابك؟»

ضحِك روكيت وفرقع بضع شرارات عابثة. وقال: «أرى أن يُفكك أبي هذه السيارة البالية، التي تُشبه علبةً معدنية قديمة، ويزودها ببطارية جديدة.»

سيكون غياب روكيت غريبًا، خاصة مع سيطرة فيش على هِبَته الخارقة بمهارة، ما يسمح له ببدء المدرسة الثانوية في هيبرون في الخريف. وقريبًا سأباشر زراعةَ الطحالب في أوعية المخلل وحدي، وسأرسم الألواح مع أمي، وسأدرس منزليًّا. ليس بمقدور هِبَتي الخارقة إيذاءُ الآخرين أو إحداث الضرر، لكنني وأمي ارتأينا الدراسة بالمنزل على أيِّ حال، تحسبًا لأي مفاجآت.

قالت أمي: «لن يضيرك عامٌ أو عامان لاكتساب قوَّتك وتعلُّم كيفية التعامل مع هِبَتك الخارقة. وبعد ذلك ستَصيرين جاهزة لمواجهة العالم.»

كانت أمي لا تعلم أنني واجهت العالم، وفزتُ في المواجهة. لقد تكيَّفت مع كل الأصوات داخل رأسي، وبدأت أميز الأصوات التي يجب أن أعيرها انتباهي من غيرها. وينطبق الأمر على الأصوات خارج رأسي أيضًا، ولا بدَّ أن قوَّتي الجديدة ظهر أثرُها عليَّ، كأن هناك علامة على جسدي، لأنه في المرة التالية التي قابلت فيها أشلي بينج وإيما فلينت في هيبرون لم يتفوَّها بكلمة واحدة، ولم أسمع منهما «ميسي-بيسي» ولو مرة.

قاطعت الآنسة حورية أفكاري بشأن رحيل روكيت سائلة: «هل سيأتي صديقك إلى الحفل؟»

أجبتُ: «نعم يا أبي. سيَحضُر ويل بعد الغداء.»

تبيَّن أنه لن يُعاقبني الربُّ ولا السيدة روزماري على اختياراتي الخاطئة لفترة طويلة بعد هروبنا في تلك الحافلة الوردية الكبيرة. فقد عُدنا لحضور خدمات الكنيسة، مع القس ميكس وعائلته، وأصبح ويل وبوبي من الزوار المنتظمين لكنساسكا-نبرانساس.

قاطعتني الآنسة حورية مرة أخرى: «وتلك الفتاة ...؟»

أجبتُ ضاحكة: «ستأتي بوبي أيضًا يا أبي. فهي تُريد أن تودِّع روكيت قبل رحيله.»

تمتم أبي في استياء صاخب: «هراء»، بينما حرَّكت الآنسة حورية ذيلَها بغضب. دائمًا ما تظاهر أبي بنفوره من ويل وبوبي. وكنتُ أظنُّ أنه لم يكن يريد أن يرانا نحن أطفاله نكبر أمام عينيه. ولكن بسبب الآنسة حورية وهِبَتي الخارقة، كنت على درايةٍ بما يفكر فيه أبي دائمًا، وعلِمت أنه مسرور بأصدقائنا الجدد الذين يعلمون عن هِبَات عائلتنا الاستثنائية دون أن يؤثِّر ذلك في حبهم شيئًا.

مع انتقال روكيت، وكون سامسون وجيبسي لا يزال بينهما وبين عيدي ميلادهما المهمين سنين طويلة، بدا أن الأمور ستبقى مستقرة وهادئة لبعض الوقت. لكنني كنت أعلم سرًّا — كان من المفترض ألا أعرفه — من شأنه إثارة الأوضاع مرة أخرى، بحلول الشتاء.

كانت أمي مثالية، لكن هذا لا يعني عدم نسيانها بعضَ الحقائق أحيانًا. لذا عندما كانت تتحدَّث مع السيدة روزماري على الهاتف، في وقتٍ مُبكِّر من هذا الأسبوع، كي تحصل على الوصفة المثالية لفطيرة المارشميلو، عثرت على قلم لكنها لم تجِد الورق، ونسيت كل شيء عن الوشوم والهِبَات الخارقة والمشاعر والاستماع ودوَّنت الوصفةَ على ظهر يدها. لقد دوَّنتها بحبرٍ أحمرَ جذاب. كان الحبر أحمرَ جذابًا وصاخبًا.

بهذه الطريقة عرفتُ أن أمي تشكُّ في أنها حامل، وأنه قد ينضمُّ إلى عائلة بومونت مولود جديد عما قريب. لكن ذلك اليوم، في أرجوحة الشرفة، بشمسه الساطعة وكعكته المثالية، لم يكن مناسبًا لإفشاء الأسرار؛ لذا أبقيت فمي مغلقًا وواصلت التأرجح مع أبي.

تمنَّيت لو كانت هِبَتي الخارقة تعمل على نحوٍ معكوس مرةً أخرى ... لكنها لم تكن الأخيرة. وددت لو أرسم شمسًا باسمةً على ظهر يدي، فيعلم الجميع كيف أشعر، وكم أنا سعيدة، في هذه اللحظة المثالية.

لكن في الوقت الحالي، كانت الأوضاع هادئة، وستبقى هكذا لفترة طويلة جدًّا. ولن تتغيَّر حتى يبلغ سامسون الثالثة عشرة على الأقل ...

تُرى ماذا سيحدث حينها؟

أسئلة نقاشية

- صِفْ ميبس وعائلتها الفريدة. أترغب في أن تكون جزءًا من آل بومونت أم لا؟ ولماذا؟
- صِفْ عَلاقة ميبس بوالديها وأشقائها. كيف تعقَّدت علاقتها معهم بسبب هِبَاتهم الخارقة؟ أتظن أن وراثة هِبَة خارقة نعمة أم نقمة؟ لماذا؟ ما الذي ورِثته عن عائلتك؟
- سُردت الرواية من منظور البطلة وعلى لسانها؛ هل ستختلف القصة لو رواها شخص آخر بخلاف ميبس؟ أتظن أنَّ تغيير منظور الرواية أمرٌ جيدٌ أم سيئ؟ ولماذا؟
- لماذا كان وصول لِيل كايتلي مهمًّا بالنسبة إلى ليستر؟ كيف ساعدت في عملية تغييره ونضجه على المستوى الشخصي؟ خمِّن ما سيكون عليه مستقبل هذين الشريكين.
- كيف تغيَّرت علاقة ميبس بويل وبوبي خلال مغامرتهم معًا؟ مَن مِنْ هؤلاء الثلاثة طرأ عليه تغيراتٌ أكثر في اعتقادك؟ ولماذا؟
- حذَّرت السيدة بومونت ابنتَها قائلة: «لا يُمكنكِ التخلص من الشيء الذي يميزك عن غيرك وتواصلين العيشَ بسعادة؟» ما الذي يمكننا استنتاجه من مقولة الأم؟ أتتفق معها؟ أعطِنا بعضَ الأمثلة من القصة للتصديق على كلامها.
- أكمِل هذه النقاط: «هذه رواية عن ...» بخمس كلمات تصِف بها رواية «هِبَات خارقة». وفسِّر اختياراتك.
- عندما تحدَّثت بوبي إلى ميبس عن مشاعرَ ويل الواضحة تجاهها، قالت ميبس: «شعرت أني صغيرة جدًّا وكبيرة جدًّا في الوقت نفسه.» لمَ راودها هذا الشعور؟ هل راودَك هذا الشعور يومًا؟ كيف تعاملت ميبس مع هذه المشاعر؟ وكيف تتعامل أنت معها؟
- قالت ميبس في تأمُّل: «ربما كانت هذه حالة الجميع. ربما تسري أصوات الآخرين في رءوسنا طيلةَ الوقت على نحو فوضوي ... وبدأت أدرك صعوبةَ عزل كل هذه الأصوات

لسماع الصوت القوي الوحيد القادم من داخلي.» ما الذي يمكن للقارئ استنتاجه من مقولتها؟

- قالت ميبس: «ثم تذكَّرت ما قالته لِيل قبل أن تغطَّ في النوم في النُّزل في الليلة السابقة. لا أحدَ يدري متى يثمر الشر عن خيرٍ. وأدركتُ أن الخير والشر كانا دائمًا حاضرَين ودائمًا مختلطَين في تشابك. كيف تعكس هذه المقولةُ نضْج ميبس؟


هنداوي